دراسة في الأدب الإسلامي المقارن

من أدب الفرس والترك

دكتور حسين مجيب المصري



الدار الثقافية للنشر

من أدب

الفـــرس والتـــرك

عنوان الكتاب: من أدب الفرس والترك

اسم المؤلف: د. حسين مجيب المصرى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٨/١٣٤٣٠

الترقيم الدولى: ISBN: 977-5875-57-9

اسم الناشر: الدار الثقافية للنشر

اسم المطبعة: المطبعة العصرية - بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م



الدار الثقافية للنشر - القاهرة

ص.ب 134 بانوراما اكتوبر - هاتف وفاكس 4027157

email: sales@thakafia.com

من أدب

الفرس والترك

د. حسين مجيب المصري

الناشر
الدار الثقافية للنشر
ص.ب (134) بانوراما أكتوبر
تليفون وفاكس: 4027157 - القاهرة

مقدمة

هذا كتاب ينطوى على فصول قِصَار تنتظم صدراً صالحًا من أدب الفرس والترك، وتجلو صوراً من تاريخهم على نحو آمل أن يشوق ويروق، ويجعل المطالعة فى مرغوب كل مطالع يود أن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم. وقد حرصت الحرص الشديد على أن يكون خطابى فى هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء، فأرضيت الأول ما وسعنى أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها، كما تَحبَّبتُ إلى الثانى بعرضها عليه فى صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد. والملحوظ أنى كنت أكثر تودداً إلى ذلك القارئ الذى يؤثر ما يعجب ويطرب على ما عداه، ورغبته فى يسير ممتع يترشفه القلب على لذة، بقدر رغبته عن عسير جاف ليس له من مساغ، فبعثتنى البواعث على أن أجمع الكثير مما أريد فى القليل مما أقول، وتجافيت عما يلزم العلماء به أنفسهم من إشارة إلى المصادر، وتوفيق بين الروايات المتباينة، والتدقيق فى تحديد التواريخ، وغير ذلك من شروط البحث العلمى البحت. وقد سعيت من وراء هذا إلى إتحاف القارئ العربى بمستطرفات ومستظرفات من تراث أدبى إسلامى، لا يجمل به أن يجهله تمام الجهالة. فمما يؤسف له جد الأسف، أن يكون الخَيَّام فى رأى جمهور المتأدبين هو الشاعر الفارسى الأوحد، مع أن الفرس لا يعتبرونه من شعراء الطليعة عندهم، ومما تذهب عليه النفس حسرات، أن ينظر إلى الترك كقوم لم تدركهم حرفة الأدب، ويا كثر ما نظموا رائقًا ونثروا فائقًا. والذى أرى أن الأخذ بالمنهج العلمى الدقيق فى عرض الأدب الفارسى والتركى، ضئيل الجدوى إلا على تلك الفئة القليلة ممن وقفوا حيواتهم على الدراسات الفارسية والتركية، وأشهد لقد رأيت إعراضًا عن هذه الآداب حتى من بعض المتنورين، فقال قائلهم متبسطًا، إن هذا علم لا ينفع لانعدام من يفهمه ويتذوقه. وفى هذا كثير من الشطط، والوجه أن يقال، إن حق المثقفين علينا ـ نحن المشتغلين بتدريس هذه المواد والمعنيين دومًا بحرثها ـ أن نختصهم بشىء من عنايتنا، فنخاطبهم على قدر عقولهم بلغة يفهمونها، ونقدم إليهم مادة يسيغونها فيشتهونها. وليكن فى مكتبتنا العربية كتابان، كتاب لصفوة المتخصصين، وكتاب لخاصة المتعلمين، وليزخر الأول بكل الرموز والمصطلحات، وأسماء للمراجع فى جميع اللغات، أما الآخر، فليجانب فيه صاحبه كل ما يمكن أن يعد لبسًا وغموضًا، وليذكر أنه إنما يسوق العبارة إلى من لا تكفيه الإشارة، كما يحسن به أن يقدم الحقيقة العلمية فى جملة أدبية، وأن لا يطلع القارئ إلا على ما يتقبله بقبول حسن ويقع من نفسه موقعًا، فقد يكون الموضوع علميًا

يشهد للكاتب بعلو كعبه وتضلعه من علمه، بيد أنه وعر لا طلاوة له تغرى به وترغب فيه. وهذا ملحظ جعلته منى على ذكر. فعمدت إلى التنويع ونقلت القارئ من بحث أدبى إلى عرض تاريخى، وحدثته عن شاعر فارسى وآخر تركى، ثم ترجمت له شعراً وقصصاً، وأنا أريد بذلك لأزوده من العلم بأوفى نصيب وأوقفه على نواح متعددة فى إيضاح وإفهام، ومن غير ما إبهام ولا إقحام. وجعلت كل فصل قائماً برأسه، بعد أن حددت الغرض منه فى مقدمته، ولما تصديت للكتابة فى التاريخ، لم أسرد الحوادث سرداً، دون نظر وإعمال فكر وتوليد للمعانى الكثيرة من المعنى الواحد، فإن التاريخ مادة أدبية أولاً، وبالذات تتسع فيه منادح النظر وآفاق الفكر. أما المترجمات. فخصصت أصحابها بأسطر معدودات للتعريف بهم والإشارة إلى ما لآثارهم من قيمة ونفاسة، ومذهبى فى الترجمة أن تكون لروح المعنى لا لمدلول اللفظ.

والكتاب من ألفه إلى يائه متسم بطابع الجدة والطرافة والوجازة، فإن ذلك أبقى فى الحفظ وآخذ بالقلب، وكثير الكلام ينسى بعضه بعضاً كما يقولون.

وإنى لزاعم لك أن هذا المنهاج الذى اخترته لنفسى، أوفى بالغرض. وأعون على تحقيق الفائدة المرجوة من تناولنا بالبحث ناحية دون غيرها، أو شخصية بعينها، فمن قرأ كل شيء عن شاعر تركى مثلاً، لا يتصور شعر الترك إلا تصوراً ناقصاً، ومن وقعت له صحيفة واحدة من تاريخ الفرس فقد عرف شيئاً وغابت عنه أشياء.

ومن تحصيل الحاصل أن أقول إنه قد سبق نشر هذه الفصول تباعاً فى جريدة منبر الشرق، غير أنى زدت عليها القليل والكثير، بعد أن رأيت ضرورة جمعها بين دفتى كتاب ليكثر تداولها ويسهل تناولها وتنتقل من محيط صحفى كانت غريبة عليه، إلى محيط علمى هو مغرسها الذى تزكو فيه.

وبعد، فإن هذا الكتاب فى واقع الأمر صنو لكتاب أخرجته للناس منذ عامين تحت عنوان (فارسيات وتركيات).

والأمل أن أعزز بثالث ورابع وأكثر، إذا ما امتدت الأيام وكان فى العمر صلة، وإنها لأمانة إن قدر لى أداؤها، فهذا قصاراى وكل دنياى..

القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٥٠م.

حسين مجيب المصرى

الوطنية فى الشعر التركى

الترك أهل نجدة وشدة بأس، فهم خواضو الغمرات والفرسان الأماجد وليوث الكريهة منذ فجر تاريخهم وأول أمرهم. وقد وسمتهم بهذه الصفات بيئة آسيوية من الأحراش والفيافى لا يعيش فيها إلا مقدام يمتشق الحسام، وعقلية قبلية بدائية تمجد القوى تمجيداً وتستحقر الضعيف استحقاراً فلا تعرف له حقًا من الحقوق. وتقسو عليه كثيرًا فتفرض عليه واجب الخضوع والخنوع. والأمثلة على ذلك مستوفرة، ولا نعدمها حتى من اللغة، فيقال إن (ترك) بمعنى قوة، كما يسمى الفرس الغارة الشعواء غارة الترك، وقد يبلغون حد الشطط فيطلقون لفظ (تركى) على المتلصص والفظ والصعلوك المتجول، ويذكر الفرنسيون الترك فى أمثالهم فيقولون قوى كالتركى، ويقول شاعرهم: «لقد مر الترك من هناك، فما بعدهم إلا الدمار والبلاء والهلاك!».

وقد اقترنت هذه الصفات العنيفة باسم الأتراك فى ذهن الجمهور من المتأدبين حتى أكروا عليهم أن يكون فيهم جانب للبلاغة والأدب، فالبليغ مرهف الحس مجنح الخيال، فى نفسه رقة ولقلبه خفقة، وليس كذلك تركى غليظ شديد لا حظ له من براعة المتفنن وروحانية الشاعر.

وهذا وهم مردود لا يصدر إلا عمن عدم الحجة وأعوزه البرهان. فللترك أدب يرجع عهده إلى نحو سبعة قرون خلت، وشعرهم بعيد الغور متسع المذاهب. وإذا ما عرفنا التركى محاربًا وشاعراً، فلا معدى لنا عن الاتجاه بفكرنا إلى ما عسى أن يكون له فى الوطنية من شعر. وغنى عن البيان أن الوطنية والجندية لازم وملزوم لا سبيل إلى الفصل بينهما فى التصور، وكل قلب عامر بحب الوطن، والناس لا يختلفون إلا فى درجته من الشدة والضعف، غير أنهم متباينون إذا فكروا وعبروا. فالوطنى الجندى وصاف للحروب لا ينفك عن ذكر أهوالها وامتداح أبطالها، والوطنى السياسى يرسل الحكمة ويبذل النصح ويضرب المثل، وله صفة تعليمية لأنه يبصر بالحق والواجب، وشاعر الوطنية بعامة هو شاعر الفخر والحماسة، يعدد مفاخر قومه ويتغنى بمآثرهم، وإذا تغرب عن بلاده حن إليها ووصفها بكل جميل، ولا يفوته مدح القادة والزعماء. ورثاء ضحايا الوطن من الشهداء. فإذا نظرنا فى شعر الوطنية ألفيناه محتويًا على فنون عدة، أو يكاد ينتظم أغلب ما فى الشعر من فنون.

فأين الترك من هذا كله، وأين مكان الوطنية من شعرهم؟ وأول ما يسترعى النظر هو أن الوطنية لم تظهر واضحة المعالم فى شعرهم القديم، ونعنى به شعرهم قبل مائة عام،

ولذلك أسباب لا تخفى، فقد جرى شعرهم القديم على نهج الشعر الفارسى الذى كان فى جملته مقصوراً على المعانى المجردة، متجافيًا عن الدنيا ومعتركها فى صوفية هائمة حالمة. فلم يتسع المجال للوطنية. وكان التركى معتزًا بإسلامه قبل اعتزازه بأى شىء سواه، فإذا خرج للقتال فقد خرج جيش الإسلام للجهاد، فانعدم بذلك تفكيره فى قوميته وجنسيته، ومن ثم ضعف وعيه القومى. وكان السلاطين مستغلين متسلطين يعسفون الناس عسفًا شديدًا، فإشارتهم حكم، وطاعتهم غنم. وكان المظلومون لا يشعرون بهذا الظلم ولا يجدون مس الحاجة إلى الأخذ على يد الظالم، ولا يسمعون ذلك الصوت الخفى الذى ينبعث من أعماق النفوس داعيًا إلى صيحة المستنكر أو عزمة الثائر على تحطيم القيود وهدم السدود.

أما فى منتصف القرن التاسع عشر فتبدلت الحال غير الحال وتمرس الترك بحضارة الغرب، وتعرفوا إلى المبادىء الإنسانية وتسامعوا بأصول الحكم، فانطلقت أفكارهم واستنارت عقولهم، وكان العصر عصر نهضة وإصلاح، ولم يفشل الشعب عن حقه بعد أن عرف ما له وما ينبغى أن يكون له، وخاض الترك حرب اليونان وظفروا بالدستور عام ١٩٠٨ بعد طول تمنع وتأب من السلطان عبد الحميد، فظهرت بواعث الوطنية واضحة جلية. وما كان أجملها فى مثل قول الشاعر محمد أمين من قصيدة له: «أنا تركى أنا تركى، فالجنس جنس مجيد، والدين خير الدين، والنفس تلهبها نار الحمية، والصدر خفاق بالوطنية، والإنسان عبد للأوطان، ولا استكانة لتركى وابن تركى فلأمض لطيتى». وجرت على الألسنة والأقلام ألفاظ كانت من قبل فى طى العدم كحرية، ووطن، ودولة.

ووجد من زعماء النهضة وقادة الرأى من يتخذ الأدب أداة تصل فكره بفكر الشعب ووسيلة لا يهتدى إلى سواها للوفاء بحق الوطن عليه، فكتب الكُتَّاب، وخطب الخطباء. أما الشعراء، فطوعوا الشعر للوطنية وفاض شعرهم بها حتى جعلوا منها أخص سمة يتميز بها الشعر فى هذا العهد.

ومن أمثلة الوطنية العسكرية قول نامق كمال بك: «هو ذا العدو أمامنا شاكى السلاح، فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان، وتقدموا ثم تقدموا فالنصر معقود اللواء لنا، وهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان. إن مجد الوطن ورفعته فى ملاعبتكم للأسنة، وبها وقاء البلاد والعباد، وأنى يكون لكم بالله خذلان الوطن! فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان. الجرح شارة الجدارة على صدور الرجال، أما الموت فأعلى درجة يبلغها الجندى، وظهر الأرض كبطنها سواء بسواء، فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان».

فهذا نشيد وطنى يصور صلة الجندى بوطنه ليس إلا، وهو يثير عاطفة خاصة ويدعو إلى الاستبسال والاستشهاد. ولهذا الشاعر قصيدة تسمى قصيدة الحرية، وهى لون آخر من شعر الوطنية لأنها تصدر عن رجل حنكته تجارب السياسة فكان حكيمًا فى تفكيره، متزنًا فى تعبيره. إذ يقول: «لما رأينا لهذا العصر أحكامًا منحرفة عن جادة الحق وشرعة العدل، آثرنا أن نبقى على عزتنا فمضينا عن باب الحكومة موفورين. من عرف معنى الإنسانية بادر إلى أخيه الإنسان معينًا مسعفًا، والمروءة كل المروءة أن تأخذ بيد المظلوم وتنصفه من الظلوم.

وإذا ما حقرت الأمة وهان شأنها، فما ذلك بضائرها شيئًا فى شرفها، وهل الجوهر فى التراب إلا جوهر؟ نحن أهل العزم والهمم وحسبنا أننا خلقنا هذه الدولة الكبرى من تلك العشيرة الصغرى، وإذا جد الجد كان تراب القبر آثر عندنا من تراب الذل. ولا نبالى بنار الهول ما دام ذلك فى سبيل حريتنا. لله ما أجملك أيتها الحرية، وإن لك لفتنة ساحرة، سنظل أسرى هواك وإن انطلقنا من كل قيودنا فلا تحجبى عنا بهاءك ولتبقى ملء أعيننا إلى أبد الآبدين».

ولتوفيق فكرت بك قصيدة واسعة الشهرة فى حكم السلطان عبد الحميد يسميها «الضباب» وهى على جمالها الشعرى تشهد لصاحبها بملكة نقدية قوية وقدرة على اصطناع الرمز والإيماء، كما تمثله وطنيًا حذرًا هادئ النفس. استمع إليه وهو يقول: «أحاط الدخان بآفاقك ولم ينكشف عنها، فكانت ظلمة بيضاء تتراكب وتتزايد على المدى حتى محت كل شبح تحتها، وجعلت من الكائنات هياكل مغبرة، وارتد البصر حسيرًا عن أغوارها فانخلعت القلوب رعبًا. ولكن هل هذا الستر الصفيق يجديك نفعًا يا مجمع المظالم؟ لا تحسبن أن أمرًا من أمورك يخفى مهما جهدت أن تخفيه».

ولأورخان سيفى قصيدة عنوانها «أرض الأناضول» وهى مثال جيد للوطنية الخالصة التى نعهدها فى كل وطنى، فالشاعر هنا يحن حنينًا إلى بلاده وهو فى أرض غريبة ويعبر عن عاطفته تعبيرًا صريحًا بين البساطة محزون النبرات، وصدق الشعور أظهر ما فى هذه القصيدة. ولو أراد غريب أن يحدث عما يجول فى نفسه من نزعات وخلجات، لما اهتدى إلى أحسن منها. فمن قوله فيها: «أن ركنًا فيك مهما كان مهملاً منسيًا ليعدل فى الحسن عندى إرم ذات العماد.. والدار المتهدمة بك أو الموقد المطمور، نعم البديل من تلك القصور التى تطاول الجوزاء. ووالله ما أستشعر عزة ولا زهوًا إلا إذا تنسمت عذب نسيمك، ولا أسير مرفوع الهامة وضاح الجبين إلا فى جبالك أو سهولك. آه لو جاد الزمان علىَّ يومًا بالأوبة إليك فارتميت فى أحضانك،

وجرت دموع الفرح من عينى جريًا بعد جرى، ونعمت بالتجوال فى ظلال رايتك، ولثمت منك الثرى والحصباء».

وصدق من قال أن الترك جعلوا من نهضتهم الأدبية وسيلة إلى نهضتهم الوطنية.

* * * *

رأى فى الخَيّام

قل من الشعراء فى شرق أو غرب من نال من بعد الصيت ونباهة الذكر ما نال الخيام أو بعض ما نال، فإن اسمه مقترن بالأدب الفارسى وعلم عليه عند جمهرة المتأدبين. والنظر فى شعره صنيع كل من أخذ بطرف من أدب الشرق وأحب اكتناه سر من أسرار روحانيته.

وقد قيض الله للخيام من نقل شعره نظمًا إلى الإنجليزية منذ تسعين عامًا أو نحوها، فكان إلى ذلك مرجع الفضل فى سيرورة هذا الشعر واتساع شهرة هذا الشاعر، وأى عجب فى ذلك إذا عرفنا أن ترجمة فتزجرالد لرباعيات الخيام من روائع الأدب الإنجليزى التى لا تضاهيها فى المنزلة إلا مؤلفات شكسبير، وأنه قلما تخلو دار فى بلد يتكلم الإنجليزية من هذا الكتاب، وما من رفقة مثقفة تتحلق حول المدفئة لتخوض فى حديث الأدب، إلا كان الخيام موضع البحث ومحور الحديث. وقد بلغ من كرامة هذا الشاعر عليهم واعتزازهم بنفاسة شعره، أن يتأنقوا فى طبعه وتزيين صفحاته برسوم جميلة تحيطه بجو سحرى حالم، لينعموا منه ببهجة العين كما نعموا بمتعة الروح. قيل وطبعت منه نسخ محلاة بالذهب مرصعة بنفيس الجوهر، وآخر نهاية فى صغر الحجم لتكون حلية تتدلى من سلسلة الساعة، وكم كان جميلاً أن تكتب أبيات من شعر الخيام لتستهدى بها قنينة خمر أو قارورة عطر. ولم يسع الموسيقيين إلا أن يلحنوا مختارات من هذا الشعر وكان ذلك عشر مرات أو تزيد. أما الممثلون فعرضوا على المشاهدين المعجبين فصولاً ومشاهد من حياة هذا الشاعر الفارسى. وأحصيت اللغات التى ترجم إليها شعره فجاوزت الخمسين، وتصدى له النقاد وأعيان البيان فمجدوه ما شاء الله أن يمجدوه. وكان حقًا أن يصبح الخيام بذلك كله شاعر الدنيا وشاعر الخلود.

وإن كان هذا مما يثير أعجب العجب فى نفوسنا فأولى به ثم أولى به أن يحرك الفكر فى عقولنا، فنجهد أن نعلم البواعث التى توصل بها الخيام إلى ما لم يتوصل إليه غيره من مكانة لا تسامى.

وأول ما يلوح لنا، هو التفاوت الظاهر بين الخيام فى إيران والخيام فى غير إيران. فالرجل فى وطنه عالم يرصد النجوم ويرقبها فى مسالكها ليستخرج أصح التقاويم. ويدقق النظر فى علم الجبر وعلم الحساب فيحذقهما الحذق كله، ثم يبتدع فيهما ويسبق إلى الجديد، وهو طبيب معروف بالتنطس فى الطب يدعوه السلطان، وقد اشتد به الوجع فيقع على معرفة الداء ويصف الدواء فيه الشفاء. ولا يخرج عن مألوف أهل زمانه من الجمع بين

الطب والفلسفة، فيتعلق بها تعلقًا شديدًا ويقتل مشاكلها بحثًا وفهمًا، ولم يفرق إلا الموت بينه وبينها، فلما وافاه الحمام سنة ٥١٧ هجرية كان آخر ما أغمض عنه عينيه، كتابًا فلسفيًا لابن سينا بين يديه، وكان شاعرًا كذلك، ولكن من غير ألفاظ التفخيم والتعظيم التى تلحق بأسماء الشعراء فى هذه الأزمان، ولم يفسح له قومه مكانًا بين الفحول ممن سبقوه أو عاصروه، ولم يجمع شعره فى مجموعة إلا بعد مماته ببضعة قرون، واعتبروه حكيمًا يقول الشعر فى الحكمة، ولعله كان ينصرف إلى النظم ليتخفف من ثقل العلوم ويذود عن نفسه جفاوتها، وليلتمس الراحة لذهن مكدود أعياه طول النظر فى طلاسم الأعداد، فكأنه على ذلك كان يقول الشعر رياضة.

وقد اقتصر على نوع من النظم لم يتجاوزه إلى غيره وهو الرباعيات، وتعتبر الرباعيات من الشعر الخفيف الذى لا يكلف الشاعر إلا قدرًا من الجهد ولا يتطلب شاعرية أصيلة بالمعنى المفهوم تشهد له بطول النفس وتمام الأداة وحسن الصناعة، وإن كان هذا لا ينفى أن يكون لفطاحل شعراء الفرس رباعيات إلى جانب شعرهم فى الأوزان الأخرى، وأن الرباعيات أوفق ما يكون لشعر كشعر الخيام يصور به صاحبه فكرة ويصوغ فيه حكمة، فكل رباعية وحدة قائمة برأسها وهى أشبه شىء بقضية منطقية كقوله: «يا من يحرم الصهباء على نفسه، كف بعض اللوم عن صرعى الكؤوس، سأتوب لا محالة من شربها إن تاب على ربى. ولكن لا يزهونك أنك لا تذوقها إن زادت سيئاتك شرًا عن شرها وإثمًا عن إثمها».

وكما قصر الخيام شعره على وزن واحد فقد أدار معانيه فى دائرة لا تتسع لأكثر من أن العيش فى هذه الدنيا شقاء لا شقاء بعده والأمل سراب والناس ركب يساق بهم وهم نيام، وكل ما فى الحياة إلى فناء، فسيهلكنا الدهر كما أهلك من قبل أوائلنا، ولا قدرة لعقل بشر على فهم سر الوجود والعدم، فالمرء أمام هذا الكون مرتاب متردد، وفى بعض أئمة الدين جهل ورياء وعجز عن هداية الحيران، فلنعب الشراب عبًا ملتمسين نشوة تطير بنا عن هذه الدنيا العبوس، ولعلنا بذلك نجد بعض العزاء عن ألم الحيرة الذى يملأ علينا الأرض والسماء. فالخيام لا ينفك يردد هذا فى رباعياته وإن كان كثير منها مدسوسًا عليه، أو هو لغيره ونسب إليه. والواقع من الأمر أن قارئها فى الفارسية لا يكاد يجد فيها جمالاً شعريًا باهرًا يهز النفوس وإن وجد كلامًا رقيقًا عذبًا يسابق لفظه معناه، وهى فى جملتها قليلة الحظ من الشاعرية إذا قيست بغيرها من شعر الفرس واعتبرنا شهرتها وشهرة صاحبها التى طارت فى كل الآفاق. تأمل قوله: «حللت مشكلات هذه الدنيا إنْ فى الأرض أو فى

السماء، فما انطلى على زور ولا نفعت فى حيلة، غير أن عقدة واحدة أعيانى حلها، ألا وهى عقدة الأجل».

فهذا كلام شديد الوضوح غنى عن البيان لا يمكن أن ينسب إليه من الشعر إلا الوزن والقافية فذكره والسكوت عنه بمنزلة عند من يطلب جديدًا فى العلم ونورًا فى الظلمات.

وإن كانت هذه صفات الخيام فى إيران وسمات شعره فى الفارسية فما ذيوع هذه الرباعيات فى ترجمتها إلى الإنجليزية على الخصوص وإلى اللغات الأخرى على العموم؟

والمعروف أن الخيام قبل ترجمته الإنجليزية لم يكن عند المتأدبين من المستشرقين إلا شاعرًا نحيلاً وإن كان عند غيرهم من الأوربيين عالمًا كبيرًا، ففتزجرالد هو الذى قدمه للغرب أو هو الذى خلقه خلقًا بترجمة بعدت من البلاغة شأوًا، فبلغ الشعر من قرائه مبلغًا عظيمًا. ولا يفوتنا أن نقول إن جمال طبع الرباعيات وكون شاعرها إيرانيًا من بلاد الورود والبلابل، مما لفت النظر إليه وزاد من العناية به عند قوم يتعلقون بكل ما هو شرقى على أنه تحفة مستطرفة مستملحة. والخيام يوجه الخطاب إلى الإنسانية جمعاء، ويتحدث بعبارة لا التواء فيها على لسان الناس طرًا فكلامه يخطر على كل القلوب ويجول فى كل الأذهان، وقد صادفت دعوته الصريحة الجريئة إلى التهالك على اللذات هوى فى النفوس، فالمرء أميل إلى التبسط منه إلى التزمت.

وكلام الخيام جميل فى خيال الشعر، وإن كان بعضه مقبولاً معقولاً فى موضع، فإن معظمه غير معقول ولا مقبول فى مواضع، اللهم إلا إذا فهمناه على أنه رمز وإيماء، وإن أبلغ الشعر أكذبه كما قيل.

هذا، ولا ريب أن الخيام حظيظ سعيد الطالع لما حظى به من حسن الأحدوثة، فقد رقم اسمه على جبين الدهر ونال بحظه فوق ما كان ينبغى أن ينال بكفايته، ولعله قد وجد من طيب الذكر بعد مماته تلك السعادة التى كان ينشدها ويدعو إليها فى حياته.

* * * *

السلاطين الشعراء

فى تاريخ الأدب التركى ظاهرة تستوقف النظر وتستلفت الفكر. وتجعل فى هذا الأدب سمة يختص بها وحده دون سواه من الآداب قديمها وحديثها، فقد كان من حسنات الزمان أن طاب لربة الشعر سكنى قصور السلاطين من آل عثمان، فرقت للشعر قلوبهم، وتأصلت ملكته فى نفوسهم وانطلقت ألسنتهم بروائعه، وشاركوا فيه أحسن مشاركة، فكان من السلاطين والأمراء شعراء كُرموا بالشعر وكُرِّم الشعر بهم، وعزت دولة الأدب فى عصورهم، وارتفع الأدباء إلى أعلى مرتبة وأسمى منزلة، وكأنما كان هؤلاء السلاطين يتوارثون الشعر كما يتوارثون الملك، فإذا أحصينا من كان منهم شاعرًا وجدنا عشرين أو ما يقرب، ولبعضهم دواوين تنطوى على الرقيق الأنيق، وللبعض الآخر أبيات تتفاوت فى حظها من الجودة، وإن شهد معظمها على دقة النظر وصفاء الروح.

ومما يذكر، أن تعلق السلاطين هذا بالشعر وقول البليغ إنما يعزى إلى لون ثقافتهم ونوع البيئة العلمية التى أحاطت بهم، فقد كان الفتى منهم يجلس إلى مؤدبيه ليتلقن الفارسية لغة الأدب الرفيع فى هذا الزمان التى لم يكن للمتأدب معدى عن تعلمها والضرب بسهم فى آدابها، وما آدابها فى جملتها إلا الشعر العالى فى أوسع آفاقه وأعذب أنغامه، فلا جرم أن يشب الناشئ على عبقرية الخيال ورقة العاطفة وحساسية الذوق، وهى مقومات الشعر وملهمة الشاعر إن واءمها حسن استعداد وطبع مداد. وقد دأب الترك على هذا فى تأديب النشء فترتب عليه أن كان الشعر التركى القديم صدى للشعر الفارسى يردد معانيه ويرسم صوره ويستعير لفتاته ولمحاته، ومن ثم كان شعر الفرس والترك صنوين متلازمين وشطرين متكاملين، كما اشتد ولوع الترك بالشعر فعالجوا صناعته، حتى أحصى أحد مؤرخى الأدب التركى أكثر من ألفى شاعر مع إيراد النماذج من شعرهم.

ونخلص من هذا إلى أن ثقافة العصر السامية هى التى أعانت السلاطين على قول الشعر فقاله معظمهم تطبعًا، وإن كان ذلك لم يقعد بهم عن الإجادة فلم يتخلفوا كثيرًا عمن قال الشعر طبعًا واستمدادًا من ملكة أصيلة.

وأول السلاطين الشعراء هو مراد الثانى المتوفى سنة ١٤٥١ وتعليل اختصاصه بالأولوية أن السلاطين من قبل لم يعالجوا النظم جديًا، وإنما قلدوا ما كانوا يقرأون على مؤدبيهم من شعر الفرس أيام الشبيبة، ومراد أول الجادين، ويعتبر عصره فاتحة عهد جديد، فقد ندر من السلاطين الذين خلفوه من لم يتوفر على نظم الشعر. ويبلغ من حب هذا السلطان للأدب وإكرامه لأهل الأدب أن يدعوهم إلى مجلسه حيث يأخذون فى كل فن ولا يدعون طريفًا

إلا ذكروه، ولا جميلاً إلا ألقوه على مسمع السلطان ،فيفيض عليهم من سوابغ نعمه ويغمرهم بألطافه، وكثيرًا ما كان يلحق فقراءهم بالأعمال لسد حاجتهم وكفهم عن السؤال. ومن شعره رباعية لطيفة تخطر بالبال شعر الخيام وهى: «صب كأسى من شراب الأمس يا ساقى، وسل القلب عن سر فيه يخفيه، وإلىَّ بالرباب والعود. وما دمت حيًا فحق لى هذا الأنس وهذا الطرب، فسوف يحل يوم يضيع فيه كل أثر لى فى التراب».

وكان محمد الثانى أو محمد الفاتح شاعرًا، وإذا ذكرناه فلا مندوحة لنا عن ذكر قولته المشهورة الباقية على وجه التاريخ، فبينما كان يفتتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ وقف بقصر تهدم وتخرب فتمثل بقول الشاعر الفارسى: «اليوم تنعق البوم على قباب الأكاسر، والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر»، وكان الظن بالشاعر فى مثل هذا الموقف أن تجود قريحته فيرتجل لا أن يتمثل بقول غيره. وديوانه لطيف الحجم يدل على أنه مقل مجيد، فمن قوله: «أنا عبد لسلطان من عبيده سلاطين الدنيا، ونور شمسه يبهر شمس الضحا، وإذا قتلنى بالسَّهم أو أهداب العيون فسواء على القتيل فتكة الحسام أو قتلة السهام. لكم شعر هو ليلة القدر، وحاجبك هلال العيد، وما وصالك إلا فرحة العباد بحلول الأعياد، أما فراقك آه من فراقك فهو شهر الصيام!».

وقال متبسطًا ومعبرًا عما تصوره له نفسه فى مجلس شرابه: «أدر علينا الخمر يا ساقى فهذا البستان إلى ذبول وذوى، وإذا وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض، أنا إن شاهدت هذا الجميل ضاع زمامى من يدى وغلبت على زهدى وتقواى. ألا لا يغرنك هذا الحسن. ومتى دام للجميل جمال؟ فالوفاء الوفاء لنا». وكان الفاتح يستقدم العلماء ويغدق عليهم عطاياه. وقيل إنه كان يجرى الأرزاق على ثلاثين شاعرًا كما كان يصطفى وزراءه من أهل الأدب، وهو أول سلطان ذكر اسمه المستعار فى شعره.

ومن الأمراء الشعراء الأمير جم، وهو أشعرهم ولا جدال، وقد حيا حياة تعسة عكر صفوها النزاع والتخاصم بينه وبين أخيه با يزيد فاختلفا أيهما يكون له الملك، وهاجت الحرب بينهما عبوسًا شعواء وكان النصر دومًا لأخيه، وعاش جم طريدًا شريدًا يضرب فى أرض الله الواسعة فاعتورته المحن وتواردت عليه أيام يشيب منها الوليد، وكان شاعرًا بحق ففاضت شاعريته بشعر حزين، ولم يتقيد بتقاليد الشعر فى عصره كغيره من الأمراء والسلاطين الذين جمدوا على القديم فكانت أغراضهم محدودة، وألفاظهم براقة وللذوق نبوة عن كثير من مبالغاتهم. ومن قوله متحدثًا عن محنته: «هو ذا السيل يجرى ضاربًا صدره بالحجر حزنًا على، ألا فتأمل كيف يرثى الكون بأسره لحالى، فقد شق الشفق جيبه

جزعًا وفاضت السماء دمًا فى الفجر، وبكى السحاب مدرارًا وله على الجبال دموع تنحدر ونشج الرعد نشيجًا يثير الأسى». فهو هنا ينظر إلى الطبيعة بعين دامعة وقلب حزين، فيبكى ويستبكى وتهيم روحه فى السكون فيفنى فيه فناء.

وللأمير جم قصة غرام مع فتاة عرفها فى فرنسا وبادلها حبًا شديدًا بحب أشد، وفيها يقول: «أبشرى أيتها الروح بمقدم حبيب القلب، وليهنك أيها الجسد أن ترد عليك حشاشتك. تم سعدى فى ليلتى هذه، فقد وافى الحبيب فكأن بدر التم لاح فى علياء سمائه، فهيا يا جم، جد بالسويداء، إكرامًا لضيف حل أهلاً ونزل سهلاً».

وكان السلطان سليم الأول فى طليعة المجيدين من الشعراء، وله مكانة مرموقة لأنه نظم بالفارسية، فنفح الأدب الفارسى بديوان كبير ولم ينسب إليه إلا بيت فى التركية وأبيات فى العربية، وقد ظلمه أدباء الترك بإغفال ذكر شعره لأنه بالفارسية، كما سكت عنه أدباء الفرس لأنه تركى. والواقع من الأمر أن شعره متصف بالجزالة متميز بصدق الشعور والتعبير، وهو فيه معتد بنفسه مزهو بغزواته وفتوحه، فنسمعه يقول: «أنا من سيّر الجحافل من استانبول إلى إيران فأغرقت الفرس أعدائى فى بحار من الدماء، وجعلت والى مصر عبد رق لى، فرفعت لوائى إلى الجوزاء. وسرت هذه البشرى من العراق إلى الحجاز لما ترنمت الأوتار فى مهرجان نصرى. وصهرت ذهبى فى بوتقة الشمس فشربت باسمى عملة العالم بأسره!»، وقد يخفف سليم من غلوائه ويكسر من كبريائه، فتلين شدته وحدته، ويرق وتَعْذَب منه رقته فيقول: «لا رغبة منى فى الجنان ولا مأرب لى فى كوثرها؛ وكل أملى أن أتوصل إلى مواطئ قدميك، وأقسم أن نفسى لتطيب بالتجرد من هذا الملك العريض إن جدت يومًا برضاك، والعفاء العفاء على هذه الدنيا وكل ما حوته من طيبات ونعيم»، ولم تعرف الفارسية فى عصره من شعرائها من يتعلق بغباره.

أما شعره العربى فعليه مسحة ملكية، وكأنه ترديد لأبيات مشهورة قالها الرشيد فى جواريه. يقول سليم:

ظبى يصول ولا اتصال إليه ... جرح الفؤاد بصارمى لحظيه
يسقى المدامة من سلافة ريقه ... ويخصنا بالغنج من جفنيه
الناس طوع يدى وأمرى نافذ ... فيهم وقلبى الآن بين يديه
عجبى لسلطان يعز بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
لولا أخاف الله ثم جحيمه ... لعبدته وسجدت بين يديه

واستوى بعده على العرش ولده سليمان القانونى عام ١٥٢٠ وعصره هو العصر الذهبى للأدب التركى، فقد نبغ فيه مائتا شاعر، وما دام الناس على دين ملوكهم كما يقولون، فلا عجب أن يكون هذا السلطان من الشعراء. وله ديوان جيد يؤخذ منه أنه شديد التأثر متقلب المزاج؛ والظاهر أن اليأس والأمل كانا يتناهبان حياته، والفرح والترح يتداولان عليه كما يتراءى لبعض النقاد، فبينما نراه يقول: «لما صورك مصور القدرة فأبدع تصويرك، حار فيك كل وهم، وهام فيك كل خيال، وإذا خطرت فى البستان فلا قد للسرو بجانب قدك، وإن حمر الورود لتنشق حسداً إذا تحركت شفتاك بكلمة، لقد خلبت لبى فبالله إنى أصيب جميل صفاتك»، إذ به يخرج من هذا الشعر المشرق إلى شعر كئيب قاتم فيقول: «ليس على وجه البسيطة إلا من يطلب الهناءة، ولا هناءة إلا فى برهة من عافية، مهما كثرت أعوامك وامتد بك عمرك، فلن يبلغ ساعة من عمر هذا الفلك الدوار».

وبعد؛ فقد أوجب فيلسوف قديم أن يكون الحاكم فيلسوفاً، فما أعجب ألا يوجب الترك أن يكون السلطان شاعراً!!

* * * *

على قبرها

في مقبرة حزينة بطهران يغمرها الموت بسكون حالم، لولا حنين طير غريب بين الفينة والفينة، وتحت سروة لها انحناءة الأم على مهد واحدها، يشاهد الزائر الخاشع قبرًا منزويًا يدل ظاهره على ألم دفين وسر خفى، ويصف للأحياء خبرًا عن الأموات، وما ذاك إلا لبيتين من الشعر طمس البلى على الحجارة نقشهما أو كاد، وهما: «إن الحديث المستفيض عن ياقوت ثغرك يتناهى إلى مسمعى حيثما توجهت، فأى حرقة لمدمعى ويلاه يا رب! وما تكون هذه الوردة الحمراء التى تحرق قلبى نارها كلما نفح عطرها!»، وعلى حاشية هذا الشعر سطر من الخط الجميل يقول لقارئه أن (كلجهره) محبوبة (صبوحى) ترقد فى ثرى هذا القبر.

ولهذين العاشقين قصة جرت على الألسنة وطاب للعشاق فى إيران أن يتناقلوها، كما حسن موقعها من نفوس المتأدبين، فكانوا يزورون هذا القبر فى كل يوم جمعة، وهناك يدعون له بالسقيا مترحمين على صاحبته، ويأخذون بأطراف الحديث بينهم، وما حديثهم إلا عن لوعة القلوب وخفقاتها بالهوى، وليس فيهم إلا من يقول الشعر عذبًا رقيقًا. أما إذا جرى ذكر للقبر الذى أمامهم وللإنسانة التى تنطوى عليها ظلماته. فإن قائلهم يقول:

كانت كلجهره فتاة لأسرة رقيقة الحال تعيش على الكفاف من كسب عائلها الفخارى الذى لم تطل أيامه، فمات عن ابنته قبل أن تتم السابعة من سنيها، وخلفها كَلاً على أم حزينة لا طاقة لها بدفع عادية الزمان إلا بيدين ضعيفتين لا تحسنان إلا غسل الثياب ليتقاطر من ذلك رزق ضئيل يمسك الرمق. وعاشت الفتاة فى ذل اليتم وحرمان الفاقة حتى جمعتها ملاعب الطفولة يومًا بفتى يقال له صبوحى. وكان كمثلها ضعف شأن، فانجذب الشبيه إلى الشبيه، وأكدت الألفة بينهما غرارة الصبا. ثم مرت أيام تفتح الأكمام عن الزهر وتنضج الثمر فى الشجر، فأزهر حسن الفتاة واكتملت شبيبة الفتى، وآن أوان حب يعطف قلبًا على قلب ويجمع شملاً بشمل، فعرفا حنين الشوق ونجوى الهيام، وكان الفتى أميًا لا يحسن أن يقرأ، إلا أن شاعرية أصيلة فى نفسه وروحانية يستوحيها من حبه، ورغبة فى إعجاب صاحبته، أطلقت من لسانه، ورققت من عاطفته، فقال الشعر شيئًا عجيبًا. وقد وهب صوتًا نديًا فترنم بالشعر ترنمًا كميلاً، وحلا له أن يقف بدار الحبيبة فى كل أمسية ليردد عذب النغم ويقول أرق المعنى، فتطل عليه فتاته وتبسم له عن ثناياها الغر وتبعث الإشراق فى فؤاده، وبرد الراحة فى قلب خافق مشبوب.

وظل هذا دأبه أيامًا بعد أيام، غير أن الحال تبدلت، وكان الذى خاف أن يكون، وأذاقه الزمان كأسًا أذاقها لكلجهره من قبل، تلك الكأس التى مزج لهما فيها مرارة الموت بمرارة الحاجة فقد مات عنه أبوه ليتركه مستوحشًا مع أم عجوز يحزن لمرآها وينوء تحت أعبائها. وثاب المسكين إلى نفسه فلم يجد له معدى عن الضَّرْب فى أرض الله الواسعة انتجاعًا للرزق، فسعى إلى الفتاة ليستودعها وفاءه وبقاءه على عهدها. وكانت وقفة للوداع يا لها من وقفة، آلمت قلبين وشردت روحين، وأبطلت فيها الضرورات كل الشفاعات.

وقدم صبوحى طهران وأمله الحصول على عمل، فسار طويلاً وسأل كثيرًا. وبعد أن كاد يستيئس، وجد العمل فأصبح خبازًا. ومر الزمن وطالت الفرقة على الحبيبين فضعف قلب كلجهره عن أن يحتمل الوجد وتباريحه، فصح عزمها على اللحاق بصبوحى، فارتحلت إلى طهران، وهناك تنسمت أخباره وبحثت عنه فى مظان وجوده حتى اهتدت إليه بعد لأى، ورأته أمام تنوره يستدر القوت بكد اليمين وعرق الجبين. وكان لهذا اللقاء فرحة بددت أحزان فراق طويل، بيد أن هذه الفرحة كانت قصيرة الأمد، فقد استوخمت الفتاة العاصمة وتأذت صحتها بجوها، فما لبثت أن اعتَلَّت وخامرها السل، فعصف بجسمها الضاوى عصف الريح بالغصن الذاوى، ونالها من الشحوب ما ينال الشمس قبل الغروب، ومضت كلجهره الجميلة المسكينة التى طالما ملأت الحياة أنسًا والعيون حسنًا والقلوب غرامًا.

كانت الفجيعة من الشدة بحيث زلزلت نفس صبوحى فى أعماقها. فجزع جزعًا شديدًا وحزن حزنًا وجيعًا لا ينفع فيه صبر ولا عزاء، وارتفع صوت ضميره باللوم الجارح على هجره لها وإيثاره عليها دنيا يصيبها ومالاً يكسبه، وشرد لبه بعد اقتناعه بأنه سبب البلاء وأنها شهيدة الوفاء، فبات مؤترقًا ولم يسعه إلا أن يقضى سواد الليل فى المقبرة واقفًا على قبرها يروى ثراه بالدمع الهتون مقلبًا كفيه ومناجيًا نفسه تارة، ومن فى القبر تارة أخرى. ودامت حاله على ذلك الليالى ذوات العدد حتى ظن به اختلاط العقل. وعلم صديق له بأمره فأدركته الرقة عليه، وجهد أن يخفف من بلواه ويكشف من كربه، وكان عليمًا بولوعه بالشعر وشدة طربه لروائعه، فجعل يقرأ عليه شعر حافظ الشيرازى. شاعر الغناء والغزل فى إيران، وأشعر شعراء الفرس غير منازع، فكان صبوحى يلقى سمعه مأخوذًا بروعة الشعر، ومناغمًا كل بيت بالتأوه والنحيب، واستتم سماع الديوان برمته فى نحو من أربعين ليلة، رأى بعدها فيما يرى النائم كأن حافظًا يقدم إليه كأسًا دهاقًا، فيأبى أن يتناولها منه، غير أن الإلحاح فى قبولها يجعله يشربها، فيقول له حافظ: «لا يحزننك يا صبوحى

أن تموت عنك من تهوى، فقد جعلت لك نعم العوض ممن فقدت، وليهنك اليوم أنى جعلتك شاعراً غزلاً رقيقًا، فامض لطيتك. . . ».

وقد أصبح صبوحى منذئذ شاعراً بحق، يتصرف فى فنون الشعر ويتميز بالإجادة فى شعر الحب والرثاء والخمريات والزهريات، ومن شعره قوله: «فى القلب من حبك نار أشقى بها، ووالله ما كان ظنى بالزمان أن يسعدنى بالشقوة، لقد تنفس الفجر يا ساقى وحان وقت الصبوح، فهات الكأس، واشربها شمولاً».

ولم يمتد العمر كثيراً بصبوحى بعد كلجهره وأبى البؤس إلا أن يلازم حياته إلى آخر لحظة له فيها، حتى أنه لما مات لم يجدوا الوسيلة إلى تجهيزه ودفنه إلا ببيع ثيابه والإنفاق على ذلك من ثمنها.

ومن أسف أن تنقطع وسيلتنا إلى رؤية ديوانه الذى قيل لنا إنه طبع فى إيران منذ يسير، فنحن لا نعرف له إلا البيتين السابق إيرادهما بالإضافة إلى ما كتب على قبر محبوبته، وكم كان بودنا أن نقرأ هذا الشعر الذى يعتبر مثالاً لصاحب الملكة والسليقة والطبع الصادق، الذى لا يقول إلا استجابة لهاتف الوجدان وباعث الشعور، وإن لم يسلم خبره من مواضع محمولة على المبالغة والإغراق فيما يلوح. أما إذا صح فى العقول أن يصنع الحب بالعشاق ما صنع بصبوحى وكلجهره، فليس عجبًا أن يوصف سلطان الحب بالجور والطغيان!

* * * *

عـرش وسلطـان

كانت السلطانة الوالدة مع ولدها السلطان عبد العزيز فى حديث مقعد مقيم، يتجاذبه قليل من الرضا تارة، وكثير من السخط تارات، حتى انبعثت من عينيها السوداوين نظرة شديدة، وارتفع لها صوت لا يرتفع إلا لأمر أو نهى، ثم قال: «أى معنى لهذا التردد وأى جدوى لهذا الإحجام! اجعل ولاية العهد من بعدك لابنك يوسف، وانتزع له العرش من ابن عمه مراد، فإن ذلك عليك حتم لزام. لا أرحام بين الملوك والحكم لمن غلب لا بد من موت مراد بضربة سيف أو جرعة سم، ليستقر بيوسف عرش أبيه. كأنى بك تخشى مرادًا هذا وتخصه بشىء من رحمتك، ذلك المخنث الخائر العزم الذى لا يصلح للملك بحال، ولا يحسن إلا التطريب والضَّرب بالمعازف، عجل ولا تتريث، اجهد أن تحصل من شيخ الإسلام على فتوى بخلع مراد من ولاية عهدك، واعلم يقينًا أن روسيا على أتم الأهبة لمدنا بعشرين ألفًا من رجالها الشداد إن شغب الشعب علينا. والله إن نفسى لتزين لى أن أقتل يوسف اليوم بيدى لأريحه مما ينتظره من موت زؤام أو حياة شقوة وعذاب إذا استوى على العرش مراد».

وجعلت العجـوز تضرب على هذا الوتر لتنفث السم فى قلب عبد العزيز، وتوغر صدره على ابن أخيه ووارثه الشرعى، وهى بذلك إنما كانت تزيد فى الطنبور نغمة، لأن عبد العزيز كان على نية خلع مراد منذ بعيد، فقد حاول ذلك تكرارًا فى أعياد جلوسه، غير أنه منى بالخيبة على الدوام لاعتراض شيخ الإسلام واستنكار الإنجليز، ولم يكن يخفى عليه تعلق الشعب بمراد وحبه له، وأن هذا الحب كان بقدر كراهيته ليوسف وزهده فيه.

وكان مراد أهلاً لهذه المحبة فهو الرقيق الحليم، والعاقل المستنير، والمتأدب المتوفر على قراءة الشعر والأدب، والذى لا يسمع عليه قط من سوء، وهو إلى كل ذلك متفنن مشغوف بالموسيقى إلى أبعد الآماد، وقد أكسبته هذه الصفات إعجاب الملوك. فقد اتفق أن صحبه السلطان عبد العزيز مع ابن عمه يوسف فى رحلة إلى ممالك أوربا، فأنس به كثيرًا نابليون الثالث وقدر ملكاته ملك بروسيا، أما الملكة فيكتوريا فما وسعها إلا الثناء المستفيض على حصافته ولباقته، ومن عجب ألا ينال يوسف من كل هذا الإعجاب والإطراء شيئًا، فيحز ذلك فى نفسه ونفس أبيه، ويعود المرتحلون إلى الوطن فيحاط مراد بالعيون وتحصى عليه الحركات والسكنات ولا يزايل القصر إلا فى مركبة مرخاة السدول.

وطالت الحيرة بعبد العزيز، ولم يهتد إلى حيلة تخرجه من هذا المأزق المتضايق، فهو مدفوع بوحى من أمه ذات الحول والسلطان، ومسوق بهاتف من نفسه التى تحلم بنيل رغائبها فتستشعر اليأس فى كل يوم، وتذهب أحلامها أباديد، ويمر بخاطره أن يستجيب لنزغات الشيطان فينتفض إباء واستنكافًا، ويتعاظمه الذنب إن أزهق الروح الزكية، ولا يملك إلا أن يسأل المنجم فلا يقدر المنجم على شىء!

ودارت الأيام وضاق الناس بحكم عبد العزيز الذى أراد بيع بلاده للروس عن رضا وطواعية، وقيد تركيا بديون يصعب الانطلاق من أسرها، وكان كثير الأهواء شديد التعصب والجمود على القديم، فأحفظ ذلك الشعب وأسخط الوزراء، وفى طليعتهم عونى باشا، ومدحت باشا، فصح عزمهم على التخلص من عبد العزيز بخلعه وتولية مراد لحاجة فى نفس يعقوب.. فما كان أيسر وأسرع من استصدار الفتوى بذلك فقضى الأمر، وهب عبد العزيز من نومه منزعجًا ذات صباح، فقد أيقظه دق عنيف على بابه، ودخل عليه من سلمه قرار العزل، وأمر السلطان مراد بأن يغادر القصر مع أهل بيته. فأسقط فى يده وكاد ينشق غيظًا وحزنًا، وذكر ابن أخيه وكيف جازاه نكرًا بعرف، فتعجب كثيرًا وندم أشد الندم على الرأفة به والإبقاء عليه، أما السلطانة الوالدة فانطلق لسانها من اللعنات بما له وقع السياط، ولكن أنى للسهم المنطلق أن يرتد إلى القوس، وللمتسخط أن يحبس الأفلاك عن دورتها؟ قصفت المدافع ودوت الأبواق وطاف المنادون على ظهور الجياد يزفون البشرى بذهاب عبد العزيز وإياب مراد.

وتم كل ذلك فى خفية من مراد الذى لم يكن يدرى من الأمر أكثر من سخط الشعب على عمه، ورغبة الوزراء فى عزله والخلاص منه بحال من الأحوال، وقد سبق لعونى باشا أن أشار تلميحًا إلى ضرورة قتله، فزعر مراد واستغفر الله من ذلك، وآثر أن يموت على أن يرتضى قتل عبد العزيز. وما كان أشد فزع مراد ودهشته حين دخل عليه عونى وسلم بالسلطنة، فسأل عن عبد العزيز مستفسرًا عن مصيره ومشفقًا عليه من أى سوء يناله، حتى وقف على جلية الأمر فعاودته الطمأنينة وهدأت نفسه هونًا ما، تلك النفس التى عز عليها الهدوء منذ دهر طويل، فقد كانت نهبًا للهموم والغموم كلما طاف بها حقد عبد العزيز وزمرته الغاشمة التى كانت تتمنى العثار لمراد وتتربص به الدوائر، فشرد لبه وسهر ليله واستعان بالصهباء على النسيان والسلوان، والتمس فى إشراق كأسها ما يبدد عنه ظلمات بعضها فوق بعض، فداوم على الشراب حتى ساءت صحته ودقت حساسيته، فاشتد عليه وقع الحزن وتأثر لما لا يمكن أن يتأثر له غيره.

ومما ينهض دليلاً على تأصل الخير فى قلبه وتجافيه عن الشماتة والتشفى، أن يبكى مدراراً لمشاهدة عمه المخلوع مع والدته وولده فى القارب الذى مضى بهم إلى حيث مقرهم الجديد، كما أوصى بهم واستعطف عليهم حتى أنه أجاب عبد العزيز إلى رغبته فى سكنى قصر (جراغان) على كره شديد من وزرائه.

وحل يوم عبوس حزين أنبئ فيه مراد بمصرع عبد العزيز، وتضاربت فى ذلك الروايات. فمن قائل أنه انتحر، وقائل إن الوزراء تآمروا على قتله، وإن عونى باشا رأس هذه المؤامرة لأنه كان يريد أن يكون الحاكم الفعلى، إذ جعل مرادًا الحاكم الصورى، ولم يعدم عبد العزيز من يثأر له فيقتل عونى شر قتلة، كما لم يَنْجُ غيره من الوزراء إلا بأعجوبة الأعاجيب، فانخلع قلب السلطان لهذا النبأ وازدادت نفسيته ثورانًا وتوترًا، وأخذه مر الأسى فاعتل وساءت حاله. قيل وعز نومه وامتنع قراره، فما كان يصيب من الطعام إلا يسيرًا ولا يميز خيالاً من حقيقة، وهو يذرع حجرته جيئة وذهابًا مختلج الأعضاء هاذيًا بما لا يفهم، حتى ظن به ذهاب العقل. وقرر الطبيب أنه مصاب بهزة عصبية عنيفة يحتمل زوالها إن فى الحال أو فى المآل، غير أن مدحت باشا الذى كان يريد خلع مراد لحرية مبادئه ورغبته فى الحد من امتيازات رجال الدولة، أوعز إلى الطبيب أن يعلن جنونه، وأرغمه على ذلك بالوعد والوعيد، حتى يفتى شيخ الإسلام بعزله. ونال مدحت باشا أربه من الطبيب كما أفلح بعد لأى فى إقناع شيخ الإسلام. وخلع مراد كما خلع عبد العزيز من قبل بعد أن حكم ثلاثة وتسعين يومًا. وعرض الملك على أخيه عبد الحميد فامتنع فى بادىء الأمر، واشترط ألا يمس أخوه بسوء، ثم قبل بتحرز وتحفظ، فلم يكن الشعب راضيًا عنه كما اعتبره أعضاء حزب تركيا الفتاة مغتصبًا، لجلوسه على العرش فى حياة أخيه.

وأقام مراد فى قصر جراغان لقضاء ما تبقى له من عمر قصير كما زعم المغرضون وافترى المفترون، وفى الحق أنه تماثل من مرضه ومسح الله ما به، فثاب إليه عقله الراجح ورأيه الصائب، إلا أنه أصبح حبيسًا فى القصر فلا دخول عليه ولا خلطة به، وقد حظر ذلك حتى على أهله وولده، فلم يكن له من أنيس يؤنس وحشته إلا البيانو الذى كان يحسن العزف عليه الإحسان كله، فتهيم روحه مع الأنغام ويعيش فى الأحلام متناسيًا بذلك مرارة الأسر وقسوة الحرمان.

فهل كان مراد حقًا على ما وصف أعداؤه؟ ذلك السلطان الذى رسم الخطة لإلغاء الرق ونظام الخصيان، وعزم على تحرير المرأة التركية، وفكر فى حشد أولاد المسلمين والنصارى

واليهود فى مدرسة واحدة، وإجلاسهم لتلقى العلم جنبًا إلى جنب، ليشبوا على روح التسامح، ويجبلوا على الاتحاد والتراحم؟ كلا إنها الأهواء والمطامع، وصروف الليالى ونكد الطالع.

ومات مراد بعد أن قضى فى الأسر ثمانية وعشرين عامًا، وكان ذلك سنة ١٩٠٤ فانسدل بموته الستار على مأساة فى تاريخ الترك.

* * * *

الشاعر الحزين

حزين شديد الحزن، لا عن ميل طبعى يستوحش صاحبه من الدنيا وزهرتها، فالأسى يغمر جنبات نفسه، والكآبة تلح عليه أبدًا، كما قد يسبق إلى الفهم من معنى حزن الشاعر، وإنما لخطب ألم، ورزء حل، فاستحال عرس الحياة مناحة، ونورها ظلامًا وجرت عبرات بعد أن أشرقت بسمات.

أما هذا الشاعر فعبد الحق حامد بك، رائد الشعر التركى فى عصره الحديث، وأما قصته الدامية الباكية فتبدأ فى الهند حيث كان عمله بالسفارة التركية، وتنعمه بهناءة الحياة وصفائها إلى جانب زوجته الشابة فاطمة هانم التى كان يحبها حبًا لا ينطوى عليه إلا قلب شاعر مثله، ولا تحلم به إلا حسناء فى مثل حسنها. وقد اجتمع شملهما وتمت النعمة عليهما بطفل وطفلة، فتعاطف القلبان ورق الروحان ببر الأبوة وحنان الأمومة. ومرت الأيام كأسعد ما تمر الأيام، حتى حل يوم دارت بالنحس أفلاكه، وأخلفت فيه الآمال ما كان من وعدها، فاعتلت فاطمة وهاجت أوجاعها، وكانت علة تُعجز الطبيب، وتُيئس العليل، وتفجع العواد، فجزع عبد الحق حامد أشد الجزع إذ يرى شمسه تجنح إلى الغروب ليطمس بيته من بعدها ليل طويل، وحار ولم يجد له مخرجًا، وعدم كل حيلة يرد بها الحبيب الغادى، واصطرع اليأس والأمل فى قلبه الذابل المحزون، فزينت له نفسه أن يرحل بالعليلة إلى استانبول، وكأنه كان يلتمس دواء فى نسمات البحر، وشفاء فى فرحة الإياب إلى الوطن، وظلت هذه النية تملك عليه تفكيره المكدود وخياله الحائر، غير أن هذا المطلب عز عليه، لأن انقطاعه عن عمله وجسيم مسئوليته أمر عظيم، ولن يعذره فى ذلك العاذرون مهما اتسعت له المعاذير، وأيًا ما كان، فقد أحس بمس الحاجة إلى الفرار من عذاب يضنيه ويشقيه، وبلاء يضيق عليه الأرض والسماء، فنسى كل شىء أو تناسى كل شىء. وشاهدت بومباى ذات يوم سفينة مقلعة فيها عبد الحق حامد ساهمًا واجمًا، مع زوجته الضاوية الذابلة وصغيرين كأنهما من ضعاف الطير.

واضطربت السفينة فى بحر غضوب يخاله السفر أبد الأبيد، فتأذت بذلك كثيرًا صحة فاطمة، وما ألقيت المرساة فى بيروت حتى أيقن عبد الحق باستحالة أن يتابع رحلته، فقد بلغت المريضة من الإعياء مبلغًا يعجزها عن تكبد أيسر مشقة، وجعل بيروت خاتمة المطاف، وفيها كان آخر العهد بفاطمة.

واهتزت المدينة لموتها ولم يبق فيها إلا من بكاها، وشيعها خلق كثير فى طليعتهم صفوة القوم، وتقدمت جنازتها مظاهر الإجلال والإعظام، ثم أودعت قبرًا يزدان بهذه السطور:

«آه أيها الزائر! لا حول ولا قوة للأنام شيبًا وشبابًا أمام فتكة الحِمام، وإن أسرارًا إلهية لتكمن فى تراب المقابر، والقبر الذى ترى مثوى لفاطمة هانم زوجة عبد الحق حامد الحبيبة إليه الأثيرة لديه. وكانت ـ يرحمها الله ـ يتيمة لأسرة بيرى زاده، وقد خامرها السل فمضت فى ربيع العمر، وفى أرض غريبة، ولهذا الصدى روح ساكنة تطلب إليك قراءة الفاتحة».

بيروت فى ٦ رجب سنة ١٣٠٢.

وشاء الله أن ينهدم هذا القبر بعد أعوام، فلا تبقى منه إلا أحجار متناثرة فى ساحة تجر بها الرياح ذيوله، غير أن انهدام القبر وزواله عن وجه الأرض، وغياب صاحبته فى أطواء الغيب عن أعين الناظرين، لم يمح من الدنيا ذكرى فاطمة، فقد نظم عبد الحق حامد كتابًا أسماه (المقبرة)، وهو مرثية جميلة طويلة ضمنها نفسه الثكلى وقلبه الكسير، فكانت أثرًا فريدًا فى الأدب التركى وتحفة فى الأدب الإنسانى، وأجاد الشاعر فيها أيما إجادة لصدق عاطفته، ومواتاة قريحته التى انطلقت على سجيتها، ولسبب آخر لا يخفى، فرثاء الزوجة متميز عن كل أنواع الرثاء، وما ذاك إلا لأنها زوجة وحبيبة، فلها صفتان ولغيرها من الأموات واحدة، والقصيدة تنوح ألمًا وتفيض دمعًا وتدل دلالة واضحة على أن الشاعر كان ملهمًا لا مستلهمًا، وحزينًا باكيًا لا حزينًا متباكيًا، فليس فكره مسلسلاً، ولكنه متنقل من معنى إلى آخر، ومعبر عما يمليه عليه فؤاد يعصف به الأسى، فلم يصطنع صناعة الشعراء، ولم يتأثر خطواتهم فيجرى فى الرثاء، على عادتهم من ترديد معان مألوفة وترتيب أفكار معروفة كاستهلال الشعر بشكوى الزمان ومذمة الدنيا، ثم الخروج من ذلك إلى تعداد مآثر الميت وذكر محاسنه. وشاعرنا يصور الفجيعة ويعبر عن أثرها على حسه النفسى والأدبى، ويسرد قصته من غير ما تزيد ولا إقحام، فيذكرها فى موضع ويتوجع فى مواضع، ثم يتفكر فى صرف الزمن وسر الموت والحياة. وكاد يتفلسف لولا حكم قلبه لعقله. وتغلب وجدانه على فكره تغلبًا عطله وصرفه عن وجهته. وقد بدأ مرثيته بقوله:

«أواه! لم تبق لى دار ولم يبق الزمان على حبيبى، فخفق القلب ببكائى ونحيبى، كانت ملء عينى وبيد يدى، ثم ارتحلت عنى إلى الآباد بعد قدومها إلى من الآزال. وانطلقت أنا لطيتى وتخلفت هى لتكون نهبًا للبلى فى ركن لحد. ولم يبق لى من أنيس الروح، ويلاه، إلا هذا القبر فى بيروت. بالله أين أنشد هذه الجميلة ومن أسأل عن هذه المسكينة؟ رحماك يا رب هلا دللتنى وأرشدتنى؟ من ذا الذى ألقى بى فى البلاء والشقاء يا رب؟ يريدوننى على نسيان الحبيب، ويقولون إنه زايل عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء، كيف يتسع لتلك الحقيقة خيالى، وأنى تشاهد ذلك عيناى!».

ويمضى الشاعر فى وصف بثه وبلواه بشعر طلى لا أثر فيه لتعمل ولا تكلف، وهو حتى إذا هام فى الخيال وطابت له نجوى الأحلام، لا يعدو حقائق تدور بالخلد وخطرات تمر على البال، كأن يقول متمنيًا: «هيا انهضى من لحدك يا فاطمة ولنجدد العهد القديم، جودى على ببنت شفة ولا تكتمينى سرًا، وإن القلب والله مشوق إلى حديث منك. أطلعينى على بسمة الورود من ثغرك، وأتحفينى بدواء للفؤاد من عندك. ولتتم أيام حياتى بنظرة لك ساحرة أو ضحكة فاتنة».

أما إذا هدأت بلابله ورقأت مدامعه، فإنه يفكر ويستبصر وينظر إلى الموت نظرة المشدوه المتسائل، والحائر الذى لا يستقر على حال فيقول: «يا رب، ليت شعرى ما يكون هذا النعش الخشبى، أليس حقيقيًا أن تذهل منه العقول، وكيف يمكن أو يسوغ أن تتولى عجوز شمطاء تكفين جسد له هذا الرواء وذاك البهاء!».

ويضرب على هذا الوتر الحزين إلى نهاية مرثيته التى دارت على حبيبه المفقود، فكانت رقيقة المعنى أنيقة اللفظ، وقد صرح برأيه فيها فقال: إنها ليست موضعًا لإعجابه، وإنما يعتز بها كثيرًا لأنها ترجمان قلبه ولسان حاله، والتذكار الباقى للحبيب الغادى.

وله منظومة أخرى تسمى «الميت» وتعتبر تتمة «للمقبرة» وامتدادًا لها، وإن اختلفت عنها بعض اختلاف، وظهرت فيها أثار مرور الأيام على تلك المأساة التى بعثت الشاعر على نظم مقبرته، فقد تسعر الجمر ثم خبت ناره تحت أكفان الرماد، ووجد المحزون الولهان شيئًا من برد السلوان، فهدأت العاطفة وسكتت لتفسح للعقل مجال القول، فالشاعر هادئ متزن عميق الفكرة يقبل على الموت مفكرًا فيه بعد أن كان ينفر جزعًا منه، ويريد ليكشف خفاياه وخباياه، وهو الذى كان لا يطيق له تصورًا ولا ذكرًا، فعبد الحق حامد فى مرثيته هذه يعرض علينا صورة لفلسفته، وهى صورة حزينة يستمدها من موت فاطمة الذى هاض جناحه وهد منكبه وترك جراحًا فى قلبه تنكؤها الذكرى من حين إلى حين.

والملحوظ عليه فى هذه القصيدة أنه يفكر أولاً ثم يحس بالتالى، فنصيبها من التفكير أكثر من نصيبها من الحس والشعور، والآية منعكسة فى مرثيته الأولى فكأنه بهاتين القصيدتين قد ساق لنا أحسن مثال للنفس الإنسانية المحزونة. ويقول متحدثًا عن مشكلة الموت، وواصفًا عجز المرء وقلة حيلته أمام طلاسمه: «حرام والله ألا يحيط القلب بشىء من ذلك علمًا ما دامت للمرء عيون لا تشاهد إلا الحقائق فى هذا الوجود. نحن لا نملك إلا اشتياقًا إلى الوقوف على السر ولكن هيهات!، فلن يبلغ العقل من ذلك شيئًا. الموت موقظنا من رقدة الغفلة وإن كان لا يخرجنا عن ظلمة الحيرة!».

ويطّرد شعره على هذا النسق التأملى والنحو الفلسفى حتى يشكل الأمر على القارئ فيكاد ينسى أنه تجاه قصيدة فى رثاء فاطمة، لولا أن يذكرها راثيها بين الفينة والفينة كأن يقول: «فى الموت حارت ألبابنا، ولولا الموت ما كان وجود، بالله كيف ألام على البكاء والشكوى إذا ذكر القلب من أهوى وما آلت إليه حالها، فقد أودعتها رمال بيروت، وكانت وردية الثغر فذبلت ورقاته وانتثرت منه اللآلئ».

ولعبد الحق رأى فى الحزن طريف، فيرى أن من القلوب ما يتسع للفرح والكدر جميعًا، كما أن منها ما لا يكن إلا أحدهما، وهناك نفوس لا تمحو آلامها كل ما فى الحياة من متعة ومسرة، وإلى جانبها نفوس تحزن، وسرعان ما تطرح عنها الأحزان، ثم يتحدث عن نفسه فيقول. إن الأفراح تزيد أتراحه، ولذلك فهو يطلب السرور لينعم بالألم، ويقر بعجزه عن تعليل ذلك وتفسيره. وقد تزوج غير مرة بعد فاطمة، فهل كان ذلك منه لذكرها أم لنسيانها، ووفاء لها أم تخونًا لعهدها؟!.



قافلتان إلى الحجاز

منذ مائة عام أو أكثر قليلاً، كانت القافلة تسير سيراً وئيداً تناغم حركاته خفقات فى صوت الحادى الحزين، ورنات ضاحكة لجلاجل فى أعناق الإبل، فتعمر بذلك وديان موحشة قفرة، وينطق بالصدى صخر الجبال، فكأن غريبًا يؤوب إلى وطنه وينقلب إلى أحبته، وفى قلبه فرحة يختلج منها صوته ضحكًا وبكاء.

وحق للركب أن يطرحوا عنهم إصر أحزانهم، ويفرحوا ما اتسعت للفرح أرواحهم، لأنهم إنما كانوا فى سبيلهم إلى بيت الله حيث تتطهر النفوس، وتغتفر الذنوب، وتستجاب الدعوات، ويرتحل الإنسان من عالم العناء والفناء، إلى عالم الصفاء والبقاء. ولئن زان القلادة واسطتها، فقد زان القافلة هودج ستوره من حرير، وحشاياه من مخمل، يتضوع مسكًا ويدل مظهره على مخبره. وهل يصح فى الأفهام إلا أن يكون مركبًا لكريمة من الكرائم، وعقيلة من العقائل، لبت نداء ربها، ورق للتقوى قلبها، وأنسيت كل شىء من أمر دنياها، فليست على ذكر إلا من آخرتها. فزايلت خدرها، ونزحت عن وطنها، وودعت ولدها، وركبت وعورة الفيافى والقفار فى سفر بعيد الشقة كثير المشقة، أيامه عطاش أجهدها العطش، ولياليه مسهدة سهدها الفزع، وآثرت أداء الفريضة على حياة ناعمة حالمة كانت تحياها فى القصر بإيران، فصاحبة الهودج هى (بيكم جان خانم) إحدى زوجات فتحعلى شاه قاجار صاحب الحول والطول والملك والسلطان، ورفقتها سرب من جواريها الحسان وبعض النساء من صفوة القوم.

ومضت القافلة تمشى على سكينة، فقربت ما كان بعيداً، وأبعدت ما كان قريبًا، إلى أن وافت بلاد الترك، وهناك طاب للمسافرين أن ينزلوا، وللمتعبين أن يستريحوا، فضربوا الخيام بظاهر إحدى المدائن ليتلبثوا أيامًا معدودات يتابعون بعدها رحلتهم بأهبة أحسن، وقدرة أشد. وكان العداء فى هذا الزمان مستحكمًا بين الفرس والترك، ولا غرو فإن الفرس شيعة مجتهدون، والترك أهل سنة متزمتون، فكل يتربص بعدوه الدوائر، ويكيد لخصمه متمنيًا فرصة لشفاء غيظه منه. ومنتظراً زلة تصدر أو هفوة تبدر، ليحتكم إلى السيف وينفس به عن دماء طالما غلت غضبًا وحنقًا.

فما كاد المقام القصير يستقر بالنزلاء الإيرانيين، حتى تحرك الحقد فى نفوس الترك، فنسبوا إلى بعض التجار المهاجرين أنهم يخفون قدراً من سلعهم عن أعين الحراس تهربًا من أداء مكس عليها، كما ظنوا، وبعض الظن إثم، أنهم يحتالون على ذلك بدسها فى أمتعة النساء من هؤلاء الحجاج.

وافترص الحراس الترك ذلك لينالوا الإيرانيين بما يكرهون من بحث عن السلع المخفية فى طوايا الأحمال وثنايا الثياب، وما يتبع ذلك من هتك للستور وانتهاك لحرمة ربات الخدور وبينهن زوجة الشاه بمهابتها وسمو منزلتها. فكبر على الإيرانيين أن يركبوا بالصغار، ويساموا ذل العبدان، وتهيأوا للذود عن أنفسهم بالسيوف المشرعات، ووقفوا للقتال صفًا صفًا، وجاء الحراس بشرذمة من الإنكشارية لاستخدام العنف إذا استلزم الأمر العنف، غير أن قائدهم كان رجلاً موفور الحظ من حصافة الرأى ورجاحة العقل، فبدلاً من أمر جنوده بالشد والتقدم، أشار إليهم بالإحجام والتقهقر، وطلب مقابلة أمير الحج وكان يدعى (حاجى ميرزا على رضا). فدخل عليه مسلمًا، وأخبره أنه إنما جاء مستفسرًا عن الحال، وسأله إن كان به إلى الميرة حاجة، كما عاهده على دفع كل مكروه ينال فردًا من أفراد القافلة، ثم أحسن الاعتذار عما وقع من أمر قد يكون عكر الصفو وكدر النفس فطيب خاطره، وعرض أن يسهر على راحة الحجاج فهم ضيفان النبى، وضيفان أينما حلوا وحقهم الإعزاز والإكرام.

وهكذا ألقى المتخاصمون سلاحهم، وتناسوا كل ضغن كان بينهم، كرامة للنبى العربى الكريم وزواره الأكرمين. وكفى الله المؤمنين القتال.

وإن قصة هذه القافلة لتعيد إلى الذكر قصة قافلة أخرى خرجت من إيران فى عهد الشاه طهماسب المتوفى سنة ١٥٧٦م يرأسها من يدعى (معصوم بيك) وكان عظيم الجاه عزيز الجانب يمت بالقرابة إلى الشاه، وله من هيبة الملوك ما يرفعه فوق الناس كافة، ويجعله سيدًا فى قومه مسموع الكلمة، مطاع الإشارة، وقد تطاولت أيامه وامتد عمره حتى ذرف على الثمانين، فأدركته سأمة من تلك الحياة الطويلة، بعد أن نال منها منية المتمنى، ولم يذق للحرمان يومًا طعمًا مرًا، كما أنه لم يغفل عن أن لكل أجل كتابًا، وأن الموت يأتيه ولو كان فى برجه المشيد، وأَحَسَّ دنو آخرته، وما سوف ينتظره فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم، فظمئت نفسه إلى قضاء مناسك الحج، والتزود بذلك من دنياه لعقباه.

وسارت قافلته سيرًا ليس بالعنيف، رأفة بشيخوخته، وإبقاء على ذلك الرمق الذى أبقته فيه الأيام، فكان السفار ينيخون مطاياهم فى كل بلد يحلون به. فيرى الناس من سماحة معصوم بيك وسخائه شيئًا عجبًا لم يعهدوه إلا فى أقاصيص الكرماء، وكأنما أراد الرجل أن يخرج عن كل ماله حتى لا يرى كفًا تمتد بالسؤال، ولا يسمع أنينًا يرتفع من جوف جائع. فطار صيته فى الآفاق وذكر فى كل مجلس بالحسنى، حتى جاء مكة بعد طول زمان، وكان من رحمة الله به أن يحقق فيها أمله الأوحد.

غير أنه رأى هناك ما ساءه وأحزنه، فقد أغارت طائفة من شذاذ العرب وصعاليكهم على قافلة تضم كثيراً من النفوس وجزيلاً من الأموال، وكان المغيرون غلاظًا شدادًا، لا يقنعون بالأسلاب وإن عظمت، بل يحبون إشباع خبيث طبائعهم ومجنون نزواتهم بتقتيل الأبرياء وتعذيب الأسرى، وبلغ من عتوهم وجبروتهم أن أعيا أمرهم جنود الترك المنوط بهم تأديب أمثالهم والأخذ على أيديهم، فاعتل الجنود بكثرة عددهم وشدة بأسهم. وتحركت أريحية معصوم بيك وثارت حميته ومروءته، ورأى أن يغير المنكر بقلبه ولسانه ويده، فأمر من كان يرافقه من الفرسان والأتباع أن يقاتلوا هؤلاء الأعراب المفسدين، فحاربوهم وصدعوهم فتصدعوا، وفروا إلى كل وجه، بعد أن تركوا ما سلبوا وأطلقوا من أسروا.

واستحق معصوم بيك ورجاله البواسل بذلك من الحجيج كل ثناء وتمجيد، وإن كان هذا النصر الحاسم قد كشف عن عجز جند الترك، وأثبت فشلهم وخور عزائمهم، فشعروا بوصمة العار فى جباههم، والشنار ينكس رءوسهم، فاضطغنوها على معصوم بيك وطوعت لهم نفوسهم أن يقتلوه، وبيتوا على ذلك نيتهم، ورصدوه يومًا مع أصحابه فقتلوهم جميعًا وهم حرم.

وذهب ضحية الخبث وأقبح الغدر، وقتل لا لشر صنعه بل لشر منعه، وصدق من قال: أن الحسود مغيظ على من لا ذنب له.

وإن الفرق لبعيد بين مصير أصحاب هاتين القافلتين مع الترك، فقد أكرم الأولون وهم فى سبيلهم إلى الحجاز على نية الحج، أما الآخرون فاستشهدوا فى مكة وهم يحجون. وهكذا يكرم الله قومًا فى حياتهم وقومًا بعد مماتهم.



شاعران سجينان

إذا ما جرى للسجن والسجين فى الشعر ذكر، فالشاعر متميز بحساسية الوجدان، وحرارة العاطفة، وصدق التعبير، والمجال أمامه منفسح للإتيان بالرقيق الأنيق، فأسباب الإجادة أو معظمها مهيأة، لأن الشعراء السجناء منطلقون على سجيتهم، يتحدثون عما يقع تحت حسهم، فلا يحاولون مستحيلاً، ولا يعرفون إلى التصنع سبيلاً كما يفعل المتغزلون مثلاً فى الأحايين الكثيرة. وإن السجن وما يلقاه السجين من الألاقى فى غياهبه، لمما يبعث على التحدث عن النفس ووصف الحال ببليغ التعبير، ومن ثم كانت الحَبْسيَّات فى جملتها جيدة، كما يلحظ أنها قليلة، ومرد قلتها إلا أنها ليست فنًا شعريًا قائمًا بذاته منصوصًا عليه كالوصف والرثاء والهجاء ونحو ذلك، ومحال أن يقول الشعراء الشعر رياضة فيها، فلا بد لشاعرها من تجربة خاصة، وأمر يقع له دون سواه ليصبح من شعرائها. وما هى من فلتات اللسان، وإن كانت فلتات اللسان وزلاته أول سبب فى إيصالها إلى حيز الوجود.

وأصحابها بطانة الملوك وندماؤهم، والمعرضون منهم لسخط قد يسلمهم إلى الجلاد أو إلى السجان. وقديمًا قال أحد الحكماء: إن ثلاثة ليس لها أمان، البحر والسلطان والزمان!

وإن آداب الفرس والترك لتعتز كثيرًا بشاعرين من هؤلاء السجناء وهما مسعود سلمان الفارسى المتوفى سنة ١١٣١ ميلادية، وأحمد باشا التركى الذى مات سنة ٩٠٢ هجرية.

وكان كلاهما من فحول الشعراء فى عصره، غير أن شعرًا ترنما به فى محبسهما، فاختنقت نبراته بين جدران كالحة، وضاعت نغماته فى صليل ثقيل الأغلال، هو الذى رفع من ذكرهما، ونشر فى الآفاق صيتهما.

وقد عاش مسعود سلمان فى عهد الغزنويين الذين ناصروا العلوم والآداب فى إيران فبلغت شأوًا بعيد المدى، ثم فتحوا الهند، وأنفذوا إليها حضارة إسلامية زاهرة، وأدبًا فارسيًا رفيعًا، وهو ينتمى إلى أسرة عرفت بالعلم والفضل، وورث الأدب أفرادها كابرًا عن كابر. وفى مدينة لاهور بالهند كان مولده، وبها أمضى زهرة العمر متقلبًا فى أعطاف نعمة سابغة، ولا غرو فقد كان من أهل المنزلة عند الحكام. واتفق للسلطان إبراهيم الغزنوى أن جعله من خاصته وأهل مشورته. فأقبلت عليه الدنيا، وعظم جاهه، وزاد قدره فاقتنى الضياع وابتنى القصور.

ودارت الأيام فتبدلت الحال وتعكر الصفو، لأن الرجل كان محسداً كثير الأعادى محاطاً بالواشين والدساسين الذين أوغروا عليه صدر السلطان، فما كان منه إلا أن أمر بزجه فى السجن فاحتوته قلعة يقال لها (ناى). و قد ألقى المرجفون فى روع السلطان أنه يتآمر على سلامة ملكه، وفى الواقع، كان الرجل برىء الساحة مما نسب إليه، وإنما أراد بعض الظالمين أن يغصبوه حقه فى ضيعة له، وأراد أن يرد كيدهم ويستعدى السلطان عليهم، فكانت فى نفوسهم. ومشوا بنميمهم حتى جروا البلاء عليه. وفى ذلك يقول:

«مولاى العظيم! لقد لبثت فى السجن أعواماً عشرة أو نحوها، وللهموم عصفات بنفسى وفتكات بروحى، بالله أنَّى يكون لى تحول عن دولتك السنية وأنا صنْعَتها وعبد إحسانها كما كان سلفى من قبل. كلا. لقد أقام سعد سلمان فى خدمتك خمسين عاماً حتى أتيح له بالكد والجد أن يمتلك ضيعة وعقاراً وقد بخسنى الظالمون حقى، فضاقت ذات يدى، وأصبحت معدماً، وجئتك متظلماً مستعدياً، أطلب العدل والنصفة، ولم يدر بخلدى ما خبأ القدر لى فى طواياه. والله ما أدرى أى ذنب كان منى؟! غير أن أعداء خبثاء مكروا بى وكادوا لى».

ومن طريف ما يروى عنه، أنه زامل فى سجنه سجيناً يقال له بهرامى، وكان رجلاً عالماً بالنجوم وأحكامها، فسرعان ما تأكدت المودة بين السجينين وجرى بينهما حديث العلم مخففاً للبلوى، مؤنساً للوحشة، وتتلمذ مسعود لبهرامى فى علم الفلك، وقد وصف حاله وذكر قصته مع بهرامى فى قوله: «تلك قصتى فاستمع إليها، وزنها بعقلك فإن العقل ميزان العدل. لقد اطلعت فى هذه القلعة على أسرار النجوم فى مسالكها حتى رأيت قرانها واحتراقها. وكنت أجلس فأشاهد أمامى شبحاً للموت فاغراً فاه كالأفعى، ولقد أوهت الكبول ساقى وأضوانى ما ألقاه من هول العذاب ورهبة المحن، ولا أجد من أقول له وأسمع منه؛ ولولا بهرامى لساءت حالى، فقد كان المسكين يصف النجوم لى تارة، ويحدثنى عن سر الأفلاك تارة أخرى، حتى عرفت منه علمها، وأحطت علماً بشكلها».

وله بيتان مؤثران يذكر فيهما أمه العجوز، والحال التى آلت إليها من بعده، والعجب أنه لا يصطنع فيما يقول إغراقاً ولا مبالغة. فكلامه حقائق يقررها بشعر لا أثر فيه للمحسنات اللفظية، وقد وجد فى رقة المعنى عوضاً عن جمال اللفظ. يقول مسعود سلمان: «لولا أسى تلك العجوز التى وهنت قواها وأصبحت عينها سحاباً، ودمعها أمطاراً، وران الهم على قلبى حتى غابت الدنيا عن بصرى، لما اهتززت لذلك والله على ما أقول شهيد».

وقد شفع الشفعاء له عند السلطان فأدركته الرقة عليه وتجاوز عنه، فخلى سبيله ورد إليه ماله وضياعه. ومات السلطان إبراهيم الغزنوى وخلفه ولده السلطان مسعود الذى جعل ولاية الهند لولده عضد الدولة شيرزاد، وكان أحد رجال الدولة وهو أبو النصر الفارسى ممن يعزون مسعود سلمان لمنزلته فى الشعر والأدب، وأراد أن يكافئه فما زال بالوالى حتى أقنعه بضرورة إسناد حكم أحد الأقاليم إلى مسعود سلمان، وتم الأمر فأصبح من الحكام، إلا أن أبا النصر الفارسى الذى كان بالأمس صفيه أصبح فيما بعد عدوه، فشكاه إلى السلطان الذى أمر بسجنه فسجن فى قلعة (مرنج) وأقام ثمانية أعوام فى ألم ممض، وعذاب غليظ.

ومن قوله يصف حاله: «إذا رأيت وحدتى فى محبسى حدثتنى النفس أنى فى صحراء، فحجرتى قبر شديد الظلمة. وسجانى خنزير قبيح الهيئة كريه الخلقة. فأستسلم للهم مستيئسًا أو أطفئ بالدموع نيران قلبى، لقد ضعف جسمى فقويت روحى، وانعقد أملى بلطف ربى».

غير أن محنة مسعود سلمان لم تكن شرا محضًا فقد أقر بأنها لم تخل من خير أصابه، لأنه عرف نعمة الألم وأثرها فى تهذيب النفس، حتى صرح بأنه مدين للسجن بالفضل.

فهو القائل: «كيف أجحد فضلاً علىَّ لهذه القلعة التى زادتنى علمًا وفهمًا. وإن الحك والنحت ليظهران من السيوف جوهرها، ومن السهام نقشها».

كما قال: «لا تضق بصروف الدهر يا مسعود، وإذا نالتك بما تكره من أذى فلا يحزنك شىء من هذا، وارفع الرأس عاليًا كشجرة السرو، إذا ما هوت على رأسك الدنيا».

وانطلق مسعود سلمان من سجنه شيخًا فانيًا، لا يتماسك ضعفًا، وقد سئم الحياة التى امتلأت عليه همًا وغمًا وأسرًا وظلامًا، فقضى بقية أيامه معتزلاً متخليًا من الدنيا يعبد الله ويسأله التعجيل به إلى حيث يلقاه، ويشهد حياة هى من حياته خير وأبقى.

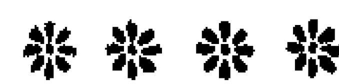
أما أحمد باشا فقد ولد فى مدينة بروسه بالأناضول، وهو من أسرة كريمة لها حظ من أبهة الحكم، وتلك المهابة التى تحيط كالهالة بأصحاب المناصب الرفيعة، فأبوه قاضى عسكر السلطان مراد الثانى ومن سلالة النبى ﷺ. ولم يكن أحمد باشا أقل من أبيه رتبة، بل أعلى منه فى واقع الأمر، لأنه كان مؤدب السلطان محمد الفاتح، ذلك السلطان الذى كان يعرف له قدره، ويذكر عليه فضله، وقد أشركه معه فى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، وبوأه أعلى المناصب فاتخذه وزيرًا له، وكانت منزلته فى دولة الأدب كمنزلته فى دولة الرتب.

فهو شاعر كبير ويعتبره مؤرخو الأدب التركى أول من قال الشعر فى اللهجة العثمانية بعد أن أصبحت لهجة الترك الأدبية. ولهذا الشاعر قصة عجيبة مع السلطان محمد الفاتح، فقد مر بسمع السلطان أن أحمد باشا يطيل فى وصف غلام جميل الشعر، على أن الشعراء موكلون بالحسن يتغزلون فيه أينما وجدوه، فكره السلطان مغبة الأمر، وأشفق من أن يختلط ذلك على العوام، فتحدثهم عقولهم بأن الوزير يقول الشعر فى الغلام ذهابًا منه إلى المجون والصبوة. ولم يكن السلطان على ثقة من صحة الخبر فأراد أن يمنع اللبس بالتجربة ويعرف الحقيقة بالدليل، فأمر بالغلام فجزت ناصيته وأرسل إلى حمام أحمد باشا حاملاً قدحًا من الشراب، وما وقعت عليه عين الباشا حتى تحركت شاعريته فقال على البديهة: «جزت للصنم الجميل ناصيته فبقى من الكافرين، وقطع المجوسى زناره، فما أصبح من المؤمنين».

ووقف السلطان على جلية الأمر فاستشاط غضبًا وأصدر أمره فقبض على الباشا وحبس إلى أن يرى فيه رأيه، وما كان رأيه إلا أن يضرب عنق معلمه ورئيس دولته. فأخذ الأسى من أحمد باشا كل مأخذ وكبر عليه أن يمعن السلطان فى إذلاله هذا الإمعان على غير ذنب كان منه، فالشعراء فى كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون، فكتب وهو فى محبسه صحيفة أنفذها إليه، وكانت هذه الصحيفة منطوية على قصيدة معروفة فى الأدب التركى بقصيدة الكرم، ومن قوله فيها: «إن كرمك بحر والقطرة منه بحر للكرم، والسخاء خميلة ترتوى من شآبيب كرمك. بالله لا تستذلنى، فأنت الذى من قبل قد أعززتنى، ولا تقرع على المعروف سنا للندم، فتلك شيمة الكرام. وإذا ما فرط من عبد ذنب، فما ضر لو غفرت له فرطاته ولم تؤاخذه على سقطاته».

وقرأ السلطان القصيدة فوقعت منه موقعًا حسنًا، وصفح عن أحمد باشا صفحًا جميلاً، غير أنه خلعه من الوزارة وناط به منصبًا آخر.

ومن واضح الأمر أن حبسية أحمد باشا لا تقاس فى الجودة بحبسيات مسعود سلمان، غير أن الشاعرين جميعًا دون سواهما، قالا هذا اللون من الشعر فكان ظهورهما البيِّن فى تاريخ أدب الفرس والترك.



غضبة الأرض

يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله، أن داء عياء ألم بزبيدة زوج الرشيد فأشفت منه على الفناء، وهاجت على الأيام أوجاعها، واكتوت من وقد الحُمَّى بما تذوب له العظام وتطير العقول شعاعًا، واستفسر عما تشتكي نطس الأطباء، فقلبوا الرأى مليًا، وقال قائلهم إن المريضة تستوخم بغداد، فمن الخير أن ترحل عنها وتنتجع الشفاء فى بلد أطيب هواء.

فكان ما لا بد أن يكون، وسار الركب بالمريضة إلى بقعة فى شمال غرب إيران، وهناك تلبثت أيامًا فمسح الله ما بها، وخمدت الحمى بعد طول اضطرام، وعاودتها العافية كما يعاود بستان الخريف رونق الربيع ونضرته، فسرت سرورًا لا مزيد عليه، وبلغ من فرط بهجتها، أن أمرت بتشييد مدينة في تلك الناحية، واختارت لها اسمًا واضح المعنى، وهو تبريز، أى: شافية الحمى. وفى عام ١٦٥ هجرية، رفعت تبريز مآذنها ونفخت قبابها كأنها تتيه على المدائن بأنها شفت زوج أمير المؤمنين، وعمرت دورها واستبحر عمرانها على هذه الذكرى السعيدة التى لا تزداد إلا جدة على كر الجديدين.

غير أن المدينة الجميلة كانت شقية بجمالها فأرضها طيبة فى ظاهرها غير طيبة فى باطنها، لأن إقليمها معروف بآذربيجان، ومعنى آذربيجان الأرض التى تكن النار. ومرد هذه التسمية إلى أن الإقليم كثير الزلازل، معرض بطبيعته لويلاتها ونكباتها، فقد زلزلت الأرض زلزالها فى تبريز قبل أن يمضى على تشييدها سبعون عامًا فهوى شاهق البنيان من عليائه، وسويت الدور بالتراب هدمًا، وانمحت آيات المدينة، وهلك من أهلها الجم الغفير، بعد إذ رأوا من ذلك أشراط الساعة وأهوال القيامة، ومنيت بمثل هذه النكبة عام ٤٣٤ هجرية، ويقال إن منجمًا يدعى أبا طاهر الشيرازى تنبأ بهذا البلاء قبل وقوعه بزمن يسير، ولما عرف الناس ذلك زايلوا ديارهم وهاموا على وجوههم يطلبون الفرار، فضربوا الخيام فى الصحراء، حتى وقع الخطب وهدم الزلزال ما هدم، وقتل من عزه أن ينجو من شديد بطشه.

وللشاعر الفارسى قطران المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية قصيدة عصماء، أصاب فيها صفات هذا الزلزال، وهو لم يقتصر على وصفه اقتصارًا تامًا، وإنما تجاوزه إلى غير ذلك كشكوى الزمان والتعجب من صروفه؛ كما يقتضى المقام هذا، والبساطة طابع القصيدة، وقد بلغت البساطة فى شعره حدًا جعلها أشبه شىء بالسذاجة. وقطران شاعر طويل النفس مشرق الديباجة يؤثر الجزالة والمعانى الناطقة، على المحسنات اللفظية التى كثيرًا ما شوهت من

جمال الشعر. وقد استهل قصيدته بالإخبات والرضا بقضاء الله، وإظهار عجز الإنسان أمام قدرة الرحمن، فقال: «لا نفع لك ولا جدوى إذا تعلق قلبك بالمحال، فى عالم لا دوام له على حال من الأحوال. أنت إن حلت فلا يحول الليل ولا النهار، وإذا تغيرت فلا تغير لحال من أحوال الدنيا. فما الافتئال وزجر الطير! لا تشغل بذلك القلب عبثًا، إن للقضاء حكمًا لا بد على القلب يسرى، وهو مع ذلك من حكم القضاء يشكو، ونفسك نهب للأمل فأنت تخشى انقضاء الأجل. فبالله دع عنك ذكر الأتراح فى يوم الأفراح، واطو حديث الفراق يوم الوصال».

وهو إذا فرغ من قوله هذا يواجه موضوعه فيدخله من بابه فى سهولة ويسر، فيروى الخبر بلسان صدق، ويقول: «ليس فى الآفاق بلدة تضاهى تبريز فى جمالها وطيبها وأمنها وغناها، وأهلها ينعمون بالطيبات، ويرشفون اللذات فى كؤوس مترعات، وقد شغل كل من فيها بآمال له يحققها، وسواء فى ذلك سيد ومسود، عظيم وغير عظيم، فمن عابد للخالق، إلى خادم للمخلوق، ومن طالب دنيا إلى آمل فى عقبى، وفيها شارب الصهباء ومستمع للغناء، ومطلق الفهود لصيد الغزلان. وصب الله على أهل تبريز البلاء والفناء صبًا، وأراد لنعمها الزوال فزالت، وأصبحت نجادها وهادًا، ووهادها نجادًا، وصار رمادها رمالاً، وتصدعت الأرض وتمزقت زروعها، وفارت البحار وسارت الجبال، وكم قصور كانت تناطح الأفلاك بقبابها، لم يبق منها سوى أطلال، وكم دوحة كان فرعها بين النجوم، لم يبق منها غير آثار لها. وليس من يقول لغيره لا تبك ولا تنتحب».

وهكذا رسم قطران للزلزال هذه الصورة التى لم تتعد الصدق فى شىء. وقد أيد كثيراً من أوصاف تلك المدينة الرحالة فلاندن الذى زار إيران سنة ١٨٤٠ ميلادية أى بعد موت الشاعر بأعوام طوال، فقال إن تبريز مدينة حزينة، لأن أهلها يخافون الزلازل فيبنون ديارهم فى منخفضات من الأرض ولا يجعلون للمسجد منارة، ولذلك تعرت أسواقهم وديارهم ومساجدهم عن كل زينة.

وفى عام ١٨٩٤ تزلزلت الأرض فى استانبول فهلك بشر كثير. وللشاعر التركى توفيق فكرت بك قصيدة جميلة فى هذه المناسبة، ولا غرو فهو من رواد الأدب التركى فى عصره الحديث، وشعره متميز بالمعنى العامر والتعبير الدقيق، والذى نراه، أن توفيق فكرت بك أكثر شعراء الترك المحدثين غوصًا على المعانى وهو يتعب القارئ فى الأحايين الكثيرة حتى يتفهم المعنى الخفى، وذلك لاصطناعه الرمز والإيماء وتحليقه فى أبعد الآفاق، مما يجعل شعره مثالاً للشعر العالى عند الترك وغير الترك. وفى قصيدته المسماة بالزلزال دلالة

واضحة على ذلك. فقد تحدث عن هذا الزلزال ولكنه لم يصفه كما وصفه الشاعر الإيرانى قطران وصفًا قصصيًا جزئيًا، أولى به أن يسمى خبرًا من أن يسمى شعرًا، وإنما أحس بالزلزال وشاهد أثره، فتأثرت بذلك نفسه، واستيقظت فيها أحاسيس كن نومًا، واتخذ هذا الحادث أداة تعبير له، وإطارًا يرسم فيه صورة وجدانية خاصة، فقد اتفق أن وقعت هذه الفاجعة بعد مولد ولد له بمدة غير مديدة فزلزلت مهده، وكانت أول تجربة قاسية أحس بها الوليد فى دنيا دخلها بالأمس القريب. فتعجب الأب كثيرًا، وأدار فى رأسه أحلامًا وأفكارًا، وتساءل عما سوف يقدر لهذا الطفل الغرير فى مقبل الأيام.

فبدأ قصيدته موجهًا قوله إليه، وذاكرًا أنه حل ضيفًا بالأمس على دنيا يشبهها بغرفة أبلى القدم كل ما فيها وقد اختلجت أرضها فحطمت وصدعت وهدمت، إلى أن يقول: «ذبلت الوجوه حزنًا وهلعًا، وأصبحت الديار وساكنوها كالفراش المبثوث، أما ما تبقى منهم فعاجز ذليل، وقد أحنى الخشوع والانكسار رءوسًا كانت مرفوعة، وحتى رءوس المآذن نكست فى الأرض. وإن مثل هذه الصدمة النكراء لتوقظ الناس من غفلتهم. ولكن، أكل هذا العذاب المهين لتنبيه الغافلين لله ما أقساه درسًا!»، ثم يطوى ذكر الزلزال بعد أن خلص منه إلى غرضه فيلتفت إلى ولده ويقول: «ها أنتذا ضيف لأيام سود، فلا ريب أن حياتك لن تكون سياحة هينة هنيئة تفعم القلب سرورًا. وفى هذه الحياة التى هى تيه محنة وبلاء، لتلك السياحة الهنيئة خيال يطوف بالنفس ليس إلا. وما نهاية السير الحثيث إلى السراب البعيد إلا عناء يذهب أدراج الرياح ومن كد حق الكد، كسب الحياة، ولا مندوحة لك عن أن تخسر قليلاً لتكسب كثيرًا».

وبعد أن مضى توفيق فكرت بك فى المعانى التى نسى بها الزلزال الذى كان بصدده نسيانًا تامًا، عاد إلى ذكره فى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة. وهو يركز فكره ويصور خياله فيقول: «وإن من جاهد فى طلب المعالى ليخطو خطوات يثقلها الخوف وإن كانت مجيدة مشرفة، وما ذاك إلا لأن الزلازل من خلفه، والزلازل بين يديه».

وإن انعكاس هذه الغضبة الأرضية على حس هذين الشاعرين، ليظهر لنا الفرق واضحًا بينهما، فنجد نفسيتين مختلفتين، ومدرستين شعريتين.



الشاعر وبنت الملك

هو عارف القزوينى شاعر الوطنية وشاعر الشعب فى إيران، وشعره يتسم بالرقة وبروز المعنى فى ظاهر اللفظ، وإن لم يكن له ما لشعر الفحول من جزالة وإشراق ديباجة وإحكام نسج، وقد نال شعره هذا بتلك السلاسة رواجًا وسيرورة بين طبقات الشعب التى تؤثر اليسير على العسير، ولا تملك من تمام الأداة وقوة الفهم معوانًا لها على اجتياز وعورة الألفاظ للوصول إلى المعنى العالى والقصد الخفى. ومما زاد هذا الشاعر شهرة وقربة من قلوب الناس، أنه كان رخيم الصوت عليمًا بفنون النغم، يتغنى شعره فتسرى فى النفوس هزة الطرب ويملك السامعين أعجب العجب، ولا يسعهم بعد ذلك إلا ترديد ما سمعوا مستعيدين اللذاذة والمتعة، فترنمت المجالس والمحافل فى إيران بألحان عارف القزوينى، وجرت أشعاره على كل لسان، فعرفتها الفتاة فى خدرها، والفتى فى طريقه، والطفل فى ملاعبه كما نطق بها الشيخ مستشهدًا، والعجوز شاكية متبرمة. والواقع من الأمر أن شعر هذه الألحان لم يكن برمته شعرًا غنائيًا، وإنما كان كذلك شعرًا سياسيًا يتناول بالنقد المرير حالة إيران الحاضرة، ويصور فساد الحكم على عهد الشاه ناصر الدين. والجرأة من أظهر صفات الشاعر، فهو يوجه إلى رجال الحكم وأهل الحول والطول عبارات لها لسع العقارب من غير ما خجل ولا وجل، ويقول الحق أو ما يخاله حقًا دون اختيار لألفاظ هادئة يسيغها الذوق ولا يمجها، وقد نال الجزاء مرة على عثرة من عثرات لسانه، وذلك أنه نظم قصيدة سماها (يقظة العدو وغفلة الصديق) وغناها على جارى عادته، واتفق أن سمع أحد الوزراء بأمرها، واعتبر ما جاء بها خادشًا لشرفه ومسيئًا إلى كرامته، فامتلأ غضبًا على الشاعر، وأمر به فضرب ضربًا وجيعًا، ومن قوله فى هذه القصيدة: (إن عينًا تصحو من نوم غفلتها، لتستحق من العمى أن يطمسها ويمحو آيتها، لقد سكر أقبح سكرة؛ وقسمًا بعينك إنا نشاوى، والعدو يقظان، لقد اختفى الشرطة فما لهم من وجود، والمحتسب بالقمار فى شغل والحراس فى نومهم يغطون، والعسس سكارى، أما اللص فإنه يعيث فى الأرض فسادًا. لا تمن النفس بحسن الصنيع من لص وقاطع طريق، فإن بلادنا اليوم مرتع المتلصصين!).

وله أغنية غناها بطهران فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١٢٣٣ وفيها يقول: (أسقنى الصهباء لأفنى بها، فلقد عرفت بأن فنائى خاتمة لبقائى. لى سكرتان سكرة من يمين الساقى وأخرى من كأسه، وفى تلك النشوة عزاء عن خرابنا، إن البغى لم تعد له حدود، وليس فينا من يسأل عن حدود دار خربة يأوى إليها، أين جنكيز خان السفاح؟ مرحبًا بمقدمه لسفك الدماء الفاسدة. بالله ماذا دهى مجلس الشورى، فإنه لم يخبرنا إن

كانت الدار لنا أو لغيرنا، إن السارق الذى نهب البلاد وخربها من أنفسنا، فكيف نشكو غيرنا والشر من صنع يدينا. ولو عرف الشيطان ما آلت إليه حال العدالة، لدلنا على أن الذنب ذنب آدم وحواء).

وهكذا يمضى عارف القزوينى فى عرض الحقائق عارية بعد نزعها مما كان يسترها من ملق أو رياء أو رماد يرمد العيون، فيبصر الشعب بما كان يدبر له فى الخفاء، ويحيطه علمًا بما يهدده من ويل وثبور. ومن عجيب أمره أنه لم يكن من رجال السياسة المتمرسين بها، والواقفين على خفاياها وأسرارها، وكل أمره أنه كان يؤثر فى القلوب بالمعنى الجيد، وفى الأسماع بالصوت الجميل.

وله مقطوعة يصور فيها حاله ويشكو زمانه، ذاكرًا ما يلقاه من صروف الدهر وحدثانه: (أنا من بكى وغص بالأسى واعتورته المحن. أنا من لم ينعم بالصفاء والهناء طرفة عين، أنا غريب فى وطنى، وأغرب من ذلك أن الوطن أشد غربة منى، وأينما نقلت خطاى فى بلادى تعرضت للسارق ووقعت فى أسر قاطع الطريق!).

وله أغان كثيرة كان لها فى النفوس وقع شديد فثارت الخواطر وتبلبلت الأفكار، ونشطت العقول من عقالها وفطن الشعب الإيرانى إلى أمور كان عنها غافلاً. ومن أغانيه قوله: (لقد نبتت حمر الورود من دماء شباب الوطن، وانحنت من شجرات السرو قاماتها حزنًا على قاماتهم الفارعة، واغتم البلبل لذلك فانزوى فى ظل الورد. ولقد شقت الأزاهير ثيابها مثلى من فرط أساها. أنت بالنحس دوار أيها الفلك، يا لك من مثير للشرور أيها الفلك، لا إل لك ولا ذمام أيها الفلك. الوكلاء فى نومهم غافلون، والوزراء من خمرتهم يجرعون، وقد نهبوا كل ما فى إيران من فضة ونضار، ولم يبقوا لنا دويرة تكننا. يا رب انصف الفقير من الأمير. أنت بالنحس دوار أيها الفلك يا لك من مثير للشرور أيها الفلك، لا إل لك ولا أمان أيها الفلك!).

هذا هو عارف القزوينى شاعرًا مغنيًا، غير أن له قصة غرام طريفة تثير فينا الرغبة لمعرفة عارف القزوينى عاشقًا. وخبر ذلك أنه كان منذ فجر شبيبته موصول الآصرة بعلية القوم الذين كانوا يصطفون منه نديمًا مؤانسًا، يغنى لهم فيسهر لياليهم ويبعث البهجة والطرب فى نفوسهم. وقد وجد السبيل بذلك إلى قصر الصدر الأعظم، ثم إلى قصر الشاه؛ فارتفعت منزلته واستفاضت شهرته وأقبلت عليه الدنيا أى إقبال، وعرف فيمن عرف من عظماء الدولة رجلاً يدعى نظام السلطان، فتأكدت صداقتهما وصفا الود بينهما، وكان نظام السلطان هذا زوجًا للأميرة افتخار الدولة بنت الشاه ناصر الدين التى سار المثل عنها فى

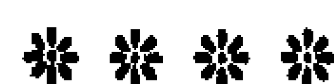
طول البلاد وعرضها، وتحدث الناس حديث معجب متعجب عن أدبها وبصرها بالشعر وإكرامها لأهله. واتفق أن دعى عارف إلى قصر نظام السلطان ليطرب الأميرة بما رق من شعره وراق من نغمه، وأقيمت مجالس طرب تجمع افتخار الدولة وزوجها بالشاعر، فكان ينشدها من شعره ويستمع إلى رأيها فيه، ويصوغ لها الألحان سحرًا خلابًا، فتهتز له طربًا وإعجابًا، وقد تنسى شيئًا من وقار الأميرات فتلح فى استعادة صوت طاب لها. ومرت على هـذه الحالـة لـيـال بيض، فكانت تحضر مجلس عارف القزوينى بشوق ظامئ، ورغبة لا تزداد على الأيام إلا اشتدادًا.

وكان نظام السلطان زوج الأميرة ذا حظ من ثقافة الغرب فلم يحجب عن الشاعر زوجته، ولم ير بأسًا فى أن يجالسها كل ليلة، ولكن، كان ما ليس منه بد، وأعجب الأميرة من الشاعر ما يعجب المرأة من الرجل، وأعجب الشاعر من الأميرة ما يعجب الرجل من المرأة.

ولا غرو فأشعار عارف جياد وغناؤه يداعب القلوب، وافتخار الدولة بارعة الحسن جذابة الفتنة. وما لبث الإعجاب أن أصبح غرامًا، فأحبت افتخار الدولة نديمها وشاعرها؛ إلا أنها أخفت ذلك عنه وعن زوجها الذى كان يداوم على حضور مجلسهما، كما خفق قلب الشاعر لها خفقانًا سرى فى نبرات صوته وهو يغنى، خصوصًا إذا شرب وأخذت منه حميا الكأس، فانطلق على سجيته وكاد يبوح بالسر المكنون.

وكان من محض الصدف أن فارق نظام السلطان ذات ليلة مجلس العاشقين وخرج لبعض شأنه؛ فوجدا خلوة يتناجيان فيها ويتشاكيان، غير أن الزوج لم يتلبث طويلاً ودخل فجأة عليهما فرأى منهما ما لم يدر له من قبل فى خلد، فأغضى على القذى وأسرها فى نفسه، ولم يبد ما لم يكن بد من أن يبديه. وخشيت الأميرة افتضاح أمرها وذهابه عنها فى الناس، فأمرت الشاعر فانقطع عن المجىء. وضاقت يده وأجهدته الفاقة، ولم يمد إليه نظام الدولة يد المعونة وهو المغضب المحنق، غير أن افتخار لم تصبر على كبت عاطفتها فتوجعت له ورقت، وطلبت إلى زوجها أن يدعوه إلى القصر لتصله بما يستعين به على أمره، فذكر الزوج رؤيته له وهو يعانقها فقال: (لا حاجة بعارف إلى صلة منك اليوم، إنه ينال جزيل الصلات من ثغور الملاح!).

وقد باح عارف القزوينى ببيتين من الشعر فى محبوبته وهما: (أنت افتخار لكل الآفاق يا من تيمنى هواك، أنت تلك الشمعة التى تسطع فى مجلس العشاق).



رثــاء الأبنــــاء
فى الشعر الفارسى والتركى

النفس الإنسانية لا تخلو من شعور إما بالحزن أو الفرح فى درجة من درجاتهما ونوع من أنواعهما. والشعر لغة القلب وتفسير وجدانى للحياة، فانعكست على صفحاته صور منها الفرح ومنها الحزين، والبين المشاهد أن الحزن غالب على الشعر، ومرد ذلك إلى أنه غالب على الإنسان الذى لا تنقضى رغائبه ولا تقنع آماله، ويحزنه ألا يحقق المراد أو يخيب فى المسعى. كما يأسى ويألم للفراق إطلاقًا، كفراق الدار والوطن، وفراق الحبيب، وذلك الفراق المحتوم الذى لا يؤوب منه الغياب، وهو فراق الموت. وإن رنة الأسى لتقع فى النفس موقعًا، ولها هزة مستملحة مستعذبة. وسماع الشكوى مما يطيب ويطرب، وذلك أن سامعها يتخيلها شكواه، وأن فيها بعض العزاء، وتنفيسًا عن الكرب، ومن ثم كان شعر الرثاء من أشد فنون الشعر علوقًا بالفؤاد وأكثرها إثارة للإعجاب. وقد عرف الأقدمون لشعر الرثاء قدره ومنزلته، فاعتبروه أصدق الشعر عاطفة وأجمله فى القلب أثرًا، وعرضوا له بالتعريف، فقال قائلهم وهو ابن رشيق بأنه مدح الميت، وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أن يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان، أو عدمنا به كيت وكيت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيِّن الحسرة مخلوطًا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكًا أو رئيسًا كبيرًا.

وإذا صح هـذا التعريف فى جملته بعض الشـىء فإنه يصدق على الرثاء المصطنع الذى لا يُصـدر فيه الشاعر عن طبع وعاطفة، كما فى رثائه لعظيم لا تربطه به آصرة من معرفة أو محبة، ويوضح هذا ما قاله ابن رشيق من أن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلاً أو امرأة لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات، وهذا رأى لا نميل إليه، ونرى أن رثاء المرأة أمًا أو زوجًا من أجمل الرثاء وأيسره ما دام الشاعر موهوبًا صادقًا فى لوعته، ورثاء الطفل ابنًا أو ابنة رثاء يمكن أن يبلغ الذِروة من روعة المعنى. ونذهب إلى أكثر من هذا، فنضفى على رثاء الأبناء من صفات الجمال ما لا نضفيه على رثاء غيرهم، ونضرب الأمثال على ذلك من شعر الفرس والترك.

وأول من رثى ولده من شعراء الفرس فيما نعلم هو أبو القاسم الفردوسى شاعر إيران فى القرن الرابع الهجرى وناظم الكتاب المعروف بالشاهنامه فى تاريخ ملوك الفرس، وأبرز علم من أعلام الأدب الفارسى. وقد بكى وديعته فى الثرى وهو شيخ يخطو إلى القبر وئيدًا، بعد أن سئم تطاول الأيام عليه، وحمل من أرزائها ما أنقض ظهره فلم يبق فيه أمام

هول نكبته، إلا ما بقى من كومة الهشيم أمام عصفة النكباء، وحزن حزنًا لا يتسع لعزاء ولا لصبر جميل، فلم يكن فى حسبانه يوم طرق الموت بابه أن يدعه وهو الذى كفاه ما عاش، ويطلب ولده الذى لم يعش ما كفاه، فخالط قلبه شعور مبهم غريب بتخون العهد وعدم الوفاء، وبأنه فظ قاس يمد فى عمره من عمر ولد كان عليه أن يفديه ويحميه، فبكاه متوجعًا بشعر معناه على قدر لفظه، وما استقطر من السحاب دموعًا، ولا طلب الإسعاد إلى نجوم ليل ساهر وإنما قال: «كان اليوم والله يوم حمامى يا ولدى المسكين، كيف هجرتنى ورحلت عنى، فامتنع قرارى ونالت الأوجاع منى. لقد كنت من يعيننى على زمانى ويأخذ فى الملمات بيدى، فما الذى عن رفيقك الشيخ أبعدك، وإلى تركه ألجأك! أوجدت لك أترابًا هناك فمضيت إليهم! قضى فى السابعة والثلاثين وقد رأى أن متاع الدنيا غرور، مات فأضوانى الأسى وبكى القلب والعين عليه دمًا، هو اليوم فى عليين وسيجعل لى مكانًا فى جواره».

ثم يذكر شقاءه الطويل بعده فى عالم موحش حزين، ويصور حاله متحدثًا عن شيخوخته وشبيبة ولده المفتقد فيقول: «تمادى الزمن ودارت الأيام، وما عاد إلى أحد من رفقة العهد القديم، لقد عدمته وله سبعة بعد ثلاثين، وخلفنى ولى خمسة بعد الستين، وذهب الفتى وحده، وما سأل عن حال الشيخ بعده، وعجل بالرحيل، أما أنا فبقيت البقاء الطويل، لأرى مقدور القضاء فى، وأنال ما سوف يقسم لى».

وللفردوسى قصة فى الشاهنامه يقال لها قصة رستم وسهراب وهى شيقة ممتعة، وأعجب ما فيـها هو اختلاط الأمر على رستم الأب وسهراب الابن حتى ينسى كل منهما صاحبه ولا يعرف له هيئة ولا صورة يميزه بها، ويجتمعان فى ساحة الوغى، ويقف كل منهما من الآخر موقف العدو المحارب، ويتناوشان القتال فيقتل الوالد ولده ثم تنكشف له الحقيقة ويعلم هول ما فعل، فيأخذه مر الندم، ويتألم أشد الألم. والشاعر يذكر هذه القصة ويصف أم سهراب وقد تلقت النبأ فيرثى ولدها على لسانها. وهذا الرثاء فى سياق قصة سريعة الحركة كثيرتها فيقول: «وانتهى إلى الأم أن سهراب مقتول بسيف أبيه، فجزعت وناحت، وشقت ثوبها من فرط أساها على فتاها، وقالت يا روح الأم أين مثواك وأنت معفر فى التراب ملطخ بالدماء لقد طواك الثرى فى أرض غريبة، فمت ميتة الأسير المجهد المحزون، فمن بعدك أضم عليه ذراعى، ومن يعيننى على تباريحى وبرحائى، ومن لى بمن أبثه الشكوى، وأشرح له البلوى. ومن ذا مكانك أدعوه! يا أسفى على عينيك فى القبر بعد كونهما فى القصر. مضيت وتركتنى فى ذل الأسير ووقد الأسى، فهلا صحبت أمك فى

سفرك، فكنت أُنسى وريحانتى فى دنياى وآخرتى!!».

ورثاء الفردوسى هنا رثاء تمثيلى لا يسمح المقام بسواه، وليس لنا أن نطلب أحسن من هذا لأن الرجل لا يقول حقًا وصدقًا، وإنما يقول متخيلاً، والبون بعيد بين الطبع والصنعة.

وفى القرن السابع الهجرى ظهر فى إيران شاعر كبير مستفيض الشهرة، وهو الشيخ سعدى الشيرازى الذى يتميز شعره بنزعة أخلاقية لا ينفك عنها، وطابع تعليمى ظاهر الوضوح، وقد نظم شيئًا كثيرًا، ومن تراثه الأدبى كتاب منظوم يسمى البستان، وهو ينتظم قصصًا ترمز إلى معان وتعالج موضوعات مختلفة كالعدل والإحسان والتواضع وما يجرى هذا المجرى. والذى يعنينا هنا هو حديثه فيه عن نفسه، فقد ذكر أنه طوف فى البلاد شرقًا وغربًا، ومات له ولد أثناء مقامه بصنعاء اليمن. وقد رثاه بأبيات يتجلى فيها منهج تفكيره، وتظهر ميله المستديم إلى ضرب الأمثال والتفسير بالتصوير، فكان رثاؤه هادئًا فاترًا، لا زفرات فيه ولا عبرات، فالأولى أن نعتبره عاقلاً مفكرًا لا حزينًا شاعرًا. وكل حظ أبياته من الشاعرية بضعة تشبيهات متوسطة الجودة، فهو الذى يقول: «لقد احتسبت فى صنعاء ولدًا لى وكان غض الأهاب بض الشباب، فما أعجزنى عن وصف ما أجد من حزنى. أن شجرات السرو لا ترفع فى بستان الدنيا هيف القدود إلا اقتلعتها للموت هوج العواصف، والأرض تنبت ورودًا وليس ذاك بعجب ما دامت تنطوى على أجساد فى نضرة الورود. ألا فاعلم يا سعدى بأن الثمار ملك لغارس الأشجار؛ ولا يحصد إلا من زرع».

وهذا الكلام لا يصلح بكاء لأب يرثى ولده، بقدر ما يصلح عزاء ترقأ له الدموع الجوارى، ويسقط الأنداء على الكبد الحرى.

غير أن لسعدى بيتين مشهورين فى رثاء ولده وهما (هو ذا الربيع قد حل، فانشقت الأرض عن وردها ونسرينها، ويلاه ما الذى أبقاك تحتها! أنا من يزورك فى ثراك، وعليك تجرى أدمعى، فكأن سحابة الربيع تبكى، لتظهر لى من هذا القبر كذاك الزهر).

ومما يلوح على هذا الشعر بادىء النظر، أنه كلام متناظم متسق ضئيل المعنى، وليس كذلك لأنه تصوير جميل لنفسية الحزين الذى يطرح على الكائنات من أساه، ولا تذكره مباهج الحياة ومفاتنها إلا بلوعة الحرمان والفقدان.

ومن شعراء الترك من يدعى عاكف باشا الذى كان وزيرًا على عهد السلطان محمود الثانى، وكان بينه وبين زملائه الوزراء من الخلاف والخصام ما جر عليه شرورًا، حتى نفى إلى مدينة بروسه، ثم حج بيت الله ومات فى عودته بالاسكندرية عام ١٢٦١ هجرية. وهو أديب مبرز وشاعر مقل مجيد، له فضل التجديد فى النثر والشعر؛ فأصبح بذلك من عباقرة

الأدب التركى الحديث. ومن شعره قصيدة جميلة رثى بها حفيدته، وهى تعتبر فاتحة عصر جديد من عصور الشعر التركى الذى كان بالأمس دينيًا صوفيًا يقلد شعر الفرس، فأصبح اليوم إنسانيًا يساير الحياة فى تطورها وينهج نهج العاطفيين من الشعراء الأوربيين، والمرثية تفيض لوعة وحسرة على الدفينة الصغيرة، وإن رقتها لتذكر برقة موضوعها، ومعانيها تصور الجد الهرم وهو يسقى زهرته الذابلة بالدمع الهتون.

يقول عاكف باشا: «بنيتى الجميلة... لا نسيان لك على مر الأيام والشهور والأعوام، لقد أذقتنى المر من فرقتك، وإن لك لثغات حلوة وكلمات عذبة ما زالت تتردد فى قلبى، لا سبيل اليوم إلى قبلة من غضارة جسمك! ويلاه وماذا صنع القبر بحسنك؟ وإذا ذكرت ثغرك الجميل بوردة البستان، وددت أن تحترق الورود من حر أنفاسى».

ثم يتمثلها تحت الثرى وقد غيرها البلى، فيرسم لنا فى الخيال صورًا حزينة يزيدها حزنًا على حزن أنها صادقة لا تتجاوز الحقيقة فى شىء، فهو القائل: «ما الذى حل بجسمك الغض البض فغيَّره، وهل سالت على الجبين عيناك السوداوان، وتفرق فى التراب شعرك الجميل الذى طالما نعمت به ضمًا وشمًا؟».

وإن استفهامه المكرر ليدل دلالة واضحة على فرط الجزع، والنفار من هول الخطب، لأنه فى نفسه لا يريد الإقرار بالواقع ويجهد أن يجعله محتملاً للصدق والكذب، فيمضى فى قوله: «هل عرف الفلك كيف يصب نقمته على، وهل أذبل الردى ورد خديك... واهًا ليد فى لين القطن وبياضه كنت ألثمها، هل أصبحت فى التراب ترابا؟».

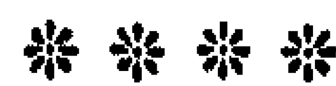
ولدينا شاعر تركى آخر من شعراء المدرسة الحديثة هو أكرم بك الذى رثى ابنته بيرايه بقصيدة من روائع الشعر التركى، ولهذه القصيدة قصة فى مثل جمالها وروحانيتها، فقد ماتت ابنته وأودعت الثرى فى ركن مقبرة تطل على غدير، ومرت الأعوام تلو الأعوام، وغمر السلوان والنسيان ذكرى الفتاة، وغاب أبوها فى زحمة الحياة، فلهى عن نفسه وأنسى يومه وأمسه، حتى جاء يوم بعد موتها بخمس عشرة سنة، وكان يومًا عجيبًا جد فيه جديد يحيا به القديم. فعاد الشاعر ذكر ابنته، فرآها وسمعها من وراء أيام طوال، واستشعر الحنين إليها والأسف عليها، ووجد نفسه مسوقًا إلى زيارة قبرها، فأخذ سمته إلى المقبرة، وهناك أراد أن يقف على القبر وقفة ليذرى دمعة الوفاء، وكان وحيدًا، وشاء أن يستدل على القبر الذى بعد عهده بزيارته، فرجع إلى الماضى السحيق، وذكر أنه كان على أكمة صغيرة، فأدار بصره فى المقبرة، فلم ير للأكمة وجودًا، ولم يقف للقبر على أثر، ولما أعياه نشدان ما يطلب استيأس وانكسر، وجلس فى ظل شجرة سرو يبكى حزنًا على ابنته، وندمًا على

ضياع أثرها من وجه الدنيا، ووجد من ضميره لومًا وجيعًا، فللأموات على الأحياء حق زيارتهم وإقامة آثار تدل فى الثرى على مرقدهم. واتفق للريح أن عصفت فأسفت عليه ترابًا، وحركت من الأشجار أغصانًا، فأحس كأن الكون غاضب عليه، وتحركت الشاعرية فى قلبه، فقال قصيدة سماها «تحسر»، وكان ذلك فى صيف سنة ١٢٩٨هجرية، ومن هذه القصيدة قوله: «ويلاه! إن بيرايه فى بطن هذه الأرض، وإن ظلمتها لتنطوى على نورها. لم أقدم إلى هنا منذ خمسة عشر عامًا. فوالله ما أدرى أين كان قبرها، فذكرينى أيتها المقبرة بالبكاء والنواح، وبالله مرحمة أيتها الأشجار والأحجار. هلا أخبرتنى الخبر! لقد تركت ابنتى فى كنفك من غير أثر لها يدل عليها. تكلمى يا بنيتى لأروى بالدموع ترابك، وأفصحى، أين مقر جثمانك الطهور فى هذه الأرض؟».

ثم أنحى على نفسه باللائمة، وأدرك تفريطه فيما يقبح التفريط فيه فقال: «إن زيارة قبرك مرة فى خمسة عشر عامًا شنار وعار، وإن خجلتى لتثنينى عن تفقد قبرك، وكان لزامًا علىَّ أن أجدد بناءه بعد أن هدمه الزمان، إنه أصبح حفنة من تراب فما أجد من يدلنى على موضع له، تكلمى يا بنيتى لأروى بالدموع ترابك، وأفصحى، أين مقر جثمانك الطهور فى هذه الأرض. إن روحى لتراك شجيرة نضيرة كأنها شجيرة ورد دفنت تحت الثلوج، وقد حجب البياض كل جوارحها، فاغرورقت عينى وحزنت نظرتى، وإن هذا الجمال الذاهب ليبعث فى الروح أملاً بالوصال. آه يا بيرايه لو لم تكونى هذا الخيال... تكلمى يا بنيتى لأروى بالدموع ترابك، وأفصحى، أين مقر جثمانك فى هذه الأرض؟». ولأكرم بك مرثية أخرى قالها على لسان صديق له يدعى مدحت بك، ماتت له ابنة تسمى «فاخره»، وأنها لتذكرنا بقصيدة عاكف باشا فى حفيدته، لأن الشبه ظاهر بين القصيدتين.

قال أكرم بك: «أنت يا فاخره فى النصف بعد الرابعة من عمرك، فأنى يجوز لهذه الأرض أن تستحل ضم جسدك، خبرينى هل أنت يا فلذة الكبد وحدك، فليس من يؤنسك فى لحدك؟! ما الذى أسكت بلبلك وكان ناطقًا، وأذبل ورد ثغرك وكان ناضرًا، إن لذكراك حزًا فى فؤادى، وإذا خطرت بالبال كلماتك بكت عينى».

هذا، وإن هذه الأمثلة التى أوردناها من شعر الفرس والترك لتوضح وجهة نظرنا وتنهض دليلاً على أن الرثاء وأخصه رثاء الأبناء، ليس مدحًا للموتى وذكرًا لصفاتهم فحسب، وإنما هو بكاؤهم وندبهم والأسف عليهم، ووصف شعورنا نحوهم بعد فرقة الأبد.



ثورتان

إحداهما إيرانية والأخرى تركية، وقد قامتا فى وقتين متقاربين. أو وقت واحد هو بحر الأعوام العشرة الأولى من القرن العشرين، وبينهما فروق ووجوه شبه يمكن التمييز بها بين شعبين، والوقوف على معنى الحكم فى رأى حاكمين، والإحاطة علمًا بروح الثورتين.

ففى عهد القاجاريين وهم آخر من حكم إيران قبل الأسرة المالكة الحالية، ساء حكم الملوك كثيرًا، وعسفوا الناس عسفًا شديدًا، فدب فى الدولة دبيب الضعف، ووجد الأجانب من إنجليز وروس فرصة مواتية لإشباع مطامعهم، وتوسيع نفوذهم وفرض سلطانهم، فتدخلوا فى الخاص من شؤون إيران، وظفروا بامتيازات لهم فيها الغنم، وعلى صاحب البلاد الغرم، وجأرت الرعية بالشكوى من ظلم راعيها، وضج الناس من جبروت الأمراء وزهو الكبراء، بعد أن أخذوا من العلوم بطرف فعرفوا ما لهم وما عليهم، وزادهم كراهية للأوربيين أن يروهم فى القرن التاسع عشر يغتصبون الهند، ويمتلكون الجزائر، ويسيطرون على مصر، فشعروا بمس الحاجة إلى الوقوف فى وجههم وكسر شوكتهم. ومما زاد الأمر شدة والنفوس حدة أن ناصر الدين شاه منح امتياز الدخان فى إيران لشركة إنجليزية فاحتكرت إنتاجه وبيعه، وامتلأت من ذلك خزائنها، على حين خلت وفاض زراع الإيرانيين وتجارهم، فاستاء الناس وحرموا التدخين على أنفسهم، وقسروا الشاه على إلغاء امتياز الشركة، فلم يجد عن الإذعان ندحة، وإن كان ذلك كلف الدولة تعويضًا كبيرًا للشركة. ثم قتل ناصر الدين شاه فكان مقتله إيذانًا بالثورة، وإيعادًا لأمثاله من الملوك المستبدين.

وحكم بعده مظفر الدين شاه، وكان مسرفًا متلافًا، فاقترض من الروس مالاً جزيلاً منحهم حق السيطرة على الجمارك فى الدولة حتى يستوفوا ما لهم على إيران من دين، فكبر على الإيرانيين أن يروا غريمًا يذل كبرياءهم، ويجرح وطنيتهم، وتألفت الجماعات والأحزاب، وارتقى الخطباء المنابر، فهزوا القلوب وحركوا النفوس، كالسيد محمد الطباطبائى والسيد عبد الله البهبهانى وغيرهما من العلماء والفضلاء. وقد أرادوا التعبير عن سخطهم فقرروا الهجرة إلى مكان يسمى الزاوية المقدسة، وسموها (الهجرة الصغرى) وهناك لحق بهم جمع غفير ومعهم آل بيتهم، وأحب الشاه أن يطيب خاطر المستائين، فأصدر بيانًا يعد فيه الثائرين بإجابة مطالبهم، وهى عزل حاكم طهران ورئيس الجمارك البلچيكى، فعاد المهاجرون واحتفل أهل طهران بعودتهم أروع احتفال. وقد جاء فى خطبة للسيد محمد الطباطبائى قوله: (نريد العدل ورفع الظلم حتى لا تهرب الرعية وتطلب فى خارج البلاد موئلاً فيعم الخراب، وأخوف ما نخاف هو أن يفر المظلوم من وجه الظالم

فتخوى الديار على عروشها، وقد حدث ما لا يجمل أن يحدث، فإن أهل فارس رفعوا عقيرتهم بالشكوى، ولما لم يجدوا أذنًا واعية، توجهوا إلى القنصلية الإنجليزية، فإلى أين يذهبون؟ أنتم لا تعلمون ما يحيق بهم من حيف الحكام، إنهم لا يسدون جوعتهم إلا بكسرة من خبز الشعير والذرة، فلم يبق منهم أحد، كما لم يبق فى خزانة الشاه درهم. أما تعلمون أن الزرع قد خاب فى العام الماضى، وكان لزامًا على الزراع أن يؤدوا الخراج، فما كان من الحاكم إلا أن أمر ببيع ثلثمائة فتاة من بنات القرويين لقاء ما على آبائهم للدولة! لا نريد إلا النصفة وهل بعد هذا الظلم ظلم! إن الخراب يضرب أطنابه فى كل البقاع، ولن يمضى طويل زمان حتى يلحق أهل البلاد جميعًا بالروس والإنجليز. ووالله لن أتخلى عن هذا الأمر أو أهلك دونه، فإن هلكت، فلى من سوف يخلفنى عليه».

واصطدم رجال الشاه برجال الثورة، فهاج العلماء واحتجوا وعادوا إلى إظهار سخطهم بالهجرة، فهاجروا إلى مدينة قم، وسموا هذه الهجرة «الهجرة الكبرى»، وانطلق جمع من التجار والطلبة إلى السفارة البريطانية بطهران، فتحصنوا بها وطالبوا بالدستور والحكم النيابى، وكان لهم ما طلبوا، وعقدت أولى جلسات البرلمان فى ١٨ شعبان سنة ١٣٢٤، ففرح الناس واستبشروا، ورفعوا الأعلام وأقاموا الزينات.

وفى الجزء الأول من ديوان الشاعر التركى محمد عاكف بك قصيدة عصماء بعنوان شاه العجم. وفيها وصف رائع لما آلت إليه حال إيران على عهد الشاه مظفر الدين، ومنها: (لا يغرنك ما تسمع من أصوات تنادى بك مظفرًا، إنها جميعًا أصوات الخونة. واعلم موقنًا أنها زفرات تصعدها قلوب المظلومين. سيأتى ذلك اليوم الذى تلقى بك فيه لعنة الإله من عليائك. لك قصر منيف من الظلم تحسبه محكمًا منيعًا، ألا فاعلم أن الحصون لن تكون موئلاً لمن عدم الأمان، وأن إيونك هذا الذى خرب البلاد سيهوى من سمائه، وستسويه بالتراب هدمًا قدرة القادر وهيبته، كيف لا يخرب ذلك الذى جعل من إيران مقبرة؟ نعم لقد جعلت من إيران مقبرة. ومزقت ثوب الآمال فكان أكفانًا).

ومات مظفر الدين شاه، فخلفه فى الحكم محمد على شاه، وكان ظلومًا غشومًا يرى فى نفسه سيدًا للبلاد، وفى الشعب عبيدًا رهن إشارته، وعليهم طاعته، وكان شديد الكراهية للثورة وأنصار الحرية والدستور والحكم النيابى، وبلغ من شدة سخطه على نواب الأمة أنه لم يدعهم إلى الحضور يوم تتويجه، وأوصى الحكام فى الأقاليم بالأخذ على يد الثائرين، وكان إذا جلس فى مجالس أنسه وأخذت منه الصهباء مأخذها أمر بمدية وخيارة، فقطع الخيارة بالمدية متخيلاً بذلك أنه يطيح رءوس خصومه، فلا يملك ندماؤه إلا أن يفعلوا

مثلما فعل. ولم يلق بالاً إلى تنفيذ قوانين الدستور، وقد أراد أن يقترض من الإنجليز والروس، فعارض النواب فى ذلك، وأشاروا إلى وجوب الحد من إسرافه، فأسر ذلك فى نفسه واصطنع الكيد والدس، فبث بين أنصار الحرية من رجاله من أفسد بينهم، كما تعمد إهمال بعض الأعمال ليلقى فى روع الناس أن عهد الحكم النيابى عهد فساد الأعمال. ومما أثار الخواطر أن اتفاقًا تم بين الإنجليز والروس عام ١٩٠٧ فى خفية من الشعب على تقسيم إيران أقسامًا ثلاثة، فللروس قسم، وللإنجليز قسم، وثالث محايد. وأغرى محمد على شاه بعض الأرذال والغوغاء بإثارة الشغب فتعدوا على المارة ونهبوا أموالهم، وبالغوا فى إذلالهم والسخرية بهم فخطفوا عمائمهم، وكان جزاء الشاه أن ألقيت عليه قنبلة إلا أنها لم تصبه، فاشتد غيظه وحقده، واستنجد بفرقة من جند الروس تحت قيادة لياخوف، فحاصرت البرلمان وضربته بالمدافع، فتصدعت أركانه وهوى بنيانه، وأمر بكثير من الزعماء فقُتِلوا، فثار أهل تبريز وانضم إليهم غيرهم، وألَّفوا جيشًا استولوا به على طهران، فسلم القائد الروسى وعسكره، أما محمد على شاه فهرب إلى السفارة الروسية واحتمى بها، واجتمع البرلمان ليلاً فقرر عزله.

***

هذا فى إيران، أما فى تركيا فكان السلطان عبد الحميد الثانى شديد البطش بكل من يناوئه ويرى من الرأى غير ما يرى، وقد منى بمرض نفسى عضال جعله يتشاءم من كل شىء ويتوقع السوء من كل شىء، وأهم أثر لذلك القلق هو خوفه من الجديد، ونظره إلى المستقبل بعين الريبة خشية شر كمين فى طواياه، فإذا عقد العزم على عمل وأراد الإقدام، رأى نفسه مسوقًا إلى الإحجام، ووهم أن خطرًا داهمًا يتهدده، فجمد على القديم وأبى التحول عما يألف، فكره الإصلاح وساء ظنه بالناس جميعًا، ولم يتوقع منهم إلا مستطير الشرور.

وبث العيون فى أرجاء مملكته وأحاط نفسه فى قصره الممنع بمحكم الأبواب، وجيش من الحجاب، وضاعت ثقته حتى فى خلصائه وأصفيائه وأوجس منهم خيفة، وعرف الناس ذلك من سلطانهم وطمعوا فى خير يصيبونه بالتجسس له، فقيل إن نصف سكان استانبول كانوا جواسيس على النصف الآخر. فكمت الأفواه وأحصيت على الناس أنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم وقيدت حرية الرأى وخشى المتكلم أن يكون حتفه بين فكيه. وأحس التركى بأنه يعيش حبيسًا فى قفص من سيوف! فالتجول ليلاً محرم محظور، والصحافة خفيضة الصوت لا تكاد تبين، والنفار شديد بين الترك المسلمين وغيرهم من المواطنين،

ووجد الأجانب سبيلهم إلى الجيش فكان منهم الضباط وكبار القواد، واستأثروا دون الأتراك برفيع المناصب وضخم الرواتب.

وطالت الحال على الترك فملّوه واشتد بهم الاستبداد فكرهوه، ولا غرو فمنهم من هذبته ثقافة الغرب واستنار بحكمة الشرق، وتألفت الجمعيات كـ (جمعية شباب الترك) وانخرط فى سلكها كثير من رجال الجيش وعولوا على أن يطلقوا الشعب من قيوده ويطلبوا إلى السلطان حكمًا دستوريًا بعد أن رفض الدستور الذى وضعه مدحت باشا سنة ١٨٧٥ فذهب ضحيته، وقد جهدت الدولة أن تشتت شملهم بالوعد والوعيد والنفى والتشريد. كما تألفت (جمعية الاتحاد والترقى) وانضم إليها عديد من أهل الحول والطول. وكان مبدؤها أن يكون الحكم نيابيًا وتنال البلاد دستورها. وظهرت كذلك جمعية يقال لها (جمعية الأحرار)، إلا أن مبادئ هذه الجمعيات بقيت أملاً وخيالاً، ولم يحققها إلا ضابط ألبانى يقال له نيازى بك، رفع علم الثورة فى مقدونيا، وجمع حوله شرذمة قليلة من رجال، وصرح بأنه يطلب الحرية بحد الحسام، ويريد من الإصلاح ما يشمل مرافق الدولة، وكان ذلك منه فى اليوم الثالث من يونية سنة ١٩٠٨، وأراد أن يرسل بيانًا بذلك لرؤسائه قواد الجيش ليوصلوه إلى السلطان. وعلم السلطان بذلك فاستشاط غضبًا، وأنفذ إليه القائد شمسى باشا الذى قتل قبل نزوله إلى حومة القتال. والتف حول نيازى بك كثير من الألبانيين فاشتد أمره، وقويت شكيمته، وأرسلوا إلى السلطان برقية يطالبون فيها بالعدل والدستور، وبلغ من جرأة بعض أعضاء جمعية شباب الترك أن يلصقوا على الجدران فى استانبول منشورات ضَمَّنُوها مبادءهم، وكانت مكتوبة بالتركية واليونانية والأرمنية. وبعث السلطان إلى نيازى بك جيشًا بقيادة عثمان باشا، غير أن الباشا طعن وجرح قبل أن ينازل الضابط الثائر.

وقد قابل نيازى بك عثمان باشا، ولهذه المقابلة قصة لا تخلو من طرافة، فيقال إن جنود نيازى بك صادوا غزالاً فى بعض الوديان، واستأنس الغزال وألف الجنود فكان لا يرهبهم ولا ينفر منهم، وفكرا عقاله فلم ينطلق هاربًا. ولزم الغزال نيازى بك الذى كان يطعمه كل يوم بيده وتبعه أينما توجه، وقد حدث أن تبعه فى اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة عثمان باشا، فسار خلفه وصعد معه السلم حتى دخل الحجرة، فقال نيازى بك لعثمان باشا مشيرًا إلى الغزال: «تأمل يا سيدى، حتى الحيوانات معنا تؤيدنا وتنضم إلينا!».

وأصبح لنيازى بك جيش قوى يزيد عدده على توالى الأيام وينشر الثورة فى مقدونيا وكل ما فيها من بلاد وقرى، وكثرت حوادث اغتيال الضباط، وأرسلت لجنة الثوار فى

مناستير إلى السلطان تقول: «نرجو جلالتكم أن تأمروا بصدور «إرادتكم» السنية لرعاياكم وكل من يخضع لكم حتى تحفظوا علينا ولاءنا لكم وتضمنوا طاعتنا، أما إذا لم يصدر الفرمان السلطانى بفتح البرلمان إلى يوم الأحد فمن الواضح أن حوادث ستحدث ضد مشيئتكم، فالموظفون المدنيون والضباط والحراس والجنود جميعًا والأمة جمعاء من غير تفرقة بين دين ولا جنس، ستتحد أمام الله».

وتحرك جيش الثوار فى مقدونيا وأخبر أنه سيسير إلى سلانيك ثم استانبول ويعلن الدستور. وحاول السلطان عبثًا إرسال جيوش لسحق الثائرين فقد كان جنوده يتمردون، ونصحه رئيس وزرائه فريد باشا بالخضوع للأمر الواقع وإعلان الدستور، فغضب عليه وعزله وولى سعيد باشا الذى كان من أعداء الدستور، ومع ذلك فقد جهد أن يقنع مولاه بضرورة منحه، فنوى أن يعزله وطلب فريد باشا وعرض عليه رئاسة الوزارة فاعتذر من قبولها، وسأله إن كان ذلك خوفًا منه على حياته، غير أن فريد باشا أجاب السلطان قائلاً: «كلا لست متخوفًا على نفسى، وإنما تخوفى عليك وعلى من حولك». وبقى سعيد باشا رئيسًا للوزارة وكان يرى أن يسوس الثوار بالعنف، غير أن سياسة العنف لم تكن لتجدى نفعًا، فمنح السلطان شعبه الدستور فى الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٠٨.

وهاتان الثورتان متشابهتان فى الباعث الأساسى عليهما وهو كراهة الأجانب والسخط عليهم والرغبة فى الحد من سلطانهم، غير أن ملك الفرس كان يكره الإصلاح ظنًا منه بأنه ملك الملوك الذى يحكم بالحق الإلهى المقدس، فلا مشيئة للشعب أمام مشيئته، أما سلطان الترك فكان يخاف القيام بمشروع جديد لخور فى نفسه وتوقعه الشر مما لم يألفه ويمارسه. وكان الإيرانيون محتجين أكثر منهم ثائرين، فهم فى ثورتهم وهجرتهم كانوا يظهرون غضبتهم، فلم يحكموا السيف إلا يوم وجدوا الحاجة إلى تحكيمه، أما الترك ففيهم صرامة وشدة بأس، فكانت ثورتهم عسكرية، وهم أهل قتال وجلاد بطبعهم، فنالوا بالعنف وحد السيف ما لم ينالوا بالملاينة واللطف.



مصارع العظماء

العظمة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، وهى أنواع متباينة منها التصدى لحكم الناس وتصريف أمورهم والقوامة عليهم. والعظيم ذو الحول والسلطان قد يشقى بعظمته بعض الشقاء أو كله، لأنها تكلفه الجهد الجهيد لاحتفاظه بدوامها عليه، وتقيده بما يجب أن ينطلق منه، كما تعرضه لحسد الحاسدين وكيد المغرضين فتجر عليه مستطير الشرور، وما من نفس تخلو من أثرة وميل للسيطرة، وشوق إلى التنافس وتنازع البقاء، فهى تتأذى أبدًا بكل مستأثر بالخير عليها كما يتأذى العطشان برؤية الريان، وما من عقل يخلو من نزعة لتقويم العوج إن بالرفق أو العنف، فلا يعدم العظيم أعداء له من حوله بقلوبهم أو ألسنتهم أو أيديهم، وفى سيوف الحراس وحراب الحجاب أوضح الدلالة على توقع البأس واتخاذ الأهبة لدفعه، وقديمًا قال بعض الحكماء أن العظيم كراكب الأسد، يخافه الناس وهو لمركبه منهم أخوف.

وأن هذه الظاهرة لحافز على جريمة القتل المعروف بالسياسى والموسوم بكل صفات البشاعة والظلم والغدر، وعند التاريخ أخبار طوال نجد فيها من أبناء الملوك من عق الأبوة فقتل أباه. ومن السلاطين من نسى الأخوة فقتل أخاه، ومن خلفاء الرسول وآله الأكرمين من لقى الحتف على يد كفار أثيم أظلم قلبه وعميت بصيرته فلم يعرف للنبوة قداستها، ولا للخلافة جلالتها، كما أن لدينا من سودهم الله على قومهم، واختصهم بالصدارة والرياسة فأوردوا موارد الهلكة فى غير جريرة أخذوا بها ولا ذنب حوسبوا عليه، فلم يعقب ذلك إلا خطيئة لا يغتفرها الغفور الرحيم، وفسادًا فى الأرض يجر إلى فساد، وقد يتسع الخرق على الراقع فيعز منال الإصلاح، ويمر مديد الزمن وتبقى حزازات النفوس كما هى.

وفى تاريخ الترك مأساة حزينة تحدثنا بلسان صدق عن اغتيال العظماء وما يتلوه من وخيم العاقبة، وتصور لنا سوء الحال بعد هذا الجرم الذى لن يبرره دين ولا عقل، فلما خلع السلطان عبد العزيز وتبوأ العرش بعده السلطان مراد، زين الشيطان لبعض الوزراء أن يقتلوا عبد العزيز، وكان ذلك عام ١٨٧٧، ففكروا فى الأمر ودبروه حتى صح عزمهم عليه، وتوخوا أن يخدعوا الناس عن أنفسهم، ويلقوا فى روعهم أن عبد العزيز مات منتحرًا، وفى ليلة من الليالى تسللت إلى القصر النائم أشباح خمسة، وكانت لثلاثة من الوزراء وهم: عونى باشا ومدحت باشا وقيصرلى باشا، ورجلين من أعوانهم فهب السلطان من نومه على وقع أقدامهم فى مخدعه، ورفع صوته مناديًا: يا حسن يا حسن. إلا أن الرجلين كانا أسرع شىء إلى إخماد أنفاسه وإسكات نأمته، فقد عصرا عنقه فمات، وما

تأكد عونى باشا من موته حتى عمد إلى مقص كان على منضدة بجانب الفراش، فوخز به أكحل القتيل وشقه، وسكن ما ثار من شعره، وأصلح ما انكمش من ثوبه، وشد ما اختلج من أطرافه، ثم ألقى عليه نظرة شديدة، وأطلق ضحكة شامتة كضحكة البوم على طلل خرب.

وتعلق الجناة بأذيال الفرار، وأنهى الوزراء الخبر إلى السلطان مراد فوقف منهم على جلية الأمر، وجزع أشد الجزع مراد الحليم الرحيم الذى لم يبيت السوء يومًا لعمه عبد العزيز، ولم يكن له فى الأمر رأى ولا يد، فقلب على ذلك كفيه، وقر فى نفسه أن الناس سيعزون إليه هذا الجرم ظلمًا. وبينما هو فى حسرته وحيرته دخل عليه الضابط الشركسى حسن بك، وهو رجل صعب المراس شديد البأس من خلصاء عبد العزيز وأخص بطانته وحراسه، وكان قد أحاط علمًا بكل ما حدث لمولاه من أخته مريم وهى من نساء عبد العزيز، وارتكبت الجريمة بين سمعها وبصرها. ودخل الضابط على السلطان مراد مندفعًا، حتى أن السلطان قال له فى ذلك واستنكره منه، فرد عليه الشركسى بما لا يرد به مثله على السلطان وقال له: «أنا لا أقصدك بسوء يا مولاى، أين عونى ورفاقه؟ أنت عليم بأنهم قتلوا عمك، لقد شوهدوا وهم يدخلون قصره مع اثنين من رجالهم وبعد ساعتين من دخولهم، شاع الخبر بأن عبد العزيز مات منتحرًا، أعبد العزيز من ينتحر! كلا إنها جريمة دنيئة، لقد قتله عونى وأصحابه».

وظهر القلق والفزع فى وجه مراد فسأل الضابط الجرىء قائلاً: «وماذا تريد بعونى؟» فأجاب حسن بك قائلاً: «أريد لأبعث به إلى الجحيم». ورأى السلطان الشر يلتمع فى عينى حسن فأحب أن يهدىء من روعه بقوله: «ولكن على رسلك» وما سمع الشركسى ذلك من مراد حتى انطلق يقول: «أفى نيتك أن تتأثر به، ألست السلطان، أتصبر على هذا العار، أتخنع خنوع العبيد أمام وزرائك، ليهزأ الناس بسلطنتك؟ لا تخدع نفسك، ولا يدورن بخلدك أن الجبن ينجيك من خطر داهم يتهددك، ليس دورك ببعيد، وسيقتلونك كما قتلوا عبد العزيز من قبل، هيا انتقض، ومر بشنقهم توًا، لم تكتف هذه الكلاب بخلعه، بل قتلته بأيديها، وهو من غمرها بأفضاله وأغدق عليها من نعمه، والله لو أن لى خمسين روحًا لبذلتها رضا وطواعية فى سبيل قتلهم واستئصال شأفتهم. لو رأيته وقد امتدت ذراعاه فكأنه يطلب الأنفاس عبثًا، واسود وجهه، وثار شعر رأسه ولحيته، ولو رأيت عقيلته ووالدته وهما تبكيان على جثمانه، ما ترددت برهة فى الثأر به».

وخرج الضابط من حضرة السلطان غير مستأذن بعد أن أسمعه كلامًا لم يسمعه من قبل، وانطلق إلى ثكناته وهناك اطلع رفاقه على ذات نفسه ولم يطو عنهم سرًا، وسرعان

ما سرى خبره إلى عونى باشا وزير الحربية فعرف أنه متمرد، وأمر بسجنه مدة، ولما انتهت مدته أمر الوزير باستدعائه، فلما مثل الضابط بين يديه تظاهر بإظهار الندم على ما كان من قوله، والتمس العفو عما فرط منه، وأغلظ الوزير فى القول للضابط المتمرد، وأمهله يومين يرحل بعدهما إلى بغداد، وتوعده بالشر إن تلبث أكثر من هذين اليومين فحياه الضابط وانصرف.

وامتطى جواده وقصد وزارة الحربية، وهناك أخبر بأن عونى مدعو للعشاء والسمر فى قصر مدحت باشا. فعاد أدراجه وانتظر حتى وقب الليل فعرج على إحدى الحانات، واحتسى من الخمر ست كؤوس، وحان موعد الوليمة فأخذ سمته إلى قصر مدحت باشا، ودخل بعد أن أخبر الحراس بأنه على موعد من وزير الحربية للتحدث إليه فى أمر هام قبل سفره إلى بغداد فى الغد. ثم دخل بهو القصر، ولما منعه الحاجب سلم إليه أوراقًا كانت معه لتقديمها إلى عونى باشا حتى يسمح له بالمقابلة، وما سار الحاجب بالأوراق حتى تبعه حسن من حيث لا يشعر ثم دخل على عونى فى غرفة جمعت بينه وبين مدحت وقيصرلى وغيرهما من صفوة القوم.

وما أن شاهد حسن بك من جاء لرؤيته حتى أمره بعدم الحركة ثم أخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة أصابته فى صدره، فجرح جرحًا غير مميت وألقى نفسه على الجانى، إلا أن رصاصة أخرى جدلته وأفقدته الحركة. واهتز القصر هرجًا ومرجًا، واندفع الوزراء إلى الغرفة المجاورة ما عدا رشيد باشا وقيصرلى باشا. أما مدحت باشا فجرى إلى الحريم ليتسلح. وعاد حسن بك فأطلق طلقتين على رشيد باشا، غير أن قيصرلى باشا ألقى بنفسه عليه وأمسك بذراعه فعطلها عن حركتها، فاستل الشركسى خنجره وهوى به على عنقه وقطع أذنه.

وحاول أحد رجال مدحت أن يعترض القاتل فكان جزاؤه رصاصة صرعته. وكان عونى مثخنًا بجراحه إلا أنه تحامل على نفسه واتجه مترنحًا نحو الباب، فالتفت إليه حسن بك وبقر بطنه وكشط وجهه بخنجره، وكان يقول وهو يقتله: «أيها الكلب! مت ميتة الكلب، إلى الجحيم، ولتسعد روحك يا عبد العزيز». ولم يلق القاتل سمعًا إلى صوت رقيق يقول بأرق نبرة من وراء باب موصد: «دعه يا ولدى، عفا الله عنك».

ولما تأكد من موت عونى هوى على جثة رشيد فكاد يفصل رأسها عن الجسد، ثم أطلق النار على باب محكم الإغلاق تحصن خلفه بقية الحاضرين، ووصل ياور عونى وسل سيفه متجهًا إلى حسن بك، إلا أنه أعجل عما كان ينويه برصاصة أردته قتيلاً. وكان يقتل كل

جندى يقترب منه بمسدسين فى يديه، ولما فرغت ذخيرته بعج الجند بطنه بأسنتهم وألح عليه النزف فضعف، وحملوه إلى الحديقة ثم إلى المستشفى، وهناك لم يقبل من الأطباء أن يضمدوا جراحه وقال: «لا بأس على، لقد ثأرت عبد العزيز. وإنى عليم بما ينتظرنى من مصير». ومات فى ليلته، وفى الصباح الباكر علقت جثته فى شجرة بحديقة وزارة الحربية.

وقد تأثر السلطان مراد كثيرًا بما حدث فسهر ليله ووجم نهاره، وساءت صحته واختلط عقله حتى عزل من حكمه على أنه مخبول. أما المتآمر الثالث على قتل عبد العزيز وهو مدحت باشا فقد قتل فيما بعد بإيعاز من السلطان عبد الحميد، ومن قَتَل يُقتل ولو بعد حين.

وإذا ما انتقلنا إلى إيران فى أوائل القرن العشرين، وجدنا مثل هذا الجرم، وهو وإن كان أقل وأهون شأنًا، إلا أنه يشبه ما حدث عند الترك فى سوء المغبة.

فقد كان لإقليم فارس بجنوب إيران حاكم يدعى قوام الملك، ويلوح أنه كان يأخذ الناس بالعنف ويركبهم بالعسف حتى جأروا منه بالشكوى وأبلغوا شكواهم نواب الدولة بطهران، فتوفر النواب على دراستها وترديد النظر فيها، واستدعوا الحاكم ليحاسبوه ويستجوبوه، فبسط لهم الأمر على حقيقته، وتوصل إلى إقناعهم ببراءة ساحته من كل ما نسب إليه، كما قال إن أعداءه يتمنون له العثار، ويشيعون حوله الأراجيف، ليشفوا غيظهم منه، وهم قوم جامدون على القديم، ثابتون على التقاليد البالية، وضد كل مصلح، وإلب على كل داع إلى الدستور والحرية، ولما أتم قوام الملك ما استدعى من أجله إلى طهران عاد إلى شيراز، غير أن أعداءه لم يكفوا عنه أذاهم، فشددوا النكير عليه، واحتدم النزاع والخصام بينه وبينهم، بيد أنه أفلح بعد حين فى التفاهم مع أكثرهم، فسل سخائمهم وانتزع الفساد من قلوبهم، وجمعهم وعاهدهم على أن يكون عند حسن ظنهم، ويسرح الماضى ليستقبل عهدًا يسود فيه الصفاء والوئام، ولكن كان بينهم من لم يخلص نيته ويطهر نفسه من حقد يأكلها.

واتفق يومًا أن جلس فى الديوان مع جمع من رفاقه انتظارًا لمقدم الوالى، وكان اليوم شديد الحر، فضاق المجتمعون بالبقاء فى الغرف وجلسوا فى الحديقة طلبًا لنسمة يتنسمونها بعد أن كاد القيظ يزهق أنفاسهم، وأخذوا بأطراف الأحاديث بينهم وهم يرشفون المرطبات وينفثون من الدخان سحائب، فما راعهم إلا فتى يقتحم عليهم مجلسهم وهو يجعل يده فى جيبه، بعد أن سمح له الحجاب بالدخول ظنًا منهم أنه من أتباع الوالى، وأخرج الفتى مسدسه وأطلق منه أربع رصاصات على صدر قوام الملك، ورصاصة على جبهته، فخر

القاتل والقتيل متشحطين فى الدماء، ولما ثابت إلى الحاضرين نفوسهم، وتلمسوا جيوب القاتل وجدوا ورقة كتب فيها: «نعمت الله قاتل قوام الملك الشيرازى».

وكان لمقتل قوام الملك رنة تجاوبت أصداؤها فى مدينة شيراز، وتحركت ثورة الغضب ونشوة الانتقام فى نفوس أبناء القتيل وأتباعه، فكبسوا بيوت أعدائهم، وحملوا عليهم بالسلاح، وكانت مقتلة عظيمة نشرت الفزع فى أرجاء المدينة، وقامت فتنة شعواء لم يشهد الناس مثلها، وما يروى أن المتخاصمين انتهكوا حرمة الموت فى مجلس عزاء قوام الملك، فانتشب بينهم القتال ولم يملكوا نفوسهم فيكبحوا جماحها ويكسروا شرتها ساعة من نهار، فى مجلس حزين ليس فيه إلا من ملأ الخشوع قلبه، وتفكر فى الموت فهان عليه شأن هذه الدنيا، ووجد الميل إلى الزهد فيها والانصراف عن زخرفها، فما وسعه إلا أن يردد قول من قال: إن العمر أقصر من أن يتسع للعداوة والخصام.

* * * *

من أوهــام العشــاق

يذهب من يشغلون أنفسهم بمسائل الحب ومشكلاته، ويصدرون فى أحكامهم عن علم النفس الذى يرد النتائج إلى مقدماتها ويربط المسببات بأسبابها، إلى أنه ليس للحب وجود خارجى بقدر ما له من وجود داخلى، بمعنى أنه يستمد نشأته من خيال يطيل العاشق فى النفس ترديده، وتفكير يديره فى العقل تكرارًا.

فلا ريب أن للغريزة أحكامها، لأنها تهيىء القلوب الشابة للحب ضمانًا لبقاء الجنس وانتظام حياة البشر، حتى إذا ما تألفت الأسرة واستقرت على مر الأيام، تغير هذا الحب كمًا وكيفًا؛ وأصبح بعيدًا بعض البعد أو كله عن ذلك الحب الذى يتغناه الشعراء على نغمات الأنين، ويروى الشباب زهرته الشائكة بالدمع الهتون، فاللوعة والحرقة والشوق الظمآن، والوجد والحيرة والليل السهران، إن هى فى واقع الأمر إلا أثر التفكير العنيف؛ والاسترسال فى الأوهام، والإغراق فى أضغاث الأحلام، حتى يصبح ذلك عادة عقلية لا ينفك العشاق عنها، ولا يملكون انطلاقًا من أسرها، فتختلط عقولهم وتضطرب نفوسهم، ولا يتبقى لديهم من القدرة وصحة الرأى ما يميزون به حقيقة من خيال.

ويمكن القول بأن الغرام وليد هذا الخيال الهائم الذى لا يستكين ولا يستقر، ولا يعرف للآفاق حدًا من الحدود، لأن العاشق يضفى على صاحبته من الصفات ما لها وما ليس لها، ويرسم حولها من الهالات فى بعد وقرب ما يجعلها من بنات الحور، فليس بدعًا أن نصادف من يشاهد الحسن فى غير ذات حسن، فالخيال السابق أو اللاحق يغير الحقيقة الراهنة فيجعلها كما يراد بها أن تكون، وينسى حتى الدمامة إن وجدت، ويتصورها تلك الملاحة الفاتنة الأخاذة التى طالما تمثلها وحلم بها.

ونخلص من كل هذا إلى حقيقة لا مراء فيها، وهى أن الخيال أهم عنصر فى العشق يكسبه هذه الصفات التى تجعل منه هما يلازم القلوب، وداء وبيلاً يعصف بالنفوس، فالمعشوق لا يظلم عاشقه كما يقولون، وإنما العاشق هو الذى يظلم نفسه، ويجر على قلبه الضعيف هذا العذاب الممض بأوهامه وأحلامه التى يعجز عن دفعها، ولا يملك زمامها. ولدينا من تاريخ الفرس ما ينهض دليلاً على ما نقول، ويبين لنا سلطان الأوهام والأحلام على ملك من ملوك إيران هو فتحعلى شاه المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية.

ولهذا الملك شهرة مستفيضة بأنه كان موكلاً بالنساء يحشدهن فى حريمه حشدًا، لولوعه بهن وتهالكه عليهن، حتى قيل إنه مات عن ألف امرأة بين زوجة وجارية وحظية، وأعقب منهن مائتين وستين بين أبناء وبنات.

وله قصة مستطرفة مع من تدعى طوطى شاه، وهى فتاة رآها أول ما رآها فى مدينة أصفهان، حيث كان يستجم ويستروح، قبل أن ينفذ جيشه إلى الجنوب للضرب على أيدى أقوام ثاروا وشقوا العصا. وتفصيل ذلك أنه كان مطلاً ذات يوم من نافذة تشرف على قصر حاكم أصفهان، فأخذت عينه فى فناء الحريم فتاة لها حسن الزهرة المطلولة. ولم يتأمل محاسنها حق التأمل لبعدها عن مرمى بصره، وإسراعها الخطو لبعض شأنها. وما غابت عن ناظريه حتى تساءل من تكون هذه الحسناء. وشغل قلبه بذلك الطيف الجميل الذى ما أقبل حتى أدبر، فأعمل الفكر والخيال، وانتزع لها من كل صفات الحسن ما خلقها خلقًا جديدًا بديعًا، فلم يدع للنسيم رقة، ولا للربيع نضرة، ولا لطلعة الصبح بهجة، إلا خصها من كل ذلك بأوفى نصيب، فاستوت لها فى نفسه صورة يكبو قلم البليغ دون وصفها، وظمىء فؤاده إليها، واستشعر الهيام بها، وأمر بالوقوف على خبرها، فقيل له إنها من بنات الأمراء وأسرتها هى المعروفة بالأسرة الزندية، وأن أهلها على أتم الأهبة لتقديمها إلى أعتابه الملكية. ولم يكن فتحعلى شاه راضيًا عن أمراء الأسرة الزندية، فرغب عن الفتاة وكره أن يضمها إلى حريمه، لا لشيء سوى سخطه على آبائها وذوى قرباها. غير أنه كان لها محبًا، فأراد أن يكف قلبه عنها، وجاهد نفسه جهادًا عظيمًا من غير طائل، ولما عزه الأمر وأعيته الحيلة، لم يجد له خلاصًا ومخرجًا إلا فى البعد عنها، فعول على الرحيل عن أصفهان بلد الحبيب، والعودة إلى عاصمة ملكه طهران؛ أملاً فى النسيان والسلوان وشفاء نفسه مما تجد، إلا أن الروح الظمأى لم تكن رهينة بالجسد المفارق، وفى فراق الأشباح لقاء الأرواح، فاشتدت بالعاشق لوعته، وازدادت فيها رغبته من حيث ظن أنه سيسلو عنها، ورق لها قلبه، فتحركت شاعريته وقال هذا البيت: «من تكون هذه الحورية العيناء التى قرت بها عين الملك، فكأنما التقى سليمان ببلقيس!».

ولم يطق الصبر على فراقها، ولا نال ما كان يرقبه من هجرها، فما وسعه إلا الإقرار بأن سلطان الهوى أعز من سلطانه، وأنه من هؤلاء القوم الذين تصرعهم الأعين النجل على عظيم صولته وشديد جبروته، فعجز وانكسر، وبعث إلى أصفهان بمن يأتيه بخالبة اللب وآسرة القلب، وما عادت إليه من فراقها الطويل بعد الضنى والسهاد حتى أمر توًا، فكانت زوجته وسماها «طوطى شاه».

وقد أعزها غاية الإعزاز وأكرمها أيما إكرام. فكان يجيب سؤلها وينزل على رغبتها، ويطيب له إن أمرت أن يطيع، وإن استعلت أن يخضع، وقد ذهب عنها هذا فى الناس

فكان أصحاب الحاجات يقصدونها من أرجاء البلاد ويسألونها الشفاعة عند فتحعلى شاه. أما أصحاب الجاه والحل والعقد، فكم كانوا يقدمون إليها نفيس الهدايا إن نجحت فى مسعاها، وأنالتهم من زوجها الملك طلبتهم، حتى قيل إنها كانت تدير سياسة البلاد من طرف خفى وتهيمن على كل شىء، علم الشاه أو لم يعلم.

ومما يذكر أن فتحعلى شاه كان إذا أراد إظهار الرضا عن إحدى نسائه، أرسل إليها خصلة من شعره بعد أن يحتلق وشفعها ببدرة من الذهب، فحفظتها بين حليها ونفائسها لتزين بها شعرها، وتتيه بها على الحاسدات من أترابها؛ وكانت طوطى شاه صاحبة الحظ الأوفى من خصل شعر فتحعلى شاه.

ولم تطل أيامها، فمضت فى ربيع عمرها، وطواها ثرى ضاحية من ضواحى طهران، وشيد لها قبر له من الجمال والجلال شبه ما كان لصاحبته. وغرست حوله روضة وسيعة ذات بهجة عرفت بحديقة طوطى.

وقد جزع فتحعلى شاه لموتها أشد الجزع فبرح به الأسى، وكان دائم الذكر لها والحسرة عليها والحنين إلى لياليها المواضى وزمانها الذى ليس يرتجع، ولم يكفه أن يخلد ذكراها على وجه الزمان بقبر مهيب وروضة بهية، فقد صور له الوهم أن يحييها من موتها، ويوقظها من رقدتها ويردها إلى الدنيا بعد رحيلها عنها، ليجدد عهداً مضى، وينعم منها بالوصال بعد فرقة الأبد، فما كان منه إلا أن أمر ولاة البلاد وحكامها بالبحث عمن تشبهها تمام الشبه، فامتثلوا الأمر، وأرسلوا إليه من النساء عدداً لا يحصى؛ فأجال الشاه فيهن بصره فاحصاً موازناً حتى استقر رأيه على أن يصطفى إحداهن؛ ولم يكن لها من الحسن ما كان لطوطى شاه، وإنما كانت عيناها كعينيها وشعرها مثل شعرها. فألحقها بحريمه وجعل لها من المنزلة ما كان لشبيهتها وسماها «طوطى نما» بمعنى من تظهر طوطى. فكان كثير النظر إلى عينها وشعرها، ذاكراً بهما حبيباً له فى ظلمة الثرى، فيبكى أحر بكاء حتى فى ساعات الوصال وأيام النعيم.

ولم يذكر المؤرخون إن كان عشق طوطى نما أو لم يعشقها، ومهما يكن من شىء فإن هذا الصنيع منه يدل دلالة واضحة على أنه كان ينظر إلى الحقيقة بعين الخيال ويخدع نفسه خداعاً صريحاً سافراً لينطلى الزور عليها، مستعيناً بذلك التمثال الحى، فهو يريد أن يصدق ما لا سبيل إلى تصديقه، ويغالط فى الحق وهو عليم بأنه من الواهمين الحالمين، ويجيل النظر فيما بين يديه ليشاهد ما قد غاب عنه فى أطواء الزمن.

وهكذا أمر العشاق؛ فهم يتجافون عن الحقيقة؛ ولا يملكون مقدرة على مجابهتها، ويولون هاربين إلى آفاق بعيدة للخيال؛ ثم يرتدون وقد رأوا أن هذه الآفاق خاوية، ولا أمل فى بلوغ نهايتها، بعد أن ظلموا أنفسهم بالألم الطويل والعذاب المهين، وعرفوا أن الحالم بالورود قد يستيقظ فيجد نفسه على فراش الأشواك.

* * * *

شاعران هجّاءان

الهجاء فن شعرى له صفات تنفر منه وتزهد فيه، وصفات تدعو إلى تدبره وتبعث على التحدث عنه وعن شعرائه، فهو فى درجاته العنيفة هجر تمجه الأسماع، وخنا تعافه الأذواق، وقبح تبًا له من قبح، أما فى درجاته الخفيفة فتعبير صريح عن نفسية الشاعر، وتصوير لشعور الكراهية إذا احتدم بين جوانحه، وإظهار لما يعتبر عيبًا ومغمزًا، وهذا تبصرة بالمساوئ، وتعداد لأنواعها فى قوم الشاعر وزمانه. كما أنه معوان لنا فى الأحايين الكثيرة على النفاذ إلى نفوس الشعراء لتعرف البواعث التى دفعتهم إلى ما كان من صنيعهم، وقلما نعدم فى الهجاء روح المرح والدعابة التى تقرن بهذا الفن فنًا آخر هو فن الهزل والإضحاك.

وفى أدب الفرس والترك شاعران هجاءان هما عبيد الزاكانى الفارسى، ونفعى التركى، ولهما من بعد صيتهما والتبريز فى فنهما ما يلفتنا إليهما، ويجعل الدراسة حقًا لهما علينا.

فعبيد الزاكانى من أهل القرن الثامن الهجرى، وقد حصل العلوم وطال باعه فى الآداب حتى أهّله ذلك للتكسب بالتعليم، فأصبح مؤدبًا لكثير من أبناء صفوة القوم، وكان رجلاً من أهل الجد والورع، لا يقول إلا حقًا، وليس فيه جانب للهزل والمجانة، غير أن حدثًا وقع له فأخرجه عن مألوف عادته، ونحا به نحواً آخر هو ضد ما كان يعهد فيه ويشتهر به، فقد صنف رسالة فى علم البلاغة سماها «علم المعانى والبيان» وأهداها إلى الشاه أبى إسحاق، وأراد أن يقدمها بشخصه، وطلب إذن المثول بين يديه، فرده الحجاب قائلين إن أحد المضحكين فى الحضرة الملكية، والشاه بالأسمار. والأضاحيك فى شغل عن كل شىء، فلا سبيل إلى الدخول عليه، وساء ذلك عبيد الزاكانى، فدق كفًا بكف، وأظهر حزنًا وعجبًا، وتأسف أن يدخل أهل الهزل والمجون على الملوك، ويرد العلماء والفضلاء، وذكر ما لقى من كد وعنت فى التأليف والتصنيف بعد الذى رأى من الإقبال على الهزل، والانصراف عن الجد، فأسر ذلك فى نفسه وردده طويلاً، وأحس ذلك اليأس الممزوج بالغضب، الذى يدفع صاحبه دفعًا إلى الانحراف عن وجهته، ونبذ ما كان ينهج من منهج، فلم يجد خيرًا فيما كان يأخذ به نفسه من جد ووقار، ولا جدوى فى علم يكد الذهن ويسهر الجفن، وعول على أن يهزل مع الهازلين ما دام ذلك يحببه إلى الناس، ويقربه من الملوك، وقال هذه الأبيات على البديهة مشيرًا إلى ما يعتزمه، وذاكرًا ما حداه على ذلك:

«تجاف عن طلب العلوم، ولا تكن مثلى فأنا الأذل عند الأعزة، وإذا ما أردت قربة وحظوة عند سادة الزمان، فاخلع عذارك، واضرب لهم بالمعازف، وسلهم إلحافًا حتى تريق ماء حيائك».

واشتد سخطه على الزمان وأهله، وإن هذا السخط لأول باعث على الهجاء وخبث اللسان، فالمتبرم المتذمر يرى الجميل غير جميل، ويلتمس تنفيسًا لغضبه بصبه على المسىء والبرىء جميعًا فلا يسلم منه أحد. وقد عجب لذلك بعض من يعرف للشاعر فضله ويقدر علمه، وأحزنه أن يبلغ منه اليأس والتشاؤم هذا المبلغ، فقال له فى ذلك. ورد عليه عبيد الزاكانى بقوله: «أيها السيد، لا تطلب العلم، وليكن ذلك عزمك الذى لا تتحول عنه جهد المستطاع، حتى لا يضيع قوت يومك من بين يديك، فاذهب واجهل واهزل، وعن المطربين فخذ علومهم، لتنال حقك من كل عظيم وغير عظيم».

وكان معدمًا سىء الحال، ضيق ذات اليد، ولم يكن فارغًا من هموم العيش على ميل فيه إلى الإسراف والإتلاف، فركبه الدين، وزاده ذلك همًا على هم، وتسخطًا لمقدور القضاء، فقال فى معرض الشكوى: «الناس يفرحون ويمرحون، وأنا من منيت بالديون، والكل بشأنهم فى شغل، ولا شغل لى إلا بلاء ديونى، وفى عنقى فرض الخالق وقرض خلائقه، فحرت فى أداء الفرض والقرض! أنا كثير النفقة ثقيل الدين، فهل أدبر نفقتى أم أفكر فى ديونى. أنا إن شكوت من كتاب فشكواى من سجل ديونى، وإن خفت أحدًا فخوفى من شهودى».

ويقال إن شاعرًا يدعى سلمان الساوجى هجاه بشعر غليظ فرحل عبيد الزاكانى إلى بغداد، وشاءت الصدفة أن تجمع بين الشاعرين فى هذه المدينة، فقد رأى عبيد صاحبه فى رفقة من أهل الأدب يتناشدون الأشعار على نهر دجلة، وقال سلمان شطرًا وطلب إلى الحاضرين أن يجيزوا، فأجاز عبيد وهو داخل عليهم وهم لا يعرفونه، وسأله سلمان عن بلده فقال قزوين، وأحب أن يعرف إن كان لشعره سيرورة وشهرة فى هذا البلد فقال عبيد: «أنا خمير وجليس حانات، وبين المجوس عاشق نشوان، وقد تجاذبونى كالزق من كتف إلى كتف، ونقلونى كالقدح من كف إلى أخرى».

فعرفه سلمان الساوجى بشعره، وسأله الصفح عما كان من هجائه له، وما زال به يسترضيه حتى رضى، وتصافى معه فسلم من لسانه.

ولعبيد الزاكانى شعر كثير فى الهجاء والهزل والمجون، ولا يسعنا إلا أن نمسك عن ذكره مكتفين بالإشارة إليه لفحشه الشديد وحقائقه العارية التى لا تعرف للتهتك حدًا، غير أن

هذا الشاعر كان ناثرًا كذلك، وقد ألَّف عدة رسائل يذهب فيها مذهبه فى الهجاء والهزل والتهكم، ومنها رسالة تعرف بأخلاق الأشراف ولها قيمة أدبية وتاريخية لأنه إنما كتبها فى عصر انحلت فيه أخلاق أبناء وطنه لمخالطة المغول والترك لهم، فأحب أن يميز للناس بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، بأسلوب هزلى لاذع فيه من قوارص الكلم ما يؤذى السادة والرؤساء فى شرفهم وعرضهم، وقد سخر من أعمالهم وهزأ بهم، وجعل الرسالة فى سبعة أبواب وهى: الشجاعة، والعفة، والعدل، والكرم، والرحمة، والوفاء، والتواضع، وتحدث فى كل باب عن الفضيلة فى رأى السلف وسمى ذلك المذهب المنسوخ، والفضيلة فى رأى أبناء العصر وقال إنها المذهب المختار. وهذا واضح الدلالة على أنه يذكر الناس بصلاح السلف وفساد الخلف.

ومن قوله فى باب العدل: «يذهب من تتلمذنا لهم أن العدل شر الصفات، وأنه يجر أوخم العواقب، وقد أوردوا على ذلك ساطع البراهين، فالعقاب أساس الملك والحكم والسيادة، لأن الناس لا يطيعون إلا من يخافون، فإذا ما كانوا جميعًا على قدم المساواة، امتنعت الرعية عن إطاعة راعيها، وعق الأبناء آباءهم وخرج الخدم عن طاعة سادتهم فعمت الفوضى مرافق البلاد كلها».

وهكذا يمضى فى تهكمه وينسب إلى الأشياء ما ليس لها من صفات، فيلبس الحق بالباطل. وله رسالة سماها مائة نصيحة، وهو فيها يحرف الحقائق فيضع الشر مكان الخير، ويقول: «إياك والتأهل ببنات الشيوخ أو القضاة أو المرابين، فإنهن لا ينجبن إلا المتسولين أو المرائين أو الكاذبين، أما إذا لم تستطع فتزوج على ألا تعقب منهن! تمتع بحياتك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولا ترجئ إلى الغد متعة اليوم، واغتنم فرصتك فلن يرتد إليك ما فات من عمرك. حذار من قول الحق، حتى لا يضيق الناس بصحبتك ولا يغضبوا منك من غير وجه. لا تصدق ما يقول أهل العلم والتقوى حتى لا تدخل النار! لا تكن دارك بالقرب من منارة لئلا يقلقك صوت المؤذن! ولا تسخر من الهجائين والماجنين». ومن الواضح أنه لا يريد من هذا الكلام إلا ضده، وقد قال جدًا فى صورة الهزل، ولهذا وقعه فى النفوس وأثره فى تحقيق ما يراد منه.

وله رسالة أخرى طريفة فى بضع ورقات تعرف بالتعريفات، وفيها ينقد أهل عصره بتعريفات مضحكة كقوله: «القاضى من يلعنه الناس طرًا، والمحامى من يجعل الصدق شيئًا لا قيمة له، والسعيد من لا يرى وجه القاضى أبدًا».

فعبيد الزاكانى فضلاً عن كونه شاعرًا هجاء، ناقد اجتماعى من الطراز الأول، وباحث أخلاقى لا غبار عليه.

ولم يفارقه ولعه الشديد بالسخرية والتهكم إلى آخر عهده بالدنيا فمن طريف ما يروى عنه وهو يجود بنفسه على فراش موته، أنه استدعى كلاً من أبنائه على حدة، وقال له إنه خلف كنزًا عظيمًا ثم دله على مكانه، وشرط أن يكون فتحه فى ساعة معينة، ولم يفته أن يوصى من حدثه بأمر الكنز أن يطوى السر عن أخيه. ومات الرجل، فالتقى الأخوة فى المكان المعين والموعد المضروب، وكشفوا الأرض عما يحتويه جوفها، فوجدوا صندوقًا صغيرًا، ولما فتحوه رأوا صحيفة مطوية، وبسطوها فإذا هذا البيت فيها: «إنى لأعلم وأنت تعلم وكفى بالله عليمًا وشاهدًا، بأن عبيد الزاكانى لا يملك فلسًا واحدًا!».

***

أما نفعى فمن أهل القرن السابع عشر الميلادى، ويعتبره مؤرخو الأدب التركى شاعرًا كبيرًا، فقد كان مشرق اللفظ محكم النسج بعيد الخيال، ومدح السلطان مراد الرابع بشعر كثير ومنه قصيدة عصماء ارتجلها فى حضرته فحشا فاه ذهبًا لطربه وفرط إعجابه، كما مدح الوزراء وأصاب صفة كرائم الجياد. غير أن شهرته كانت بالهجاء، فنفعى أهجى شعراء الترك غير منازع، والظاهر أنه فى مدحه كان متصنعًا متريضًا وإن أحسن، وإن المتصفح لديوانه لواقع على عدة أبيات تدل دلالة أكيدة على أن الشاعر فخور معتد بنفسه إلى أبعد الآماد، فهو الذى يقول: «فيض طبعى فى عالم المعانى لمعة الشمس فى الضحى، وإن لفكرى عينًا نيرة حتى كأن عين الشمس سوادها!».

وقد عرف بزهوه وخيلائه، ولنا أن نرد إلى ذلك رغبته الملحة فى السباب والهجاء، فالمتكبر طعان فى أعراض الناس دائم المذمة لهم، وهو يريد إلحاق العيوب بهم ليكون مبرءًا من كل عيب، ويود أن يجعلهم صغارًا ليقر فى نفسه بأنه بالإضافة إليهم أكبر كبير وأعظم عظيم.

وقد جرت عليه كبرياؤه كراهية عارفيه وغير عارفيه، كما اقترن غروره بفظاظة وغلظة طبع وشدة بأس، وظهر أثر ذلك واضحًا فى شعره الغزلى، فهو ملىء بالمبالغات بيّن التكلف والتعسف ميت العاطفة.

وقد ضمن هجوياته مجموعة سماها «سهام القضاء» وهى تموج بالرفث والشتائم، وتحوى كل ما ينسب إلى السفاهة والسلاطة، فلم يسلم أحد من مقذعات هذا الشاعر، حتى أنه هجا أباه مستهلاً بقوله: «ليس هذا لى بأب؛ إنما هو بلاء أسود صب على رأسى صبًا!».

واشتد سخط الناس عليه، حتى أن أديبًا كان معاصرًا له من أصحاب الموسوعات الأدبية المعروفة بكتب التذكرة، لم يذكره إلا فى سطر واحد، فقال إن نفعى من مدينة أرضروم، وشعره ترهات وأكاذيب.

والواقع من الأمر أن هذا الأديب كان حاقدًا عليه، لأنه ثلبه وأذاه بلسانه. وقد قيل فيه بيتان من الشعر، وكان لهما شهرة وذيوع، ومنهما نعلم مبلغ الغضبة التى غضبها عليه الرأى العام فى زمانه، وهما: «هذا الشاعر الهجاء المسمى نفعى، قتله جائز فى المذاهب الأربعة كقتل الأفعى!».

وقد بلغ منصبًا عظيمًا، هو وزارة المالية، إلا أن ذلك لم يثنه عن الشتم، أو يكفه عن أن يهجو زملاءه الوزراء، وإن هذين البيتين ليصوران نفسه أصدق تصوير، وهما: «ليعلم كل من خاصمنى فى فن القول بأن حملتى عليه شر وبلاء، فشعرى رستم، وذلك البطل الرامى عن القوس، وسهام القضاء كنانته».

وكان شديد السخرية من الناس، متظاهرًا فى ذلك بأنه يمزح ويتفكه، والبرهان على ذلك أبيات قالها فيمن يدعى طاهر أفندى، وقصة قصيرة وقعت له مع أحد خصيان القصر. أما الأبيات فهى: «إن طاهر أفندى كلب عندى! والالتفات فى هذا الكلام ظاهر، فأنا على مذهب مالك، والكلب عند المالكية طاهر!».

أما القصة، فهى أن السلطان مراد الرابع أنفذ إليه كتابًا مع خصى أسود، ولما تسلمه ألقى عليه نظرة فاترة ولم يكترث لما جاء فيه، واتفق أن كان الخصى يكتب شيئًا فى ورقة فسقطت عليها نقطة مداد من قلمه، ولم يلتفت الخصى إلى هذا الأمر، حتى رأى الشاعر يتقطع ضحكًا، فقال له فى ذلك، وأجابه الشاعر بقوله: «إن عرق مولانا المبارك قد سقط على الصحيفة!».

وقد اتفق يومًا للسلطان مراد الرابع أن كان ينظر فى «سهام القضاء» فما راعه إلا نزول صاعقة، فتطير السلطان وتوقع الشر من ذلك، واستدعى الشاعر، واستتابه من الهجو، فأغلظ الأيمان على التوبة، وإن غلب عليه طبعه، فقال لمولاه هذا البيت: «على عهد الله لا هجوت أحدًا أبدا، أما إن أذنت لى، هجوت الحظ العاثر دون سواه».

ولكن نفعى وهو الشكس المناطح، لم يكن ليصبر فى التزام السكوت، فسرعان ما نسى العهد ووقع فى الحنث، فهجى الصدر الأعظم بايرام باشا هجاء مقذعًا، ونمى الخبر إلى السلطان فاستشاط غضبًا، وأمر بالشاعر فخنق، وكان ذلك سنة ١٦٣٠م.

ويقال إن السلطان كان ينفس على نفعى شاعريته وإجادته لأنه كان شاعرًا مثله فأوعز إليه أن يهجو الصدر الأعظم، وافترص ذلك للتخلص منه بالقتل.

ولما سيق لضرب عنقه وكان ذلك فى مخزن للأخشاب، قال له الجلاد متهكمًا: (سر بنا يا نفعى إلى الغابة لتبرى من خشبها سهامًا!)، فزجره نفعى بقوله: (اخسأ أيها الفدم الرقيع، أنجز عملك ولا تبسط فىَّ لسانك!).

وأيا ما كان فإن المؤرخين يستنكرون هذا من مراد الرابع، ويعتبرونه وصمة عار وسبة عليه، لأن نفعى كان شاعرًا عذب البيان، وإن كان مر اللسان.



فى قريـــة الغربـــاء

(قصة للكاتب التركى المعاصر يعقوب قدرى، وهو قصاص متفنن ناصع البيان يذهب فى التأليف مذهب الكتاب الفرنسيين، وله اهتمام بالكتابة عن أمته، وولوع بتصوير بيئته، وإذا عالج موضوعًا فهو واقعى بأصدق معانى الكلمة، يتناول كل شىء بالنقد الصريح والتهكم المرير فى غير محاباة ولا مداراة).

كنا نهبط ممرًا جبليًا صخريًا، فارتعدت لذلك قوائم فرسين نمتطيهما. وبدا لنا نبع صاف وشجرات صفصاف فوجدنا مس الحاجة إلى التلبث قليلاً، وطاب لنا أن نطلب الراحة، وفى السفح الذى ننحدر إليه كانت قرية صغيرة قديمة، لا نشاهد من معالمها إلا سود سقوفها، فقلت لصاحبى:

- أهذه قرية الغرباء ؟

وتنبسط أرجاء قرية الغرباء فى واد غير ذى زرع كثير الصخر، وقد خيمت عليها الوحشة واكتنفتها الوحدة، وكنا على عزم اجتيازها لاعتلاء هضبة من ورائها. وترك صاحبى فرسه الذى بلغ منه التعب مبلغه حيث كان، وخطا إلى النبع ليغسل وجهه ويديه، أما أنا فرأيت من الحيطة أن أربط فرسى فى جذع شجرة من شجرات الصفصاف، وإنى لسائقه إلى مربطه، إذ بصاحبى ينهض من انحناءته، ويرفع صوته قائلاً:

- حذاريك يا سيدى، لا تربط فرسك فى هذا المكان فإن تحته لقبرًا.

تلفَّتُّ حولى وأدرت بصرى، فلم تقع عينى على قبر ولا ما يشبه القبر، وإن ظهر لى تحت الشجرة التى أقترب منها كسار أحجار ملونة بالخضرة، وقد تدلَّى قنديل محطم عليها من غصن الشجرة الممتد فوقها، وعلى هذا الغصن مزع من قماش تختلف ألوانه. ووقف صاحبى وأشار إلى المكان بيده وهو يمسح ذراعيه العاريتين بمنديل له ثم قال:

- نعم هاهنا!

وكان صاحبى من أهل هذه الناحية، يعرف أرضها شبرًا شبرًا حق المعرفة، فسألته عن كيفية وجود قبر فى تلك البقعة، ومن عسى أن يكون صاحبًا له، كما أحببت أن أعلم منه علة تحذيره إياى من ربط فرسى فى شجرة على قبر، واقتربت منه ضاحكًا. أما هو فقد رأيت الجد فى وجهه وكأنما تهيأ لإفهامى أمرًا ذا بال، وأخرج من منطقته حقًا كبيرًا يحمل فيه تبغه، ومد يده إلىَّ به مقدمًا ثم قال:

- ألق سمعك يا سيدى، هذا قبر الفتاة المستمعة إلى الصوت وهى لا تحب الغرباء، ولذلك نصحت لك أن تبتعد عنها. لقد شاهدت هذه الفتاة، فلم يمض على موتها غير

أعوام ثلاثة أو أكثر منها بنصف عام، وهى من بنات هذه القرية، ومع كل فقد كانت أروع حسنًا، وأوفر عقلاً، وأغزر علمًا من بنات المدن. فحفظت وحدها عن معلم القرية، وتعلمت عليه بعض الأناشيد الدينية، وكانت مليحة الصوت، فقرأت المولد لنساء القرية فى الأسبوع مرة. وكانت آنئذ بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من سنيها، ولها شعر يبلغ الكعبين طولاً، وعينان تبعثان هزة الدهشة فى كل ناظر إليهما، أما اسمها فأمينة.

وخطبها فتى هو أعظم فتيان القرية جاهًا ومالاً، وأحمدهم سيرة وسجية، وكان ذلك منذ أربعة أعوام أو خمسة، قيل - والعهدة على الراوى - أنهما تحابا فى طفولتهما فطلبا الزواج فى شبابهما، وقامت الحرب فى الأسبوع الذى تمت فيه الخطبة، حرب الرومللى المشئومة، فانخرط الفتى فى سلك الجندية، وكان له عن ذلك محيص لاتساع ثرائه وقدرته على افتداء نفسه بماله، غير أنه لم يرغب، كما أراد به والده أن يذهب، فذهب ذهابًا لا إياب منه، وسمعنا أنه وقع فى أسر اليونان، ثم جاء خبر استشهاده فى قتال الصرب بمكان لست أذكره، وقد غمر هذا الخبر المروع تلك القرية بالأسى، فبكاه رجالها ونساؤها، وكان سواسية فى ذلك طفل لم يبلغ السابعة وشيخ ذرف على السبعين، ولم يكن فى القرية ولا حولها إلا من كان له محبًا، والعجب أن خبر موته لم يسبل لأمينة عينًا بالدموع، ولم يرفع لها صوتًا بالنواح، وكل ما كان منها أنها امتنعت عن الطعام والشراب أيامًا ولم تكلم أحدًا، كما كفت يدها عن كل عمل، وكانت تتجول والحزن الصامت باد عليها، والأمر طبعى عادى إلى هذا الحد لأن. . .

وسكت محدثى وألقى سيجارته من أنبوبتها الغليظة بعد أن أتم تدخينها، ثم عاد إلى حديث أكثر من الجد، وأظهر فى الاهتمام وقال:

وفى يوم من الأيام، تغيرت حال أمينة، فامتقع وجهها فكانت له صفرة الليمون، ولمعت عيناها فكانت لها لمعة النار، ومدت عنقها من آن إلى آن قائلة لمن حولها: «الصمت الصمت!» وقد أصغت إلى صوت لا يسمعه أحد سواها، فسئلت عما تسمع، إلا أنها لم تحر على ذلك جوابًا، ومضت أيام وأمينة تلقى سمعها إلى صوت وهى تلتزم السكوت، ولم يمر طويل زمان حتى تحرك لسانها بما كانت تسمع أذنها فقالت حكاية عنه: «انهضى يا أمينة، إن العدو مغير على بلادنا، انهضى يا أمينة إن العدو محدق بأرضنا».

وذكرت أنها سمعت هذا الصوت للمرة الأولى فى منامها ففتحت عينها وسمعته ثانية، ثم سمعته تكرارًا على طول الأيام وكأنما ينتهى إليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد، ويقول لها: «ما بقاؤك؟» تارة، «وانهضى» تارة أخرى.

وتكشف الغموض عن هذا الكلام فظهر معناه، وعرف أهل القرية نبأ ضياع الروملى، ولم يمر هذا الخبر بسمع أمينة، أو أنه مر بسمعها ولم تفهم مغزاه. وقد خرجت ذات يوم هائمة على وجهها، وقد قطعت القرية من أقصاها إلى أقصاها قائلة: انهضى يا أمينة، إن العدو محدق بأرضنا لقد وضح الطريق، لقد وضح الطريق، كونوا على أتم الأهبة، وليذهب النساء والرجال والشباب جميعًا لملاقاة العدو. الجهاد الجهاد، الجلاد الجلاد!!»، وكان هذا القول جوابًا لمن سألها، من يذهب؟ وإلى أين يذهب.

وارتجت القرية وعمها الإضطراب، وظن أهلها أن أمينة مخبولة يتخبطها الشيطان من المس. فحبست فى دارها وأمسك عليها بابها، إلا أنها لم تكف عن قولها: «دعونى أطلقونى سأذهب بمفردى، ألم تذهب فاطمة؟ إنى إذن لذاهبة، إنما هو واجبى». ثم سكتت فجأة وبرزت عيناها وامتد عنقها كالمصغية لتسمع ذلك الصوت الذى ينتهى إليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد، وكانت تهدأ وتسكن إذا ما أصغت، أما إذا ما شرعت تتحدث فلا سبيل إلى إسكاتها. وقال معلم القرية: «لا يمسها أحدكم، إنها أعقلنا جميعًا، ولقد وصلت إلى مرتبة لن نصل إليها». فتركت على حالها. ومضى على ذلك خمسة أيام أو ستة، فغابت الفتاة عن الأنظار، وذكرت أمها أنها قامت فى منتصف الليل والناس رقود، فخطفت سيفًا لأبيها كان معلقًا بالحائط ثم خرجت، ولا يعلم إن كانت خرجت إلى جبل أو واد. وطلبوها فلم يقفوا لها على أثر، وأصبحت سرًا من الأسرار.

وسكت محدثى وأخرج سيجارة أخرى، ونفث دخانها وهو حزين ثم جعل يقول: وذات صباح، وجدها قروى يدعى جوبان محمد وهى مكبة على حافة النبع، فحركها وأراد حملها، إلا أنه تحقق فعرف أنها ميتة، وقد تمزق ثوبها من أعلاه إلى أسفله، وظهرت الجراح على جسمها، وكأنما كانت عيناها تنظران وشفتاها تبسمان. وانطلق جوبان محمد إلى القرية يخبر الناس بعجيب ما رأى. فتناهضوا يتعادون لمشاهدتها، وقدم الطبيب، ورجال القضاء من القصبة، وقرروا أن تحت ثديها الأيسر أثرًا لطعنة بمدية، أما أهل القرية ومنهم أبوها وأمها ومن جهزها، فأنكروا رؤية شىء من هذا. ثم حملت ودفنت، فكان النور يهبط على قبرها ثلاث ليال تباعًا. واليوم يسميها أهل قريتها بالفتاة التى تستمع الصوت وقد نسوا حقيقة اسمها.

ويزور قبرها الغرباء وغير الغرباء من أهل القرى المجاورة، وأكثر من يزورها شواب النساء والعذارى، أما الخارجون للقتال فلا يفوتهم أن يمروا بها وينذروا لها. رجاء أن يعودوا سالمين موفورين. واليوم وقد مضى على قيام الحرب الأخيرة عامان، أصبح من عادة

النساء اللائى لهن فى الميدان زوج أو خطب، أن يعتلين الهضبة المقابلة لمدفنها عند الغروب، فيقفن عليها وقد اتجهت وجوههن إليها، ويرفعن الصوت بقولهن: «أمن الشهداء أم من الغزاة!» فتجيبهن الفتاة من بعيد الأغوار وسحيق الأبعاد، قائلة لبعضهن شهيد، ولبعضهن الآخر غاز!

وقلت لصاحبى:

- لماذا لا يسألنها عن قرب وينادينها من بعد؟

فقال: لأنها لا تكلم من كان قريبًا.

- إذن فلننادها نحن أيضًا إذا ما اعتلينا الهضبة المقابلة.

- إن كان لك فى ميدان القتال من يمت إليك بصلة القرابة وإلا فعبث ما تصنع.

وركبنا، واجتزنا قرية الغرباء، ولما صعدنا الهضبة، لم أصبر أن أناديها، بدافع من تجسس دنىء يفسد على نساء القرية المعصومات عقيدتهن، فرفعت صوتى وقلت مرتين متتاليتين:

(أيتها الفتاة التى تسمع الصوت، أيتها الفتاة التى تسمع الصوت!).

فردد الصخر صوتى وأعاد إلى ندائى.

* * * *

شاعران ضحاكان

من نظر فى تاريخ أدب الفرس والترك، وجد أسماء للشعراء ما لها عدد، ولا ريب أن لهؤلاء الشعراء حظوظًا من الإجادة متفاوتة، ودرجات بعضها فوق بعض، فمحال أن ينزلهم القارئ من نفسه منزلة واحدة، أو يخطرهم جميعًا على باله، والبين الواضح أنه لا ينفك عن ذكر شاعر إن برز فى فن شعرى خاص، أو تميز بصفات ليست عند غيره، وأن الإجادة وحدها لا تكون على الدوام سببًا فى شهرة الشاعر وسيرورة شعره، فأى عجب فى اشتهار شىء بحسنه كاشتهاره بقبحه؟ ونريد هنا لنقول أن الخروج عن المألوف خروجًا ما، ومخالفة الغير أيًا كانت، مما يجذب انتباهنا إلى بعض الشعراء ويجعلهم منا على ذكر، ونضرب مثلاً شاعرين هما سوزنى الإيرانى، وكاتى التركى، فقد انفرد هذان الشاعران بميل إلى الهزل والدعابة، فكان شعرهما أو معظمه خفيفًا على الأرواح، حبيبًا إلى النفوس، وإن لم يبلغ من الجودة والسمر ما بلغه شعر الفحول من شعراء الفرس والترك.

و«سوزنى» من أهل القرن السادس الهجرى، وقد حيا حياة لهو وتبطل، فتهالك على اللذات، وطلبها أينما ثقفها، ومضى فى غوايته مخلوع العذار، لا يزعه وازع من دين، ولا يهديه هاد من عقل، فلم ير من دنياه إلا وجهها البسام، ولم يعرف عنها إلا بهجتها وزهرتها، مما أغراه بطلب المزيد من متعتها، ففرح كثيرًا وضحك طويلاً لأنه لم يجد ما يبعث حزنًا ويثير بكاء، وكان يغشى سوامر الظرفاء، فيشيع فيها المرح ويعلم الناس من نوادره وأضاحيكه ما يدور على كل لسان وتضحك له الثكالى. ويلوح أن الرجل كان ذا استعداد مزاجى خاص جعله يحس الفكاهة فى كل شىء، فلا يعرف للوقار معنى، ولا يلقى سمعًا إلى من بذل له النصح وأنحى عليه باللائمة، وقد استنكر بعض الناس معايبه ونقائصه، وهاج الهجاء بينه وبين شعراء من أهل زمانه، ولا غرو فقد كان الهجاء وسيلة طيبة لسوزنى يظهر بها فكاهاته، ويهزأ بالناس ما شاء الله أن يهزأ. وتمادى فى استهتاره حتى أصبح ذلك منه قحة تعافها النفس ويمجها الذوق، فلم يستح أن يقول فى شعر له: «لقد ركبت طريق الشيطان فترديت فى حبائله، وأصبحت أخبث منه مكرًا وأكثر شرًا، وما من يوم يمر على إلا قارفت فيه ذنوبًا وارتكبت آثامًا، بلغت بى الحال أن أعتبر الفضيلة رذيلة، والخير شرًا عظيمًا، وكل جارحة لى مذنبة مفسدة، فكأنها منبت طيب لخبيث الشرور، وستشهد علىَّ جوارحى يوم القيامة فالويل لى!».

ومن أسف أننا لم نقف له على هزليات مع شهرتها المستفيضة، فمؤرخو الأدب الفارسى لا يخصونه من عنايتهم إلا بقدر ضئيل، ويرجع ذلك فى أغلب الظن إلى أنه لم

يكن شاعرًا كبيرًا وأن الفحش كان ملء شعره، ويقول أحد الأدباء إن هزلياته لا تخلو من جمال شعرى، إلا أن إغفال ذكرها خير من إيراد نماذج لها، كما يستميح غيره العذر عن طيها تورعًا واستحياء.

ويقال إنه ضاق بحياة المجون فى أخريات أيامه، وهو بذلك لا يخرج عما نعهده عند الماجنين أمثاله، فلا بد لليلة الأنس الطويلة من فجر شاحب لاغب، وللذة العقار من ألم الخمار، وكل غافل إلى انتباه، ولسوف يقرع المسيء سنه يومًا ما ويميز الخير من الشر والهدى من الضلال، وندم سوزنى على ما فات وتاب وحسنت توبته، ثم التفت إلى ماضيه المعيب وذكره بقلب حزين ولسان شاك فقال: «ما هذه الدنيا إلا بلاء وشقاء، لكأنى فيها حباب على كأس، وسراب يلتمع على كدرة فيه!» وفى كلامه هذا دلالة على أن بهجة الحياة لم تمس روحه فى الصميم والأعماق، ولم ترو نفسًا له ما زالت ظمأى، فهو يشكو زمانه ويسخط على سرابه الخادع الكذوب.

وتجمعت له حكمة وخبرة من حياة لهوه السالفة، فيتحدث حديث عاقل تمرس بالأمور وأحاط علمًا بخفاياها، ويعظ الناس ويدعوهم إلى الخير والفضيلة، ويزجرهم عن الشر والرذيلة فيقول: «ليس كالمجانة والغواية معابة ومعرة، فليهنك أن تعيش بلا عيب ولا عار، ارفع الرأس تيهًا بفضائلك، وكن من زمرة الفضلاء، ولتكن مبرءًا من العيوب، وبنجوة عن كل النقائص».

وحج البيت وكفر عن سيئات عمر طويل، ويقال إن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لبيتين قالهما باسطًا أكف الضراعة إلى ربه، وملتمسًا منه رحمته وغفرانه، وهما: «إنى لأرجع إليك يا رب وفى جعبتى ما ليس فى خزائنك! فلى افتقارى وحاجتى وما اجترحته من خطاياى وسيئاتى!».

* * *

أما «كانى» فهو عند الترك كسوزنى عند الفرس متميز بفكاهته وشعره الهزلى، وقد بدأ حياته درويشًا مولويًا بإحدى مدن الأناضول حيث عرف بالعلم والفضل، واشتهر بالزهادة والورع، وكان من صنع الله أن مر ببلدته على باشا الصدر الأعظم، فتقدم إليه كانى بقصيدة جيدة يمدحه بها، واستمع الباشا إلى المديح فاهتز له طربًا ووقع من نفسه موقع الإعجاب، فعرض على الشاعر أن يصحبه إلى استانبول، ورحل كانى عن مدينته الصغيرة الهادئة، إلى تلك المدينة العظيمة الصاخبة، فبهرته الحضارة بروائها، ورأى ما لم يمر له بخيال وهو فى الأناضول يعيش عيش البسطاء منطلقًا على سجيته من غير ما قيود يتقيد

بها، ولا حدود يلزمها ولايتخطاها، ورأى ثوبه الخشن وعمامته الصغيرة، بين الثياب المزركشة والعمائم المكورة الكبيرة، فحز ذلك فى نفسه، وأحس بالسخط على حياته الجديدة البراقة وأهلها المتكلفين المنافقين. وجعله الصدر الأعظم كاتبًا من كتاب الديوان، وكان الشاعر ملولاً بطبعه قليل الثبات على حال من الأحوال، وأراد أن ينطلق من قيد وظيفته، ووجد الفرصة المواتية يوم استعفى الصدر الأعظم من منصبه الكبير، فاستعفى معه الكاتب من منصبه الصغير.

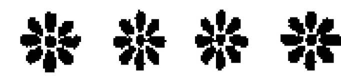
وزينت له نفسه أن يزايل استانبول إلى بلد آخر، فشد رحاله إلى بوخارست وهناك أصبح كاتم السر التركى لمن يدعى الأمير اسكندر. ولم يدم كانى فى هذا المنصب، وكأنما كان السكون محرمًا عليه بغيضًا إليه، فما سمع بأن يكَن محمد باشا أصبح صدرًا أعظم وأنه يدعوه إليه حتى انطلق راجعًا إلى استانبول، وكان كانى من أصفياء الصدر الأعظم وأهل أنسه منذ عهد بعيد، فكلمه متبسطًا معه، وفاه بما أغضبه وهيج سخطه عليه، حتى أمر بقتله، ولم يعف عنه إلا بعد أن شفع له رئيس الكتاب، فاستبدل بالقتل النفى إلى إحدى الجزر.

وأقلعت به السفينة إلى منفاه، بعد أن صرعه لسانه، فكان ضحية الهزل وإساءة الأدب فى حضرة الوزراء والرؤساء، وساءت حاله كثيرًا فى جزيرته فخلت وفاضه ولم يجد معه من المال ما يبتاع به تبغًا يدخنه، وحرم من نارجيلته، فكان إذا رأى خرطومها الذى يشبه الأفعى، تأذت نفسه وثار غضبه وتصور الخيال حقيقة فظن خرطوم النارجيلة حية تسعى! ولا نعرف عن حياته أكثر من هذا لأن المؤرخين سكتوا عند هذا الحد بعد أن قالوا أنه تاب عن حياة الهزل وعاد إلى حياة الجد والزهد. وكان الرجل مزّاحًا جُبِل على المزاح حتى قيل أنه أحك عواده وهم ملتفون حول فراش موته بقوله: «لست متسولاً أسأل الفاتحة، فإذا مت فلا تكتبوا على قبرى إنى أسأل الزائر أن يقرأ لى الفاتحة، أسوة بغيرى من أصحاب القبور».

وكان يدخل الفكاهة على كل شىء يراه وكل عمل يصنعه بالغًا ما بلغ من الجد والوقار، حتى أن بعض الناس كانوا يكتبون أبياتًا من الشعر ويذهبون بها إليه ليتمها قصيدة هزلية يضحك لها كل من سمعها، ولم يكن شاعرًا مجيدًا، فلم يعن بانتقاء ألفاظه وترتيب معانيه، فجاء الكثير منها مظلمًا مبهمًا، كما أنه لم يتجاف عن عيوب القافية. يقول كانى واصفًا بدر السماء: «هو ذا البدر فى قبة السماء، فكأن شحاذًا يمد يده بالوعاء، إلا أن الفلك خسيس دنىء، فهل يمد الدرويش يده بالسؤال إن كان له إباء وكبرياء؟».

وقد شبه البدر بشحاذ يمد وعاءه الفارغ إلى أهل الجود والكرم، فكأنه لم يستثن حتى الكواكب فى سماواتها من سخريته اللاذعة وتهكمه المر، وقال فى نؤوم: (هذا النائم لا يستيقظ وإن قرعت الطبول عند رأسه، يا له من جهول لا يعلم أن عينه النائمة ستبكى دمًا على الكسل غدًا، أنت تنام كالحمار الكسلان مع أن نفسك نفس إنسان. . . اذهب إلى الحقل، تر الثور يرعى وهو واقف يقظان!» وكان كانى كاتبًا جيد العبارة حسن الترسل، والإجماع منعقد على أن نثره خير من شعره، وقد أجاد كثيرًا فى فن خاص هو فن كتابة الرسائل، وله رسائل هزلية كثيرة تتجلى فيها روحه المرحة، ومنها رسالة يهدى فيها السلام بقوله: «سلامى إلى كل من عندكم من دلال وحمال وبقال، وفلاح وملاح، ونمام وذمام، ومفسد وملحد، ورمال ونجام وحجام، وسمسار وحمّار، وسؤالى عنكم جميعًا!» فهو يخلق الفكاهة خلقًا، ويتعمد الإضحاك تعمدًا، وإن ذلك لآية من آيات الفطنة، ولا نجده عند سوزنى الذى إنما كان يشعر بالفكاهة شعورًا كما يؤخذ من سيرته.

ومات كانى سنة ١٧٩٢ بعد أن عمر طويلاً، ولا يعرف قبره، فكأن الزمان عمل بوصاته فلم يقف على قبره من يقرأ له الفاتحة!.



حمّالة الحطب

من بنات الفرس لا من بنات العرب، وكانت معدمة من أهل البؤس، لا مترفة من أهل اليسار والنعمة، ولم تحرك لسانًا ولا يدًا بإذاية الرسول صلوات الله عليه. ولكنها هوت بخنجرها على قلب مولاها ملك الملوك فانهار صريعًا. ولئن نظرنا إلى حمالة الحطب العربية كمثال لامرأة السوء، فهذه الفارسية هى الشيطان المريد فى صورة المرأة الحسناء، وإنا لنذكر بظاهرها الجميل وباطنها القبيح حية بين زهر أو جيفة تحت قبر.

فيروى أن الشاه إسماعيل ميرزا الصفوى خرج يومًا متصيدًا أو متفرجًا إلى ظاهر مدينة أصفهان فى رفقة من الأتباع والندماء، وانطلقت المطايا بمن عليها تطوى المروج المخضوضرة، وتتخذ لها سبيلاً فى الخمائل، فتعنف بأغصان كانت متعانقة تتناجى بهمس النسيم، وتبعث الجلبة بوقع حوافرها على الحصباء فى مكان لا عهد له إلا بحفيف جناح أو عذب نواح، حتى بلغ الركب ضفة نهر زندرود. وهناك طرقت مسامع الشاه نغمات حزينة تنبعث من حيث لا يعلم مأتاها، فتوقف يستمع وطال منه التوقف، ووجد لوقعها فى نفسه هزة طرب ونشوة حالمة ملكت عليه قلبه. وما سكت الصوت حتى أحس الرغبة فى استعادته وطلب المزيد منه، كما قام فى نفسه أن يتساءل عن صاحبه ويتنسم أخباره، فأنفذ أحد ندمائه إلى مصدر الصوت، وما سار النديم مسيرًا بعيدًا حتى رأى كوخًا متضائلاً غيره البلى، لا يكاد يتماسك بين أصول شجرات السرو، وقد انتثرت حوله كومات حطب تجلس على إحداها فتاة كأحسن الناس شبابًا وجمالاً فى ثياب أخلاق، وبين ذراعيها البضتين قيثارة تصلحها وتشد أوتارها. ولم تنب عين النديم عن الفتاة لهيئتها الزرية ومظاهر الشظف البادية عليها، بعد أن شاهد لها جمال زهرة أنبتها القطر بين الصخر فى واد سحيق. وسألها عن حالها فعرف أن اسمها (منور) وأنها تسكن هذا الكوخ مع أمها العجوز وتستقطر الرزق النزر اليسير من حطب تجمعه، وتقضى عامة نهارها بين حطبها وغزلها حتى إذا ما أدركها بعض الليل نقلت خطاها إلى المدينة فبلغتها بعد جهد، وقصدت دار من يدعى مراد خان وهو موسيقى له حذق وشهرة، فجلست إليه لتأخذ عنه كيف تضرب بالقيثارة، ثم تعود أدراجها، وتنقلب إلى أمها وهى فرحة مستبشرة بما تعلمت. واكتفى النديم بذلك من شأنها وتركها بعد أن ألقى عليها نظرة من يرأف بها ويعجب بجمالها.

وعاد إلى الشاه بحقيقة الخبر عنها، وكان الشاه إسماعيل صاحب لهو وشراب وزير نساء، فما وصفت له بالحسن حتى تحركت رغبته فيها. وحن حنينه إليها، ومضى توًا

لرؤيتها رجاء أن يميز بين السماع والعيان، فراقه منها جمال ساذج عاطل من كل زينة، وأدركته الرقة عليه من فاقة قد تذبل نضرته، كما تصوره أكثر إشراقًا وآخذ بالعين والقلب إن تعهدته يد فى القصر بالتطرية، وألبسته شفوف الحرير، وحلته من أساور وعقود، وعرض على الفتاة أن يلحقها بحريمه فتنعم بالطيبات وتتبدل من حياة الكوخ بحياة القصور، غير أن لسانها انعقد رغبة ورهبة، وأسكتها الصمت عن لا ونعم، أما أمها فتكلمت كلامًا لينًا وشكت غربتها ووحدتها، إن فارقتها من تؤنسها وتعولها.

وركب الشاه وقد خلفت الفتاة بين جوانحه ما خلفت، ومضت عليه الأيام لا ينساها، فلم يستطع عن منور صبرًا، وكره أن يعلم الناس بما بينه وبين فتاة تحمل الحطب مع ما فى قصره من نساء فى طلعة الصبح، فكان يخرج مستخفيًا تحت جنح الليل ليلتقى بها وينعم بساعة وصل معها فى غفلة من العيون، ناسيًا أو متناسيًا فى نشوة الحب ما يفرق بين سوقة وملوك.

ورأت نساء القصر خروجًا للشاه من عادته بمغادرته القصر خفية كل ليلة، وساقهن الفضول فذهبن مذاهب شتى فى تعليله وتكييفه، وكأن غريزتهن النسوية كانت تملى عليهن أن أمرًا يدبر ليصرف قلب الشاه عنهن، فرصدن له من يتبعه ويأتى بخبره. وبرح الخفاء وفشا السر، وساء ذلك زوجته الأولى وجرح كبرياءها، كما علم إسماعيل ميرزا بافتضاح أمره، وكان الظن به أن يطيب خاطر زوجته ويعتبها، غير أنه احتدم غضبًا، ورغب عنها وقطع ما بينه وبينها وحمل إلى القصر منور، وأحلها محل زوجته البائن.

وذاقت منور من النعيم ألوانًا، بعد أن كانت فى أحط الدركات، فسمت إلى أعلى الدرجات. وازداد الشاه بها كلفًا على المدى، فكان يرغب إليها أن تنادمه على شرابه وتسمعه من ألحان قيثارتها ما يرقق قلبه ويجرى على الخدين دمعه، ذلك القلب الذى ما كان يرق حتى يرق الصخر. وذاك الدمع الذى ما سال يوم كريهة وبأس. فذل إسماعيل بعد عز، كما عزت منور بعد ذل.

وعاش الزوجان المتحابان ردحًا من الزمن فى صفاء لا تشوبه كدرة، ووصال لا تقطعه فرقة، ثم كان لطول الألفة ملالة ظاهرة، وسرعان ما تولت السكرة وجاءت العبرة، فأصبح الغرام المشبوب المدموع ذكرى، ولليالى الكوخ قصة يتفكه بسردها، أما التفريط فى جانب الزوجة الأولى فكان حسرة دائمة وألمًا كمينًا.

وهاج الشر بين منور ونساء القصر فنظرن إليها نظرتهن إلى متهجم عليهن ليستأثر بالمنزلة دونهن، فكدن لها كيدًا، أما هى فبادلتهن كراهية بأشد منها، ومما أثار أحقادها، شعورها

بضعة حسبها وهوان شأنها فى الأمس القريب، وعلمها بأنهن جميعًا يستحقرن حمالة الحطب وإن أصبحت ملكة على إيران، فكادت تنشق كمدًا وغيظًا، وجعل السخط يأكل قلبها، فسخطت على الناس طرًا كأنهم يطلبونها بثأر، وكرهت حتى الحظ السعيد الذى رفعها من كوخها إلى أبراج قصرها، وامتلأت نفسها شرًا وخبثًا، وفسدت طويتها ولم تخلص لشيء نيتها. وذكرت ماضيها، ودعت لأيامه بالسقيا على ما كان فيها من جهد الفاقة ومرارة الحرمان، وأثار حفيظتها أن يسلو زوجها الشاه عنها بعض السلو وهو من كان يحبها حبًا جمًا، فلم تتحبب إليه ونشزت منه، وجر ذلك حتمًا إلى وقوع الوحشة والجفوة بينهما.

وحدثتها النفس بالفرار من القصر، غير أنها رأت ذلك أمرًا دونه صعاب وأهوال، واستيأست من العيش، فخطر لها أن تأكل السم، وفكرت مليًا، إلا أنها ضنَّت بنفسها على أن تكون ضحية من يمقتها ويشمت بها، ثم زين لها الشيطان أن تثأر بيدها، فتريق دماء من أراق دموعها، واتصفت بجور المظلوم إذا أظفره الله بمن كان له من الظالمين، فقر عزمها على قتل الشاه إسماعيل، ولم تهب الأقدام على مثل هذا الأمر العظيم، فتحينت الفرصة، وأعملت الدهاء والحيلة، واتفق للشاه إسماعيل أن كان حزينًا ذات يوم لأمر نقمه من بعض الأمراء حتى أمر بتضريب أعناقهم، فخرج إلى حديقة القصر يذرع طرقاتها بين الأشجار جيئة وذهوبًا وهو كظيم لا يدرى شيئًا مما حوله، وأظله الليل وهو يسير واجمًا شارد الفؤاد، ولاح القمر فى الأفق وغمر الحديقة نورًا، وحانت من الشاه نظرة إلى كوة من كوى القصر فرأى خلفها وجه امرأة تديم إليه النظر، وتحقق مما رأى فعرف منور بعينيها النجلاوين وشعرها المصفف، ولثامها الرقيق، وناداها فهبطت إليه، وشكا إليها ما يحزنه ملتمسًا منها أن تنفس عنه كربته، وكان الرجل سليم الطوية فيما يقول، ولم يدر يومًا بباله أن تبيت منور له الغدر أو تقصده بالسوء، فهو من أسبغ عليها من فضله وكرمه وحبه، واستوجب حفظها لجميله وشكرها لنعمته.

ورأت منور فرصة مواتية، يعز عليها أن تفلت من بين يديها، فاقترحت عليه أن تساقيه كأسًا تجلو عنه همه، وتسمعه لحنًا يميل أعطافه طربًا، وأخذا سمتهما إلى مجلس الشراب، وجلست منور مجلس النديم إلا أنها كانت بادية الحيرة مختلجة الأعضاء، فلم تصب من كأسها إلا كحسوة الطير، أما أناملها فمست الأوتار مسًا رفيقًا تارة وعنيفًا تارة أخرى، وكان اضطراب ألحانها كاضطراب نفسها، وشرب إسماعيل ميرزا فصرعته سورة الصهباء، وما شاهدت منور ذلك منه حتى استلت من طيات ثوبها خنجرًا فضيًا رشقت به قلبًا يا طالما

أحبها وخفق لها. وجمدت فى مجلسها تتملى حمرة الدماء وهى تنفجر من صدر ملك الملوك. ولما مضى الليل إلا أقله، قامت فى خفية وآوت إلى مضجعها.

وتبين حراس القصر أن الشاه إسماعيل لم يغادر مجلسه فى موعد جرت عادته بأن يغادره فيه، فأوجسوا خيفة ورابهم الأمر، ودخلوا عليه مستطلعين فوجدوه قتيلاً، وكان ذلك فى عام ١٥٧٦، ونمى الخبر إلى أهل القصر وأهل البلاد، فعم الأسى وتضاربت الأقوال فى مقتله من غير أن يعلم قاتله، ورفعت نساء القصر صوتهن بالواعية عليه، وكانت منور أكثرهن نواحًا، وأشدهن حزنًا وأغزرهن دمعًا!

قيل، وكانت إحدى الجوارى قد أبصرتها مع الشاه فى الحديقة ليلة مقتله، إلا أنها طوت ذلك ولم تذكره مخافة أن ينالها من بأسها ما نال مولاها، فتصنع بها ما تصنع النار بالحطب.

وذهب دم القتيل العظيم جبارًا، فقوبل أجمل إحسان بأقبح إساءة، وتلك شيمة لخضراء الدمن.



عصر الزهر

هى ذى استانبول القرن الثامن عشر، وقد استوفت كل روعة وجلال على عهد أحمد الثالث، ذلك السلطان الهادئ النفس اللين العريكة، الذى كان محبًا للوئام والسلام، كارهًا للعنف والخصام، فتأثم من أن يسوق رعيته إلى حيث تكتب له بالدماء صحيفة مجد. وآثر أن تسعد أيامه وأيامها ببال رخى، وهناءة لا يرنق صفوها شؤم الحرب وسوء مغبتها، وصرف همته فى حياته الآمنة المستقرة إلى بنيان يرفعه، وعلم يناصر أهله، وصاحب حاجة يغدق عليه من نعمه السوابغ، فعم الخصب والرخاء ودار بالسعد الفلك.

وكان أحمد الثالث مشغوفًا بالترف والبذخ، شديد الحرص على أن ينال أوفى نصيب من لذاذة النعيم وطيبات الدنيا، فبذل المال الجزيل فى سبيل متعته، ودعا الوزراء والعظماء إلى مآدبه، كما كان من تواضعه أن يقبل الدعوة إلى مآدبهم، وابتنى قصرًا بمكان يقال له سعد اباد لينعم فيه بطيب أنسام البحر صيفًا، وبسط المتنزهات حوله فأمها الناس متروحين متفرجين، وكان مرهف الشعور بالجمال، يتبعه أينما كان، ويتملاه فى الوجوه الصباح، والألحان الشجية، والأشعار الرائقة، وكأنما أحب أهل استانبول أن يؤيدوا قول من قال إن الناس على دين ملوكهم، فاستنوا بسنته فى طلب البهجة والتهالك على نشوة اللذات وتبارى أهل الميسرة منهم فى لبس الناعم وأكل الطيب وركوب الفاره، وعمرت مجالس الأنس وطاب فيها السماع على الشراب، حتى أصبحت استانبول عروس المدائن وزينة الدنيا بالقباب العالية والرياض الباسمة والنعيم الذى يكاد ينطق فى جنباتها، وصدق عليها قول بعض شعراء هذا العصر فى وصفها: «تلك هى استانبول التى لم يخلق مثلها فى البلاد حسنًا وطيبًا، وإن الحجر فيها ليفديه ملك العجم بما وسع! يا لها جوهرة نفيسة بين بحرين، وإذا ما شئت لها وزنًا فلن يعادلها فى الميزان إلا شمس الضحى، كل أرض خضراء فيها روضة ذات بهجة، وكل ركن من أركانها مجلس أنس وصفاء، وأظلم الظلم أن تؤثر عليها الدنيا بأسرها، ولست موفقًا إذا ما شبهت رياضها برياض الجنان».

وكان على رأس هؤلاء المترفين، إبراهيم باشا الصدر الأعظم ختن السلطان، ومصطفى باشا القبطان، فقد كانت لهما حاشية من الشعراء وأهل الأدب، يقبلون بالمدائح ليعودوا بسنى الصلات، وإن الحديث ليطول فى ذكر ما كان من سرفهما وكرمهما. أما النساء فابتكرن من الأزياء ما رق نسجًا وطاب لونًا، فجررن الذيول ومسن فى الشفوف وكلفن بعولتهن ما لا يطيقون من نفقة، وقد استلزم إسراف السلطان والعظماء أن يضطر الصدر الأعظم إلى فرض جديد من الضرائب، فأرهق ذلك الفقراء وأحزنهم، وإن كان أبهج

الأغنياء وأسعدهم، واتخذ أهل الضياع أتباعًا من يهود وكلوا إليهم أمر ضياعهم، وتدبير أموالهم، فظهر لليهود فى هذا الزمان شأن ومقدرة، وانتشر صيتهم ككاتبين وحاسبين ومتجرين. وقد سجل رسام فرنسى مظاهر النعمة فى هذا العصر، فرسم نحوًا من مائة وثلاثين صورة للسلطان فى قصوره والوزراء فى مجالسهم والأثرياء فى ولائمهم، فما نطقت إلا بالحق ريشته. ويلحظ أن الترك أخذوا بشىء من حضارة الغرب فقلدوا الفرنسيين فى محافلهم وتأثروا خطاهم فى المعروف من عاداتهم.

غير أن أظهر ما تميز به المترفون فى هذا العصر، هو إعجابهم بضرب من الزنبق يسمونه «لاله»(١) فافتنوا فى غرس شجيراته، وولدَّ أهلُ الخِبْرةِ بزراعته ألفَ نوعٍ منه، وتأنقوا فى تسمية زهراته على اختلاف شكولها وألوانها. فمنها ما كان يسمى تاج القيصر، ومنها ما عرف باللؤلؤ الأزرق، كما قيل لبعضها حمراء الخد والكأس الذهبية. وتباهى الوجهاء باقتناء المختلف من أنواع هذا الزهر والعجيب من ألوانه وكاثر بعضهم بعضًا، وجعلوا له حدائق خاصة بغرسه، وراجت تجارته رواجًا لا يعهد فى شىء سواه، وغالى التجار أعظم المغالاة فى رفع ثمن النادر من أنواعه، حتى تدارك الأمر إبراهيم باشا الصدر الأعظم الذى كان فى طليعة هواة زهر اللاله، وحدد للتجار أسعارًا لا يتجاوزونها، وجعل عليهم رقيبًا يقال له الشيخ محمد لاله زارى، وأباح له أن يستصدر الأمر بنفى التاجر إن استزاد.

وأصبحت المدينة روضةً فيحاء لهذا الزهر، فكانت تُصفِّقُ أُصُصُه على النوافذ، وترف ألوانه فى مغارسه على جانب الطريق، وما كان يحل موسمه حتى يركب الناس البحر زرافات زرافات لمشاهدته بحدائق السلطان فى سعد اباد فيمرحون ويقصفون. وهناك تتم فرحتهم بمشاهدة الجياد وهى تستبق فى حلباتها، والرماة وهم يرمون بالنشاب، كما كانوا يضحكون للدببة الراقصة والكلاب المتهارشة.

وقد عرف عصر السلطان أحمد - أو صدر منه - فى التاريخ التركى بعصر زهر اللاله، لأن هذا الزهر كان أكثر ما يشغل الناس ويملك عليهم إعجابهم. وإن الزهر لخير رمز لهذا العصر المليء بالمفاتن والمحاسن.

وفى عام ١٧٣٠م شق الانكشارية عصا الطاعة ورفعوا راية العصيان فاقتحموا على مصطفى باشا القبطان حديقته التى كان يشاهد أزهارها، فخنقوه مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وقسروا أحمد الثالث على التنازل عن عرشه بعد أن ملك سبعًا وعشرين سنة.

---

(١) لاله فى الفارسية هو اسم الزهرة المعروفة بـــ Tulip فى الإنجليزية.

ولئن سبق الذبول إلى عصر الزهر قبل الأوان، لقد نقشت ذكراه على صفحات القلوب، وجرى ذكره على كل لسان، وكتب له الخلود بفضل الشاعر التركى أحمد نديم الذى خلده فى شعر يَعْتَزُّ به الترك ويعتبرونه من روائع أدبهم القديم. وكان هذا الشاعر فى أول أمره من هيئة العلماء. واشتغل بالقضاء فقضى بين الناس بالعدل. ثم عرف إبراهيم باشا فضله ومنزلته، فاصطفاه خازنًا لكتبه، وأدنى مجلسه لظرفه وأدبه وطلاوة حديثه، ويبدو أنه لم يدم على صفات أهل التقوى والكف عن المحارم، فنادم الصدر الأعظم، وإن هذا التحول فى سيرته ليفسر لنا ما نرى فى شعره من جرأة عجيبة وصراحة سافرة، فقد كان يطرق من المعانى ما يتعفف عنه الشعراء فى زمانه. ويذكر الحقائق عارية ما أن يواريها. وفى هذا ما يرضى الفن والتاريخ، وإن كان لا يرضى المحفظين والمتورعين، ولذلك عرف نديم بأنه أصدق شعراء الترك لهجة، وأبعدهم عن التعسف والتكلف، حتى قيل إن شعره يبدو غريبًا عن زمانه المتقدم، ويصلح أن يكون لشاعر متأخر، فهو يخلو من النزعة الصوفية، وهذا خروج عن المألوف فى شعر العصر، ولا أثر فيه لتحديد المعانى، فنديم يقول فى كل معنى يطيب له أن يقول فيه، وحديثه عما يقع تحت حسه أكثر من حديثه عما يجول فى خياله، فهو واقعى بكل ما تتسع له الكلمة من معنى، وبذلك صور بيئته فأحسن تصويرها.

ومن قوله فى تعبير ساذج عما يكابد من لوعة الأشواق: «عودى إلى نجدد عهدنا الخالى! تعالى، إن لى من حاجبيك هلال عيد. فلنقض معًا يوم عيد. ولأجعل منك شمسًا للضحى بكأس من عقار. تعالى، إن لى من حاجبيك هلال عيد فلنقض معًا يوم عيد. أما كفى ما قد جرى، لقد أبكيت قلبًا مستهامًا مدنفًا، ومن خيالك أشكو زفراتى وحرقاتى، اسعدينى يومًا بأن تراك عينى، تعالى، إن لى من حاجبيك هلال عيد، فلنقض معًا يوم عيد».

فالرقة والعذوبة طابع لهذا الشعر الذى لا يصدر إلا عن نفس مشرقة ولا ينعكس إلا عن طبع أصيل. وقال نديم من أغنية له يدعو صاحبته إلى أن تزور معه سعد اباد، فذكر الأماكن والطريق إليها، فى إطار بهيج يشهد له بأنه شاعر الفرح والمرح، والمصور الفنان الذى يوزع الألوان بحذق ودراية على صورته الجميلة، لتكون أقرب شىء إلى الطبيعة: «تعالى، وليفرح هذا القلب الذى ما عرف الفرح، تعالى، يا سروة تتهادى، سيرى معى إلى سعد اباد. فها هى ذى القوارب بمجاديفها الكثيرة على أهبة حملنا، لنضحك ونمرح، ولننل نصيبنا من هذه الدنيا، لنشرب ماء تسنيم من عين تَفَجَّرَتْ لنا، ولنشاهد ماء الحياة

يمجه التنين. تعالى يا سروة تتهادى، سيرى معى إلى سعد اباد. وإذا ما وصلنا إلى حافة الحوض سرنا الهوينى، وإذا ما قربنا من قصر الجنان رفعنا إليه البصر بالإعجاب والعجب، لنتغنى بأغنية من الأغانى، أو نترنم بشعر فى الغزل، تعالى يا سروة تتهادى، سيرى معى إلى سعد اباد، استأذنى أمك فى الخروج، وقولى إنك خارجة لأداء صلاة الجمعة! وسننتهز غفلة الدهر عنا يا حبيبتى، وإنه دهر خؤون. سنمضى فى طريق أظلها السكون، لن يكون معنا ثالث فطيبى نفسًا وقرى عينًا، تعالى يا سروة تتهادى، سيرى معى إلى سعد اباد».

فهل بعد هذا دقة فى التصوير، وصدق فى العاطفة، لقد وصف نديم سعد اباد فلم يستثن منها نافورتها التى لها هيئة التنين ولا مياهها الجارية فى أحواضها، وذكر ركوب البحر إليها لرؤية قصورها والسير فى رياضها. فكان حقًا شاعرًا ومصورًا وراوية حديثه الصدق.

ولنديم شعر يحب فيه الدنيا حبًا شديدًا ويتهالك على لذاتها تهالكًا عجيبًا فيقول: «بنا إلى البستان يا فتنة الخريف وسروة المروج، فالوقت وقت بهجتنا ونزهتنا. هو ذا البلبل يناديك فإن له من ثغرك وردة يهواها، بنا إلى البستان. ما أطيب أن ننسى لحظات عابرات نسعد فيها قبل أن يأتى الشتاء، فتذبل البساتين. ولتكن كأس الصهباء فى يدك عوضًا من زنبقة حمراء ما أشبه هذه الدنيا بجنة المأوى، فما أكثر الثمار التى تقدم إلينا! أتحرميننى ثمرات حسنك الفتان، وتضنين حتى بقبلة لا تراها العيون! تعالى يا حبيبتى يا فتنة الخريف».

ولما قتل الصدر الأعظم، كبس الانكشارية دار نديمه وشاعره، وشددوا الحصار، فانطلق هاربًا وأراد أن يثب من سطح داره إلى سطح الدار المجاورة فسقط قتيلاً بين الدارين، فكان بيده لا بيد عمرو، وكف البلبل عن تغريده بعد أن ذهب الربيع وذبل الزهر.

* * * *

روح حيْرى

«ألقوا أسماعكم! لقد نفخ الروس فى الصور، وألقوا بالكم! فإن للطبول دويًا يصم الأسماع، وارفعوا الصوت بالنواح والعويل، فقد رفع المتحاربون الصوت بالتكبير والتهليل، ولتَتَحطَّم هذه القيود، فإن الموت يأتى الأسود، ها هو ذا جيش لو رأيتموه ورأيتم النجوم، لتحيرتم، أإليه تنسبون الكثرة أم إليها. يا أسدًا كالحمار أو يا حمارًا له هيئة الأسود، إن الدب لا يعلم أيهما أفل فى الظفر معه بنصيب الأسد الحمار أم الأسد! هيهات هيهات، لن تتحقق الوعود الكاذبة، إنما نحن مسوقون إلى أبواب الجحيم. أنا من نصحت لكم، فلم تستمعوا من نصحى، أنا من وعظتكم فهزأتم بى وجعلتم كلماتى دبر آذانكم. لقد بدا الدب من وراء الجبل، ورآه حبيبى فحن حنينه وذاب شوقًا إليه. ثم مضى ليلقى بنفسه بين ذراعيه، فكان اللقاء لقاء حبيبين، ويلاه لقد أصبح الشرق من نصيب الدب، والغرب من نصيب الأسد!».

هـذا بعـض من قصـيدة للشاعر الإيرانى محمد الباقر، وقد نظمها عام ١٨٨٢ أثناء مقامـه ببـلاد الإنجلـيز فسماهـا (الشميسة اللندنيـة)، وهى طويلة مفرطة الطول، يتجاوز عـدد أبياتها الثلاثمائـة والستين، وإذا ما قطعنا النظر عن قيمتها الفنية، ألفيناها وثيقة تاريخية على جانب من الأهمية، فقد صور صاحبها حال إيران فى عهد الشاه ناصر الدين. وبين كيف تسلط الأجانب عليها تسلطًا تتأذى به نفس الحر، ولا يرتضيه من عمر قلبه بحب وطنه.

وفى هذه القصيدة سخرية لاذعة وتهكم مرير، ثم هجاء لمن يستحق الهجاء. وإذا اتصفت ببعض الجودة، فقد كانت من صاحبها بيضة الديك كما يقولون، وما ذاك إلا لأن محمدًا الباقر لم يكن شاعرًا مجيدًا ولا معدودًا من أولئك الشعراء الذين يصدرون عن طبع مداد ويستوحون ملكة ملهمة، غير أن ما يلفتنا إليه ويبعثنا على التحدث عنه، هو شخصية غريبة وعقيدة حيرى، وغرام فيه الأعاجيب، وأحوال تقلبت به فجعلت من حياته أشبه شىء بحديث عبقر، أو قصة من نسج الخيال.

فقد كان محمد الباقر فى أول أمره طالب علم يداوم النظر فى مسائل الدين. ويردد الفكر فى الملل والنحل، فيعرف باستقامة المنطق وثبات العقيدة والوقوف عند الحدود، ويجعل على نفسه أن يأخذ المعنى من ظاهر اللفظ، فيحرم تأويل آيات الذكر الحكيم كراهة أن يجور به ذلك عن قصد المحجة فيضل مع الضالين. وشاء الله أن يجمعه بالسيد جمال الدين الأفغانى، فتكون بينهما ألفة وصحبة، واتفاق على جمع المسلمين ولم شعثهم فيما

يسمى باتحاد الإسلام، وأصبح لمحمد الباقر شأن وعلو منزلة، فبصَّر الناس بأمور دينهم، وتصدى لوعظهم وإرشادهم، وتنقل فى إيران من بلد إلى بلد، ترمقه العيون وتهوى إليه الأفئدة. واتفق أن كان فى أحد المساجد مع السيد جمال الدين الأفغانى فصعد المنبر بعد الفراغ من الصلاة وقال: «أيها الناس؛ إن كنتم فى ريب مما أقول، فأنا أقسم بجد السيد جمال الدين على أنى إمامكم الغائب، ولكم علىَّ أن أظهر الكرامات وآتيكم بالمعجزات لتطمئن قلوبكم!».

وما سمع الناس ذلك منه حتى علت صيحتهم بأشد الغضب، فاضطرب بعضهم فى بعض. وقاموا لينكسوه عن المنبر، ويقتلوه شر قتلة على ما كان فى رأيهم كفرًا وإلحادًا. ولم يصدهم عن غايتهم إلا السيد جمال الدين الذى حال بينهم وبينه، وطلب أن يخلوا سبيله ويكلوا إليه أمر قتله، متظاهرًا بأنه سيقتله من غده بظاهر المدينة. فتمت الحيلة ونجا محمد الباقر من فتكة الغاضبين عليه.

وعرف أنه جاء شيئًا فريًا فلم يأمن على نفسه، واضطرب فى مناكب الأرض. واستقرت به النوى فى انجلترا. وهناك اشتغل بتدريس الفارسية، وكان مدعاة لفخره أن يتخرج عليه المستشرق الكبير إدوارد براون، وعرف فتاة من بنات الإنجليز، كانت بارعة الحسن فشغفته حبًا، وكان للحب سلطانه وغايته التى لا ينفك عن السعى إليها، ألا وهى الزواج، فتم الاتفاق عليه، ولكن بشرط أن يخرج عن مجرى العادة ولا يخطر بالبال، فقد أرادت به صاحبته الإنجليزية أن يرتد عن دينه. ويستبدل باسمه الإيرانى اسمًا إنجليزيًا. ويلوح أن ما وقع لمحمد الباقر فى إيران من أمر كاد يهلكه، قد هون عليه أن يأتمر بأمر فتاته.

فارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية، وأصبح جون بعد أن كان محمدًا. غير أنه ظل على عادته من تقليب الرأى فى العقائد. وتصويب بعضها وتفنيد بعضها الآخر، والتقى بعالم من علماء الأديان يقال له تيلور، فاحتدم الجدال بينهما، وتمسك كل منهما بوجهة نظره، حتى انتهى الأمر بالمهاترة، و أغضب زوجته أن يرى ما لا ترى، ويجهر بما تتأذى له نفوس المؤمنين من أهل دينها، فطلبت الفراق. وساءه ذلك منها فحزن واستيأس. ثم هجرها كما هاجر عن بلادها إلى فرنسا. وفى باريس ساءت حاله وأجهدته الفاقة وطلب عملاً يدر عليه رزقًا، فاشتغل بالترجمة فى جريدة «العروة الوثقى». تلك الجريدة التى كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى فى أوربا لرفع لواء الإسلام، والمطالبة بحقوق الشرق الناهض، وجدد صداقته للسيد ذاكرًا بالخير أيامه فى إيران، وشاكرًا له ذلك الجميل الذى طوق به عنقه يوم استنقذه من الهلاك المبير بحضور البديهة ولماح الذكاء.

وسرعان ما اندملت جراح قلبه، وعاود الربيع روضة أمله، فاشتاق حبيبًا يؤنسه، وزوجة يسكن إليها، ووجد ضالته، فخفق فؤاده لفتاة فرنسية تزوجها، وكانت بديعة الحسن مرهفة الشعور بالجمال، كريمة النفس، تعرف لزوجها حق طاعتها له، فنسقت داره، وزادت الحياة إليه طيبًا، إلا أن الزمان لم يفلته من كيده، فعكر صفوه. وجعل النعيم شقوة وبلاء، واعتلت الزوجة الحبيبة وقال الطبيب إنها ذات الصدر، فلا أمل فى الشفاء إلا بالرحيل إلى لبنان، ورحل الرفيقان إلى البلد النازح إلا أن أيام العليلة لم تطل فمضت، وخلفته وحيدًا مستوحشًا فى أرض ظن أن طيب هوائها يشفيها، فكان قبرها فيها، وجزع الرجل جزعًا شديدًا وكره الحياة بعد أن فارقها من كان يحببها إليه، وعول على التخلص من عيشه النكد وحزنه الممض، ولم يجد الوسيلة إلى ذلك إلا بالانتحار، وصح منه العزم فهيأ قارورة تحتوى على سم ساعة، وخرج إلى طرف بعيد من أطراف المدينة، وكان الوقت وقت الغروب، فوقف واستند إلى جدار وهم بوضع القارورة على فمه، إلا أنه تلبث قليلاً، وجعل يرنو إلى الشمس الغاربة، وكأنما أراد أن يتزود من جمالها بآخر نظرة له فى هذه الدنيا، أو أن غروبها أوحى إليه بمعنى الموت فردده فى نفسه، ثم أخضلت عيناه وتحركت شفتاه بقوله: «اللهم إنى أحسو هذا الشراب المميت لألحق بها، وإن كنت مذنبًا فاغتفر منى ذنوبى، لا طاقة لى بفراقها وهجرانها!».

وبينا هو يهمس بهذه الكلمات إذا هرة تقفز من أعلى الجدار، وتمس يده فى هويها، فتسقط القاررة منها، وتنتثر كسارتها على الأرض، فشده لذلك محمد الباقر، وأحزنه أن يرغب فى النجاة من أرزاء دهره، فيأبى عليه إلا أن يذيقه المزيد من ألم وعذاب.

وهَمَّ بالعودة إلى داره فاستوقفته فتاة عربية كانت واقفة على سره، وناظرة من بعيد إلى ما حدث، فما رأت تلك الصدفة العجيبة حتى سرت لها أعظم السرور، فسألته عن خبره وأحسنت عزاءه. ثم تم التعارف بينهما، فواسته وأسعدته، وأنسته ما لم يخطر بباله أنه سوف ينساه، إلا أنها ذكرته بزوجته الإنجليزية التى شرطت عليه أن يعتنق المسيحية، لأن العربية رغبت إليه أن يعتنق دينها، فرق قلبه لدينه الذى ولد عليه وأسلم وحسن إسلامه.

ومضى على هذه الزيجة نصف عام، وشعر محمد الباقر أنه يحيا حياة آمنة مستقرة. فلم يعد غريبًا عن بلد ولا أهل ولا دين، وخالجه الشوق إلى أن يعود إلى إيران لرؤية

الوطن والعشيرة بعد أن شرد فى الأرض واعتورته الخطوب. ورجع إلى بلاده، إلا أنه لم ينعم فيها بأوبة الغريب وفرحة المشتاق. فقد قتل بطهران عام ١٣١٠ هجرية.

وسكنت هذه النفس الحيرى، التى كتب عليها ألا تثبت على عقيدة واحدة، ولا تنعم بغرام واحد، ولم تعرف الهدوء ولا القرار. فلما سكنت بعض السكون كانت كالموجة موتها فى سكونها.

* * * *

شاعرتان تركيتان

إن كان للآداب سمات عامة تلوح عليها، فللأدب التركى من كثرة الشواعر سمة تميزه، وإن اعتز قوم بالنساء فيهم إذا سمت مداركهن ورقيت ثقافتهن، على أنهن عنوان نهضة ومعيار تقدم، فللترك أن يعتزوا من بناتهم بمن اتسعن فى العلوم، وألهمن عبقرية الشعر، فأخرجن الكلام أحسن مخرج، وكن فى دولة الأدب ملكات لهن جمال وجلال.

وإنا نخص هنا بالنظر شاعرتين هما فطنت هانم، وليلى هانم، فكلتاهما من بليغات النساء، ولها فى الشعر منزلة أى منزلة، والأولى أشعر تركية فى عصرها، أما الثانية فتتلوها فى مرتبتها، وقد وصلت بينهما حياتان متشابهتان، ونزعتان لا تختلفان.

ونشأت فطنت هانم فى بيت علم وفضل ورفعة، فكان أبوها محمد أسعد افندى شيخًا للإسلام على عهد السلطان محمود الأول، كما تبوأ أخوها هذا المنصب العظيم على عهد عبد الحميد الأول، وعرف الشيخان بالميل إلى الأدب والطرب للشعر، ووجدت الفتاة قدوة حسنة فتأدبت وأخذت من كل فن بطرف، ولما اكتمل شبابها، زوجها أبوها من يقال له درويش افندى، وكان رجلاً خامل الذكر ساقط الهمة، لا عقل له ولا لسان، فأساء عشرتها ونغص عليها عيشها، وصدق عليهما قول الشاعر الفارسى: «ما من رجل إلا وبه حرٌ شوق إلى من يسكن إليها وينعم بصحبتها، غير أن الوفاق بيننا أمر دونه شيب الغراب فما حدثتها عن السماء يومًا إلا حدثتنى عن الأرض!» وشرط صحة هذا الكلام هنا، أن يكون على لسان الزوجة لا على لسان زوجها، ففطنت من هى رقة حاشية ووزانة عقل، أما درويش أفندى فهو ذلك الشيخ الأغم القفا الراكد النسيم، فكيف يجتمع الضدان وأنى يتفق الزوجان؟

وقد عرفت فطنت بنزعتها إلى الدعابة والفكاهة، ويبدو ذلك غريبًا ممن تغص بالأسى من زوج سوء أنكد، فلنا أن نرده إلى ما يعرف عند علماء النفس بالتنفيس، كما يتكلف الغاضب أن يضحك، أو بالتعويض كأن يلتمس المحزون لنفسه مسلاة وملهاة، وليس بمستبعد أن تمتلئ نفسها تيهًا بشاعريتها وإتيانها بما يقصر عنه باع الرجال، فتشعر بحقارة الغير أمام عظمتها، وتهزأ بهم وتستحقرهم. ومصداق ذلك قصة وقعت لها مع شاعر يقال له حشمت، فقد اتفق أن خرجت يوم عيد الأضحى لشراء أضحية، ورأت الناس مجتمعين أمام جامع بايزيد عند قطيع يشاهدون كباشه للشراء منها، فوقفت مع الواقفين وكانت وقفتها إلى جانب حشمت، فالتفت إليها وسألها عما جاء بها، فقالت إنها إنما جاءت لشراء أضحية، وأحب أن يمزح متأدبًا فقال لها: لأقدم نفسى قربانًا» وما كان منها إلا أن أجابته

بقولها: «أنت معيب القرن، ولا تحل أضحية هذه صفتها!». ولها معه خبر آخر نجتزئ بإجماله عن تفصيله، فقد قيل إن حشمت كان مارًا بدارها ولما أبصرت به، أمرت جارية لها فأطلت من النافذة وجعلت تسخر منه وتشبهه تشبيهًا مضحكًا بطائر غريب، لأنه كان خفيف اللحية والشارب، فبادلها سخرية بسخرية، وأبلغت سيدتها ما قال، فردتها إلى النافذة بكلام قبيح كما عادت إليها الجارية من الشاعر بكلام أقبح، وإن حمل على كونه أفكوهة وأملوحة.

والرأى منعقد على أن شعرها متصف بصدق العاطفة وصراحة التعبير عنها من غير ما تعمل ولا احتشام، وهذا لا يشاهد عند شعراء عصرها إلا فى الندرة، وينطوى ديوانها على غزليات أنيقة تؤلف قسمًا منه، ويضم قسمه الثانى شعرها فى المدائح النبوية، والمناسبات العامة كأعياد جلوس السلطان، وأعياد ميلاد الأمراء. ومن قولها فى الغزل: «إذا بسم الحبيب، فللحياء حمرة فى خدود الورود، وإذا انثنت غدائره، ثنت الأزهار رءوسها غيرة منها وحسدًا لها. لى من فؤادى أضعف الطيور، ولك من عينيك نظرة الصقور، فالفؤاد صيدك، وإن كان عنقاء تكبر أن تصاد. إن كان ثغرك كما لم يتفتح، فليهنك أن الندى دمعى، وهل تتفتح الأكمام إلا لتساقط الأنداء؟ إن كنت تأملين أن تموتى غرامًا يا فطنت، فكونى قبل الذهاب، ثرى عند أبواب الأحباب!» ولها عاطفة دينية مشبوبة تتجلى فى مديحها للنبى صلوات الله عليه، وهذا المديح منها جرى على عادة الشعراء وإن فاتنا منه معنى جديد، لم يفتنا حسن الأداء والإبانة عن القصد. وهذه أبيات فى عدة مواضع من إحدى مدائحها: «ما كان خلق العالمين إلا من أجلك، وكل شىء فى الوجود باسمك. يا حبيب الله، لك حسن يبهر عين الشمس والقمر، يا مبدأ العالم وسبب وجوده. يا صاحب الخلق الكريم الطاهر لولاك ما كانت الجنات، وما دخلناها لولا البر منك والكرم. يا صاحب المعراج وفخر النبيين، الناس وقوف ببابك من سوقة وملوك، وهم إليك يبسطون أكف الضراعة والحاجة». وكانت وفاة فطنت هانم عام ١٧٨٠م.

أما ليلى هانم فقد درجت هى الأخرى فى بيت كريم، وتولى تعليمها شاعر من ذوى قرباها يقال له عزت ملا، ثم كان زواجها فى ريق شبابها، إلا أن هذه الزيجة لم تدم إلا أيامًا سبعة، ولم تكن الملامة فى ذلك على زوجها كما هى الحال فى زيجة فطنت هانم وإنما كان الذنب ذنبها، فقد كانت حادة الطبع، شديدة الكبرياء معتدة بنفسها إلى أبعد مدى، مستعلية على غيرها، لا تنثنى عن عزم ولا تكترث للوم، فلا جرم إن ضاقت بالحياة الزوجية وكرهت قيودها، وأصبحت المطلقة أكثر سخطًا على الناس واستخفافًا بهم ورغبة

فى الغض من شأنهم وتسفيه رأيهم، فما ألقت بالاً إلى الهمز واللمز، ولا أهمها أن يرجف المرجفون ويتقول المتقولون، فينسبوا إليها أقبح عيب يؤذى امرأة فى شرفها. وساءت سيرتها فاستهترت بكل شىء، ولم تملك لنزواتها زمامًا، حتى أن أحد الوراقين نظم بيتًا فيها تناقله الناس، وقيل بمسمع منها فأثار ضحك الضاحكين وهزء الهازئين، ولا يسعنا هنا إلا أن نطوى ذكره لفحشه.

وقيل إنها عرفت شابًا وسيمًا يصنع الشمع، وقد راقتها وسامته فكانت تكثر من زيارته فى دكانه، وكان الفتى حييًا شديد الحياء، إذا كلمته لا يكلمها، ولما شاع الأمر نظم جار له شطرة لقنه إياها ليقولها للشاعرة وهى: «لا تديمى النظر بالإعجاب إلى شمع خدى، لا تحترقى بنارى!» وما سمعت منه ذلك حتى أجازت بقولها: «إذا طر شاربك وبلغت مبلغ الرجال فستستعين بنور شمعك على رؤيتى».

وشعرها سهل معناه فى ظاهر لفظه، وليس فيه من الصناعة إلا ضئيل أثر، وتفهمه لا يكد الفكر ولا يبعث على ترديد النظر وهذا وجه للشبه بين شعرها وشعر فطنت هانم، ويمكن القول بأن شعرهما غريب على عصرهما.

وليلى هانم شاعرة غنائية إلى حد كبير، أو إلى أبعد حد إذا ذكرنا ندرة هذا الشعر الغنائى فى زمانها، ويفتتح ديوانها عن شعر دينى فى مناجاة الذات الإلهية ومدح الرسول الكريم والترحم على آله، وتدخل من ذلك على رثاء الحسين وآل بيته فتطيل الرثاء وتجيده قائلة: «لقد وافى المحرم، ويلاه من يعيننى على هذا الشهر، ففيه لا يرقأ دم لعينى، وإن الفلك الغدار لينكأ جراحاتى فمن لى بدواء لما فى القلب من حرقات. وحق لمحب أهل البيت ألا يسيغ الماء حزنًا كأن السمام فى جرعته، ففى مثل هذا اليوم كان ما كان من يزيد ابن السفيه حشو جهنم، وهو خنزير وليس من البشر. فمثل هذا الظلم لا يعرفه بنو الإنسان».

وليلى ترثى أباها وأخاها ومؤدبها عزت ملا، وشعرها فى الرثاء رقيق يعبر عن لوعة الحزن فى بساطة وسذاجة، ولها عناية ظاهرة بتنسيق ألفاظه، فهى تكرر بعضها على نحو رتيب يذكر بالنائحة للثكلى وهى تندب الميت رافعة صوتها بالعويل والنحيب وقد صدرت فى هذا الشعر عن طبيعتها النسوية، فبدت شديدة الوضوح بكل صفاتها، قالت ليلى: «إن للأشواق نارًا تلهب القلب منى، الفراق، آه الفراق، آه الفراق، أواه لا طاقة لى بتباريح الأسى، الفراق، آه الفراق، آه الفراق، لقد ارتحل أبى عن دنياى، الفراق، آه الفراق، آه الفراق، فلنتخذ من نوحنا وصدنا نايًا ودفًا، الفراق، آه الفراق، آه الفراق. لقد رفع أبى

إليَّ عينه وهو بالنفس يجود، فهل حزن لقلبي الصديع؟ لقد أصبح فى التراب ترابًا، الفراق، آه الفراق، آه الفراق، الله فى هذا القلب الكليم، الفراق، آه الفراق، آه الفراق».

وإذا ما انصرفنا عن شعرها هذا الباكى، وجدنا لها شعرًا ضاحكًا مرحًا، ورأيناها فى غزلها تجهر باستهتارها، وتطلب إلى العذول أن يكف اللوم عنها لأن لها أذنًا لا تصغى، فتطلعنا على نفس تحب الحياة كل الحب، وتحرص على المتعة كل الحرص، فكأننا أمام شاعر من المجان، لا شاعرة من ربات الخدور.

تقول ليلى: «إلا هيىء لنا مجلسًا للأنس، وليقل القائلون ما يقولون، وارشف الصهباء مع الحسناء. وليقل القائلون ما يقولون، لقد أشبع العاشق الولهان ذوائبها العنبرية لثمًا وشمًا فى الليلة الحالمة، وليقل القائلون ما يقولون، وتقيد القلب بقيد من شعرها، فبالله ما أشوقنى إلى هذا، وليقل القائلون ما يقولون. لا فرق عندى فى هذه الدنيا بين مدحى ومذمتى، فليأخذ الأحباب فرصة اللذات، وليقل القائلون ما يقولون».

وكان عام ١٨٤٧م هو العام الذى قضت فيه ليلى هانم، وإن السلوك الذى سلكته هاتان الشاعرتان فى حياتهما، والجرأة التى أظهرتاها فى شعرهما، لمما يزين لنا أن نتعرف البواعث النفسية عند الشعراء عمومًا، والشواعر خصوصًا.



أبو ظلوم

إن كان من المألوف أن يعق الأبناء الآباء، فمن غير المألوف أن يظلم الآباء الأبناء، ويا قلما أظهروا القسوة عليهم والعنف بهم، ويمكن تفسير ذلك تفسيرًا جليًا بأن للطبيعة حكمتها التى تجد حاجة الطفولة العاجزة واليفوع القاصر إلى العائل الشفيق والقيم المحب، فتودع قلب الوالد ما لا تودع قلب الولد من رقيق العاطفة وأكيد المحبة. ولأمر ما كان انحراف هذه الظاهرة فى الندرة. وإن ذلك ليبعث على كد الفكر وترديد النظر، شأن كل عجيب يدعو إلى التساؤل، ويثير الرغبة فى تعرف ما عسى أن يكون من سبب. وما دمنا نعالج أمرًا واقعًا، فأحرى بنا أن نضرب المثل بحقائق التاريخ التى لا مرية فى صحتها، وهو أفضل بكثير من أن نستلهم الخيال قصة ليست بكائنة.

ففى تاريخ الفرس ملك من أعظم ملوكهم يقال له الشاه عباس الكبير. وكان متعدد الزوجات متعدد الأولاد، غير أنه يؤثر من ذريته ثلاثة، وهم صفى ميرزا ولده الأرشد. وأخوان له هما خدابنده وأمامقلى. وقد استحق صفى ميرزا من أبيه أن يكون له محبًا معزًا مكرمًا. فهو المقدام المغوار، والعاقل الحصيف، وولد تقرّ به عين والده، وولى عهد نال منه كل ما تمنى، لأنه لم يكن ليحول بينه وبين أمر يطلبه ولا رغبة يشتهيها.

وقد اتفق لهذا الأمير الشاب أن رأى جارية شركسية حديثة الورود إلى حريم أبيه، وراقه حسنها، فوقعت فى قلبه واستأذن فى أن تكون زوجة له، فما كان من الشاه عباس إلا الرضا والقبول، فزفت الشركسية الحسناء إلى الأمير الفتى، فى حفل بهيج أشرقت به ليالى أصفهان الجميلة.

ولم يكن بين الشاه وولى العهد إلا حب الأبوة وبر البنوة. إلا أن رجال القصر وحكام الأقاليم وعظماء الدولة لم يرتضوا هذا لحاجة فى نفوسهم، فقد كان الشاه عباس الكبير يحكم بالحق ويسوس بالعدل. حتى قيل إن إيران لم تعرف له نظيرًا فى تاريخها الطويل، لأنه قبض على أزمة الحكم بيد قوية، وصرف شئون الدولة بعقل ودراية، فمضى ببلاده قدمًا إلى المجد والفخار، واستلزمت سياسته الرشيدة أن يكون الحاكم المطلق الذى لا يشرك معه فى الحكم أصحاب المطامع والأهواء الذين يسوءهم أن يمحى سلطانهم بجانب سلطانه، ويصبحوا ولا حول لهم ولا طول، فهم لا يظلمون مع رغبتهم فى الظلم، ولا يتسلطون على حبهم للتسلط، وأعجزهم أن يلينوا من قناته ويكسروا من شوكته، فزين لهم شيطانهم أن يعملوا الحيلة ويركنوا إلى الدهاء، رجاء التخلص من الشاه، فإذا تم لهم ذلك، استردوا ما فقدوا، وحققوا ما أملوا. فرأوا أن يقتلوه، واستقر على ذلك رأيهم، ورأوا لهم عهدًا

سعيدًا يوم يخلفه صفى ميرزا، فهو أخف وطأة عليهم، وأسهل قيادًا، وأقل بالسلطة استئثارًا، وعزموا أن يتواطأوا على قتله مع ابنه صفى ميرزا، بيد أنهم لم يكونوا على ثقة من قبوله النزول على رغبتهم، وإجابة سؤلهم، وأحبوا أن يطلعوا على سريرته من طرف خفى، فكتبوا صحيفة ضمنوها ما يطلبون إليه، وأنفذوا من تسلل تحت الليل وألقاها فى داره. وحمل إليه الخدام الصحيفة، فما أتم قراءتها حتى أخذ منه الأسى كل مأخذ، لأنه كان حريصًا كل الحرص على أن يذود عن أبيه كل شر وأذى، وكاد من غضبه يمزقها شذر مذر، إلا أنه تمهل ورأى الاحتفاظ بها للتعرف على من كتبها، واطلاع أبيه على ما جاء فيها، ولما أصبح الصباح طلب أن يخلو بالشاه، ثم أخرج الصحيفة من أثناء ثوبه ودفعها إليه، ولما وضعها الشاه تحت بصره وعرف جلية الأمر، ساورته الريبة وأوجس خيفة، وخاف الشر من ولده الذى لم يضمر له شرًا، وخال هذا الصنيع منه محاولة لخداعه، وسبيلاً يسلكه المسىء للإيهام بأنه برىء، وإن كان أبدى لولده غير ما يخفى، فحمد له أن نبهه إلى ما كان عنه غافلاً، وبارك فيه بره به، ولكن الفزع أطار فؤاده وسوء الظن حير فكره، ورأى نفسه مقتولاً إن فى الحال أو فى المآل فانخلع قلبه ولم يأتمن على الوفاء أحدًا، وهجس فى خاطره أن ولده لا شك غادر به، فقد يفسد المفسدون فى الغد قلبه عليه، بعد أن كان بالأمس صافيًا له، ووسوست فى صدره الأوهام والوساوس، فعز منامه مخافة أن ينتهز منه غفلة للقتل، ولم يسغ طعامه ولا شرابه خشية سم يدس له، ولم يشعر بالأمن والقرار حتى بعد أن غلّق الأبواب وأوقف الحجاب، وهام به الخيال ولم يستقر فكره على شىء، وإن كان لا بد للطير أن يقع، فقد وقعت ريبته على ولده صفى ميرزا، فصب عليه نقمته.

وضاق الشاه عباس بمقامه فى أصفهان حاضرة ملكه، فرأى أن يزايلها إلى بلد آخر ملتمسًا فى ذلك أن ينفس عن نفسه كربتها، فرحل عنها إلى الشمال، ولم يفته أن يصحب ولده، ليأمن منه تدبير شر له، مع رفقة السوء، وهو غائب عن أصفهان.

وأيقن المتآمرون أن صفى ميرزا خيب ظنهم وبدد أحلامهم، وأسخطهم ذلك عليه، فعولوا على أن يكيدوا له، ويسعوا به إلى أبيه، وألقوا فى روع الشاه أن ولده يجتمع بثلة من أصحابه كل ليلة كأنهم يدبرون أمرًا، فقطع الشك باليقين وتجرد من عاطفة الأبوة، وأصبح لابنه كارهًا بقدر ما كان محبًا. وصح عزمه على حسم الشر بالسيف، وغلبه ما جبلت عليه النفوس من أثرة ورغبة فى تنازع البقاء، فانتوى أن يقتل ولده قبل أن يقتله، واستدعى قائدًا من القواد كان يصطفيه ويجلٌّ منزلته ويفضى إليه بسره، وناط به أن ينفذ

مشيئته، فسل القائد سيفه وركع بين يدى مولاه قائلاً: «والله لأحب إلى أن تضرب عنقى بهذا السيف الحسام، من أن أقدم على قتل ولى عهدك، لقد أسبغتم علىَّ نعمكم، فكيف أمد يدى بإذايتكم؟.

ولولا تمكن القائد عند الشاه لنال جزاء وفاقًا على ما كان من عصيانه للأمر، ولكن الشاه كظم غيظه وأسرها فى نفسه ثم وكل هذا الأمر إلى رجل من بطانته يدعى بهبود بيك فصدع بما أمر، واشتمل بسيفه. وانتقل إلى دار صفى ميرزا، وسأل عنه، فقيل له إنه ذهب إلى الحمام، وسعى بهبود بيك إلى حيث يجده، وبينما هو فى الطريق، صادفه عائدًا، فأخذ بعنان فرسه قائلاً: «ترجل أيها الأمير. لقد حكم عليك أبوك بالموت، وجعل إلى أن أنفذ فيك هذا الحكم».

وما سمع الأمير هذا الكلام حتى رفع بصره إلى السماء وهو يقول بصوت يهدج: «رباه أى ذنب كان منى حتى يأمر أبى بقتلى؟ اللهم اقتص لى من عصبة السوء، لقد كادوا لى وسعوا بى!».

وقتل الأمير شر قتلة، وقال القاتل إنه إنما قتله لأنه كان قد سبه، ثم انطلق هاربًا إلى مولاه وأخبره الخبر. وطلب الأمان فأمّنه، وكافأه على فعلته الشنعاء برفع مرتبته. ولجت بالأب قسوته وغلظته فطلب رأس ولده وجعل ينظر إليه نظرات الحقد والشماتة.

وليس مقتل صفى ميرزا بالمثال الأوحد من فظاظة الشاه عباس وقسوته على أبنائه. فقد كان الأمير خدابنده مغوارًا جسورًا، نال نصرًا مبينًا فى بعض الحروب، فعرف الناس فيه بطلاً مظفرًا. وطلبوا أن يكون وليًا للعهد، فأغضب ذلك الشاه، وأظهر هذا الغضب بقتل مؤدب الأمير، فدخل على أبيه محتجًا وكلمه بكلام غليظ حتى جرد سيفه ملوحًا به، فأمر الشاه عباس بخدابنده فسملت عيناه واختلط عقله لذهاب بصره فقتل فاطمة وهى جارية لأبيه وكان لها محبًا، فانتقم منه فى جاريته كما انتقم منه أبوه فى مؤدبه، ثم تجرع السم ومات. وقيل إن الشاه سمل عينى ولده الأصغر كذلك لأمر نقمه منه.

فما حكم التاريخ على هذا الرجل؟ يقول مؤرخ إيرانى باستحالة إدانته، لأننا لا نعلم يقينًا تلك الأسباب التى دفعته إلى ما كان من قتل وسمل عيون، ويريد ليخفف عنه ذنبه وعيبه بقوله إنه أظهر جزعًا شديدًا على ولده صفى ميرزا، ولم يفلت الواشين من غليظ العقاب، وجعل من المكان الذى قتل فيه موئلاً من لاذ به أَمِنَ على نفسه من عدوه، كما بلغ من حزنه أن امتنع من لبس الثياب المزركشة، وأوصى بالملك من بعده لسام ميرزا ولد صفى ميرزا، وكانت منه هذه الوصاة وهو يجود بنفسه سنة ١٦٢٩م.

ويميل مؤرخ أوربى إلى تبرير ظلمه وقساوته بباعث لا بد أن يكون قويًا، فليس يصح فى الفهم أن تسفك النزوة دمًا، ولا أن تذهب الترهة بصرًا، ويذكر بعد ذلك أن الشاه عباس كان ملكًا عاقلاً عادلاً.

ومهما يكن من قول المؤرخين فالرأى عندنا، أن نفرق بين الرجل كملك وإنسان، فهو ملك عظيم ومصلح من الطراز الأول، إلا أنه إنسان خسيس ميت العاطفة عليل النفسية، ولا تعارض مطلقًا بين هذين الجانبين فيه، ولن يكون العظيم عظيمًا بكل صفاته، وإنما إعجابنا بالعظماء ينصب على ناحية أو نواح، وليس لزامًا أن ينصب على كل النواحى. فبعض صفات الشر لا تنفى عن العظيم عظمته، وبذلك يكون الشاه عباس الكبير خير الملوك وشر الآباء.

* * * *

سقاية عابر السبيل

فى القرن السابع الهجرى، قال الشاعر الفارسى سعدى: «كان خلق الأنام جميعًا من جوهر واحد، ومن ثم كان مثلهم كمثل الجسد إذا اشتكت منه جارحة، تداعت لها سائر الجوارح بالشكوى، وإن بين بعضهم وبعضهم ما بين العضو والعضو من سبب وآصرة، فلن يحق أن تسمى بالإنسان، إن كنت لا تشرك أخاك فى الأرزاء والأحزان».

وفى هذا الشعر تصوير لتلك النزعة الإنسانية التى تعمر بها القلوب، فيرثى السعيد للشقى مما هو فيه، وتدرك القوى رقة على الضعيف، وتأخذ القادر رأفة بالعاجز. كما فيه تفسير لمعنى الإحسان الذى يسمو بأفراد الجماعة، ويأخذ بيد المتخلفين عن ركبها، فيكفى من نقص، ويشفى من علة ويصلح من عيب، ففيه حفظ لكيان الحياة ورغبة فى جعل سعادتها بديلاً من شقائها، وكأن تراحم الناس وتوادهم يتفرع فى النفوس عن أصل هو حب الحياة وطول البقاء.

واحتساب الخير عند الله وتقديمه فى سبيله، جعل لكلمة سبيل مدلولاً خاصًا، فاقترنت بكثير من الصدقات، كأن يقال عملت التوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وأن فلانًا كان يقيم فى كل سنة سبيلاً للحاج، وسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافرين إليه فى الطريق، ومكتب السبيل هو المكتب الذى لا يلزم الصبيان فى دخوله شىء، ومن أخص ما يسمى بالسبيل سبيل الماء وهو بناء صغير أو كبير يشرب منه، وتجرى العادة بغرس شجرة أو شجرات تمد عليه وارف الظلال، ليكون مثابة ومأوى لعابر السبيل يلوذ به من لفحة الهاجرة ووقد شمسها، فيرتوى من حرقة الظمأ، ويجد برد الراحة بعد طول الأين والإعياء، فكأنه كان يضرب فى الصحراء المشمسة العطشى، ثم عاج بواحة خضراء فيها ظل وماء.

وكان للترك ميل وشديد اختصاص بإقامة السبل، فهى أول ما يقيمه محسن يجعل قدرًا من ماله حبسًا على الخيرات ملتمسًا دعوة صالحة له من متوضىء أو ظمآن، ولنا أن نعلل اهتمام الترك هذا بتلك السبل تعليلاً تاريخيًا. فإذا رجعنا إلى استانبول فى سالف زمانها، وجدنا أن الماء لم يكن وفيرًا بها، حتى أنشأ السلطان سليمان القانونى ما عرف بالعيون الأربعين فكثر الماء بالمدينة بعض الكثرة ووجد الناس حاجتهم منه، وخزن لتجرى به مجاريه عند الضرورة، وتنافس المتنافسون من أهل الخير فى إنشاء السبل، قيل وكان لإحدى نساء السلطان سليم الثانى حمام عظيم، إذا فضل عنه ماء وزع على هذه السبل.

فإذا عرفنا قلة المياه فى استانبول، ومس الحاجة إليها صيفًا على الخصوص، أدركنا أن إرواء العطشان عمل يشكر ويؤجر عليه صاحبه، ويقل عجبنا من كثرة تلك السبل التى خلدت على وجه الأيام ذكر من بناها، وحوت استانبول وحدها مئات منها.

ومما يشير إلى فرط اهتمام أهل الخير والبر بها، وأنها كانت عندهم أول ما يبتغون به مرضاة الله بعد تشييد المساجد، أنه بينما كانت والدة أحد السلاطين تبنى مسجدًا ذا مئذنتين، قل مالها ولم يف إلا بإقامة مئذنة واحدة، وعرف ولدها السلطان ذلك من أمرها، فأمدها بما يسد حاجتها ويقيم لها المئذنة الأخرى، بيد أنها قالت لما تحصل المال لها: «كلا إن فى المئذنة الواحدة كفاية لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، وما فى الأخرى إلا مجدى ورفع ذكرى، إن المسكين إلى السبيل فقير!»، وأمرت بإنفاق المال على تشييد سبيل.

وهذه السبل منها ما هو فخم البناء جميل الزخرف، تأنقت يد الفن فى تزيينه وتحسينه، وأنفق على ذلك مال جزيل، ومنها ما صغر بناؤه وتعرى عن كل زينة حتى لم يعد سوى حوض صغير يمسك الماء؛ والعظيم منها كسبيل داود أغا، وذلك الذى ابتناه السلطان أحمد الأول فى القرن السابع عشر، أما أشهرها وأفخمها، فسبيل السلطان أحمد الثالث، وهو من أجمل الأبنية فى القرن الثامن عشر. فقد بنى من الرخام الأبيض وله سقف آية فى الروعة، وخمس قباب تحمل الأهلة، وعليه كتابة بخط حسن وماء ذهب، وهى أبيات من الشعر هذا نصها:

«قف أيها السائر، فهذا ينبوع يبهجك ويسعدك، تلبث هنا لتجد الراحة فى ظلال الدوح، إن لهذا السقف فيئًا كأفياء شجرات السرو، غير أنه أبهى وألطف نسيمًا، ولسوف يخبرك الملائكة فى الجنان يومًا، أن ماء هذه الروضة كماء أنهار الجنة عذوبة ولذاذة. وقد تعلم أيضًا أنه شبيه بماء زمزم. إن السلطان أحمد، وهو الاسكندر الثانى، وله من الأمجاد أمثال الشموس، ومن السماحة ما يتزايد على مر الأيام، قد أقام للناس هذا السبيل ووسمه بخاتمه الملكى. وهذه المياه المتفجرة المتدفقة تجرى فكأنها كرمه وكثير نواله، ويصيب من هذا الماء أمير وفقير وعاقل وجاهل على السواء، ألا إنما الماء نعمة سابغة من نعم الرحمن».

وللسلطان أحمد الثالث سبيل آخر، وهو وإن كان أصغر حجمًا من الأول، إلا أنه أكثر رواء وبهاء، ويقال إن إمبراطور ألمانيا شيد فى استانبول سبيلاً سنة ١٨٩٥م، ذهابًا منه إلى الرمز إلى ما بينه وبين السلطان عبد الحميد الثانى من ود أكيد.

ولا يشترط فى هذه السبل أن تقام فى مكان معين لإقامتها، فهى فى كل مكان، والعين تقع عليها فى الأسواق، والميادين، وأفنية المساجد، وقارعة الطرق، وعندها نشاهد طوائف

مختلفة من الناس، فهاهم أولاء الملاحون، قد جلسوا فى ظلها يستريحون مشمرين عن سواعدهم المجدولة التى أعياها تحريك المجاديف، وجذب الحبال كاشفين عن صدور تفلكت ثندواتها ولمعت قطرات العرق على شعراتها. وإلى جانبهم جلس البائع الجوال بعد أن ألقى عن عاتقه سلة العنب التى أنقضت ظهره، وقد استرخت له ساقان كادتا تشتكيان من طول السير، فبل حلقًا جف من ندائه المتواصل دون أن يدخل يده درهم ينفقه فى حاجات من يعول. أما ذلك المتسول فى أطماره البالية فاتخذ له هناك مأوى، لأنه عدم دارًا يأوى إليها. فالجميع وقوف بها أو قعود حواليها ليصيبوا من مائها وينعموا بظلالها.

وللعظيم من هذه السبل حارس موكل بها، يلحظها بعين عنايته، ويتعهدها بما يحفظ عليها رونقها، ويديم الفائدة المرجوة من إقامتها. فيصيخ بسمعه لخرير مائها، وهو يرتل القرآن ويحلم بالنعيم المقيم، وقد يمتد الحديث بينه وبين أحد المارين به، فيحدثه بعجيب ما رأى فى عمره المتطاول، ويرسل الحكمة ويبذل النصيحة كما قد يسأله طلعة أو مستفيد عن صاحب السبيل فيذكر بالخير والحسنى عهدًا ناسه ناس كرام، داعيًا بالسقيا لقبر كل من سقى الظمآن، وأراح المتعب المجهود.

ومما يزيد هذه السُّبلَ حسنًا على حسن، تلك الأسراب من الحمائم التى تحوم عليها وتتهاوى لتقع على سقوفها، وهى تهدل وفى هديلها حزين الشكوى وعذب النجوى. وإن بياض البيض منها ليذكر بالنقاء والطهر، ويرمز إلى تلك النفوس التى تجود لتسعد الغير، ولا تخف عنها آلامها، حتى تخفف عنهم آلامهم.

وإن من بعض هذه السبل ما شاهد أحداثًا محزنة، ومظالم تتأذى بها القلوب، فقد حدث منذ نحو مائة من الأعوام، أن حوكم حائك يونانى لم يستطع إقناع قضاته ببراءة ساحته مما نسب إليه ظلمًا، فحكم عليه بالموت وضرب عنقه، وشوهد جسده ورأسه بين ركبتيه، على مقربة من سبيل فى سوق السمك.

وقال سائح أوربى إنه شاهد مجرمًا، لعله كان قاتلاً أو من لصوص البحر، والجند خلفه يسوقونه إلى حيث لا يعلم، فتوقفوا عن السير فجأة، ودقوا مسمارًا غليظًا فى جدار حانوت لفاكهى، ثم جعلوا حبلاً فى عنق الرجل بعد أن أوقفوه على قفص من أقفاص الدجاج وربطوا الحبل فى المسمار، ودفع أحدهم القفص من تحت قدمى الرجل فمات ميتة سوء. وكان ذلك أمام سبيل من السبل، والعجب أن الحبل ظل معلقًا فى المسمار زمنًا طويلاً، وترك حتى تبليه الشمس والأمطار، وإن الواقف بهذا المكان لناظر إلى ضدين، فالسبيل مظهر للرقة والرأفة، وذاك الحبل عنوان للقسوة والغلظة، فهل ساء ذلك بانى

السبيل، فقلقت روحه الخيرة وهى تنعم عند ربها بعظيم الأجر على ما كسبت؟ وهل أدرك السابلة الفرق بين هذين الضدين اللذين يتنافران فى النفوس، وإن كانا يجتمعان فى الوجود!

ويمكن بعد هذا كله، أن نعزو إلى هذه السبل بعض الفضل على الأدب، فقد أذاعته وجعلته متداولاً بين الناس، وذلك لما تتحلى به من أشعار كتبت على واجهاتها أو نقشت على كيزانها، وليس بخاف أن الغرض الأول من كتابتها هو الزينة، غير أننا لا نعدم الجمال الشعرى فى الكثير منها ولنضرب مثلاً هذه الأبيات التى تخلق من الماء متكلمًا يقول: «أنا صفاء الصفاء ونقاء النقاء، وإذا أديرت على الندماء أقداحى، غمرت قلوبهم بالبرد والسلام. قف متع العين باجتلاء محاسنى، وتأمل فى بديع صفاتى أيما عطشان شكا تلهب الهيام، أشكيته ورويته بحلاوتى وعذوبتى!» .

* * * *

المغامر الشاعر

إن كان للفرس شعر سياسى بحق، فهذا الشعر يستمد نشأته من تلك الثورة التى خفقت ألويتها ما بين سنة ١٩٠٥م و ١٩٠٩م، بعد أن تحرك الوعى القومى فى النفوس، ووضح الحق المنقوص فى العقول، فطالب الشعب الفارسى بالحكم النيابى حتى أجيب إلى طلبته، وأراد الحد من تسلط الأجنبى وغلوائه فما خاب فى مسعاه وغنى عن البيان أن الشعر فى مثل هذه الفترة لا يكون غالبًا إلا وطنيًا سياسيًا، يعبر عن روح الجهاد، وينادى بالإصلاح العام والخاص.

ومن المتأدبين من يميل إلى نفى الشاعرية عن هذا الشعر، ويذهب إلى أنه وليد المناسبة لا فيض الخاطر، فصاحبه ينحته من صخر ولا يغترفه من بحر، ومهما يكن من هذا القول فليس يصح فى الفهم أن نطلب إلى الشاعر السكوت أمام أحداث تدفع إلى التأثر منها والتحدث عنها، ولن يسوغ أن يذرف الشاعر دموع الحب أو ينعم بنشوة الحميا، على حين تجرى النفوس على النصال المشرعة، ويعالج أبناء وطنه سكرة الموت الزؤام، وكيف يصف الربيع الباسم المغنى، وهو يشاهد تعبيس المتقاتلين ويسمع أنين المظلومين؟

والشاعر المجيد قدير على تصوير الحقائق أجمل تصوير، والشعور بها شعورًا شعريًا يخرج بها عن المادية إلى الروحانية، فنحن قد نجد فى الشعر السياسى جمالاً نعدمه فى كثير من شعر الخيال الهائم والعاطفة المشبوبة، ولنا أن نزيد على ذلك أن اهتمامنا بهذا الشعر ضرورة تاريخية وأدبية معًا.

ومن رجال الثورة الفارسية من يدعى لاهوتى، وقد كان شاعرًا ومغامرًا وجنديًا وسياسيًا، ويعنينا منه حياة عجيبة الأطوار متقلبة الأحوال، ساقته ملابساتها شريدًا طريدًا فى الآفاق، وشعر يعتبر مثالاً جيدًا لشعر السياسة والوطنية فى إيران على عهد ثورتها.

ولد لاهوتى سنة ١٨٨٥ ولاحت عليه مخايل النبوغ والعبقرية فى فجر عمره، حتى قيل إنه عالج النظم وهو غلام لم يستوف السابعة من سنيه، ولما وافى عام ١٩٠٨ كان لاهوتى ينتصر للثورة ويعتنق مبادئها بكل ما فى قلبه الشاب من حماسة، وما فى عقيدته من رسوخ وعناد، ولما اضطر الثوار إلى ما قد يضطر إليه الجندى من كر وفر، زايل لاهوتى العاصمة والتمس موئلاً فى مدينة بشمال إيران، وهناك لم يرتض لنفسه حياة خمود وركود، فأسس مدرسة واشتغل بالتدريس فيها، ولبث بعض الزمن حتى استقر الأمر للثوار، وظفروا بما ثاروا من أجل الظفر به، فقفل راجعًا إلى طهران وانخرط فى سلك الشرطة، وأبلى فى عمله أحسن البلاء، ونال من الرتب ما يثير حسد رفاقه، غير أن شرًا وقع بينه وبين أحد

رؤسائه السويديين، فخرج لاهوتى عن طوره، وأملى عليه شيطان الغضب أن يتوعده بالقتل ووجد الضابط السويدى قتيلاً بعد أيام، واجتمعت الدلائل ضده فلم يبرأ من دمه، وكان لاهوتى يقظًا شديد التحفظ فتعلق بأذيال الفرار قبل الوقوع فى قبضة العدالة، وحكم عليه بالموت وهو غريب بالبلد البعيد.

وهاجت الحرب العظمى فحارب الإنجليز والروس، ثم ألقى عصاه فى استانبول، وقعد عن الكسب ردحًا من الزمن فشحت موارده وضاقت ذات يده، ولم يكن بد من الاستعانة على العيش بحرفة أو تجارة، وصحت عزيمته على بيع الكتب، إلا أن تجارته منيت بالكساد، فحار فى أمره، وطلب قوت يومه بكل حيلة، وكان من أضاحيك القدر أن يحترف طهو الطعام فى أحد المطاعم، وهو من هو فى منزلته الأدبية وسمو رتبته العسكرية، وشاء الله أن يخفف بلواه، ويعيد إليه بعض العز بعد ما كابد من ذل، فعرفه القنصل الإيرانى باستانبول، وجعل إليه إدارة المدرسة الإيرانية بهذه المدينة، كما جمعته الصدفة بصحفى من مواطنيه فاشتركا فى تحرير صحيفة.

ولم يستقر لاهوتى على حال، فآب إلى وطنه عام ١٩٢١، ولجأ إلى أحد الحكام، وسأله أن يشفع له عند الشاه، فصدق أمله، وأحسن الشاه العفو عنه، كما أكرمه بإعادة منصبه إليه، وما لبث فى إيران طويلاً حتى عاوده حب المغامرة وركوب المخاطر، فجهز لنفسه جيشًا من أتباعه، وثار على الدولة، بيد أن الدائرة دارت عليه، فتشتت شمله وانفض أعوانه من حوله، فهام على وجهه يطلب النجاة، ووصل به تجواله إلى القوقاز حيث اعتقله الروس الذين أبوا تقديمه إلى حكومة إيران، وضموه إلى جيشهم، ثم عرفوا منزلته العلمية فآثروا أن يفيدوا منه كأستاذ للفارسية بجامعة موسكو.

وليس لاهوتى بالشاعر المحبوب فى إيران لما كان من نزواته وتقلباته، وهو معدود فى الخونة، بعد أن كان معتبرًا من رواد الإصلاح ومحبى الخير للوطن. وشعره يتألف من مجموعتين، عرف الأولى بلآلىء لاهوتى وقد طبعت فى استانبول، أما الأخرى فديوان من الشعر يسمى بالأدب الأحمر، وقد نشره فى التركستان وضمنه مذهبه الثورى، وميله الفوضوى.

ومن لآلئه الجميلة قوله: «بالله مرحمة أيها الصياد، أشفق على تلك الزفرة التى تبقت من حياتى فلا تخمدها، لا تحرق عشى ولك إن شئت أن تقتلع منى القوادم والخوافى، وإذا كان مبتغاك أن توقعنى فى الأسر، فهأنذا قد وقعت فى الفخ. اخرج من بستانى ولا تكن من يخرب على دارى. لقد قيدت جناحى وصدعت قلبى، فترفق أيها الصياد ولا تعقل

لسانى، كم شوكة أدمت كفى فى شجرة الورد حتى احمر العشب من وقع خطواتى إنى لأموت كمداً فى هذا الركن من قفصى بعيداً عن البستان وطنى، فيا نسيم الصبا تحمل خبرى الحزين إلى صاحب بستانى، إن قلبى الكسير الدامى لينفطر فى تلك العزلة الموحشة، فاللهم اجعل لى رفيقاً مواسياً، يخفف عنى برحائى، ويقص على أحبابى ما حل بى، لقد أيقنت بالهلكة يوم عرفت أن الذئب والراعى صارا علىَّ إلبًا واحداً، ولما أراد القدر إلقائى بين براثن الأجنبى، ألقى حارس بستانى فى سبات الغافلين!».

فهذا الشعر تصوير للحال السياسية فى خيال الشاعر الذى عمد إلى التلويح وامتنع من التصريح، وأومأ إلى الحقائق إيماء خفياً تحت ستر دقيق من الرموز. وإن التوصل إلى المعنى المقصود بهذه الكيفية لأوقع فى النفس وآخذ بالقلب، وأكثر توضيحاً للمراد من ذكر الحقيقة مجردة والمعانى عارية، فضلاً عن ذلك الجمال الأدبى الذى ننعم به ونحن نتناسى المعنى البعيد ونتفهم المعنى القريب.

وعرف لاهوتى بمؤازرته للنهضة النسوية فى بلاده، ورغبته إلى المرأة الإيرانية أن ترفع الحجاب وتنال حظاً من العلم والمعرفة أسوة بأختها الأوربية، وقال فى ذلك شعراً نقتطف منه هذه الأبيات:

«يا بدر ملك العجم، يا دمية الشرق الجميلة، أعيرينى منك قلباً يعى ما أقول، لقد عفرت الجبين فى ترابك. ويا طالما رفعت إليك أكف الضراعة كأنى عابد فى محراب! كان هذا بالأمس، أما اليوم فأنا أوجه إليك كلاماً جلياً وقولاً فصلاً فاسمعى، لقد كففت قلبى عن هواك وانصرفت نفسى عن سحر حسنك، حتام أقيد عنقى بغدائرك وأجعل من أهداب عينك سهاماً تخز قلبى الجريح والى كم أقول إن لك وجه البدر وقد السرو؟ أى حاجة إلى تحصيل الحاصل وما جدوى إظهار الظاهر؟ لا رغبة لى فى الصباحة مع الجهالة فلا تعرضى على فتنتك وصباحتك. أنا صاحب جد وعمل، لا صاحب لهو وغزل. لا، لا يجمل بك أيتها الجميلة فى عصر المدنية هذا ألا يكون لك من العلم حلية تزيد فى حسنك، وأقبح العيب أن يكون العالمون أحراراً وأنت أسير خلف السدول. ويا أسفى عليك وأنت فى غفلتك، والعالم من حولك فى يقظته. أسفرى قناعك عن وجهك، ولتحوك دور العلم، وتلقى أفانين المعارف، فالجهل شجر والانحطاط له ثمر، تعلمى الحكمة، واجعلى من أمومتك خير مرب لأبناء الوطن، أنت من يلقننا الحرف الأول وكلامك أول ما نسمع ونعى».

والشاعر فى هذه القصيدة عنيف غليظ متهجم كأنه قائد جيش يأمر جنده، فهو يزجر النساء عن حياة الخدر الناعمة الحالمة، ويزرى على حسنهن الذى يتطرب الشعراء، داعيًا إلى طرح الخمول والاستكانة والأخذ فيما يعود على المجتمع بالخير والجدوى، وإن هذا العنف فى دعوته ليدل واضح الدلالة على طبيعته الثورية التى لا تعرف الهدوء ولا السكون.

ولما خلع محمد على شاه ظهر من يقال له رحيم خان، وكان من رجال العصابات يحيط نفسه بمنسر يعيث فى الأرض نهبًا وتقتيلاً، وقد ثار على الحكومة الدستورية الجديدة وحارب الدولة غير أنه انهزم ووقع فى أسر جنود من الروس أطلقوا سبيله بعد أن افتدى نفسه بمال عظيم، وما استرد حريته حتى عاد إلى عدوانه، فخذله التوفيق وفر إلى روسيا التى أبت أن تسلمه للحكومة الإيرانية وعاد إلى القتال ثالثة فكان حتفه فيها، وقبض عليه وقتل.

وقد أثارت حماية الروس له سخط الإيرانيين. وفى ذلك يقول لاهوتى: «لا در هذا الخؤون الخسيس الذى وجد عند الروس موئلاً بعد كل ما كان من شره العظيم، وما أظن بلادًا غير بلادهم تحمى رجل سوء مثله! لقد وجد الرعاية والحماية منهم وهو من ملأ الآفاق ظلمًا وإثمًا، ووالله ما أدرى، ما الذى يرغّب دولة عظمى أن تدعو إليها هذا الشيطان المريد، وكان الظن بها أن تزجه فى غيابة السجن، لا أن تكرم وفادته وتبذل له القرى، إلا أن كل من ناصر عدوًا للإنسانية، لنادم على ذلك فى يوم من الأيام!».

وليس لهذه القصيدة قيمة فنية، فصاحبها راوية يسرد الوقائع سردًا يفيد أهل التاريخ ولا يطيب لأهل الأدب.

وقد ملك حب السياسة عليه نفسه، فاشتغل بها، وتتبع أخبارها فى أرجاء الدنيا، ولم ينس مصر فنظم فيها قصيدة جيدة عام ١٩٢٥ بعنوان الروضة المحترقة ومنها:

«يا عجبًا كل العجب لتلك الروضة طيبة النسيم، أى روضة كانت؟ من ذا الذى أضرم النار فيها على ما لها من بهاء ورواء وفى أى ذنب كان قتل أصحابها! لئن أصبحت قاعًا لا يرتفع منه إلا عمود من دخان ففيها ولا جدال للتاريخ أمجاد مؤثلة وآثار باقية، وإذا احترقت وذوت فلها عطر ما زال ساطعًا، وما ضرها أن ينهار بنيانها ويستوى بالأرض هدمًا ما دامت تستمد من السماء رونقها. هذه الروضة هى مصر العزيزة».

* * * *

دراويــــش الـــترك

الدرويش بالمعنى اللغوى فى الفارسية هو المتسول الذى يقف بالأبواب مستجديًا، أما بالمعنى الاصطلاحى، فذلك المتزهد المتصوف الذى يرفض الدنيا ويرغب عن زخرفها، جاعلاً من دأبه وديدنه أن يخشوشن ويهين البدن ببعض العذاب، لتصفو الروح وتطهر، وتحلم عند ربها بالنعيم المقيم، فشقوة الدنيا عنده سعادة فى الآخرة، وعلى المرء أن يبتغى الوسيلة إلى الفناء فى محبة الله، وإلحاق ذاته بالذات العليا، حتى إذا بلغ من ذلك مأربًا، فقد وصل إلى غاية ينشدها، وحقق الآمال كل الآمال.

وليس بخافٍ أن إيران هى الموطن الأول لهؤلاء الدراويش، وما ذاك إلا لما فطر عليه أهلها من ميل إلى التصوف والنظر فى الدين نظرًا مجردًا، وأحرى بنا أن نقول إن الإيرانيين أكثر الشعوب رغبة فى اعتناق المذاهب، وترديد الفكر فى المِلل والنِحل. وإننا لعلى حجة من تاريخهم الطويل الذى يمدنا بالبراهين القاطعة والأمثلة التى لا تدخل تحت حصر.

وانبعث التصوف من إيران فغمر آسيا الصغرى، وتمذهب به الدراويش فتألفت منهم مختلف الجماعات والفرق، وانتشروا فى البلاد طولاً وعرضًا، وفى طليعة هذه الفرق، فرقة المولوية وشيخها جلال الدين الرومى المعروف بمولوى والمتوفى سنة ٦٨٣ هجرية بمدينة قونية، وهو أعظم شعراء التصوف من الفرس غير منازع، غير أن ما يعنينا بخاصة من أمر هؤلاء الدراويش، هو وسيلتهم التى يتخذونها لتحقيق الغاية من شرعتهم فالمولوية يستعينون بالرقص والموسيقى على تحريك النشوة الدينية فى نفوسهم، وإذكاء نار الحب الإلهى فى قلوبهم، وللناى عندهم منزلة لا تسامى، وقد قال فيه جلال الدين الرومى شعرًا جميلاً منه هذه الأبيات: «استمع للناى عذب الشكاة موصول الأنين فإنما يشكو الفراق وآلام النوى. وكأنه يقول، لقد انتزعت من قصبائى فتوجع لى كل من سمع بكائى، ولقلب أن يتصدع ويتفطر ليفهم شوقًا يعذبنى ويضنينى، وما عجب أن يحن كل ناء عن مستقره إلى عهد مضى وأيام خلت. ليس فى الناى ريح تتردد، ولكنها نار للحب تستعر، فلا كان ذلك القلب الذى خلا من حرّها! والناى مؤانس ومسامر لمهجور ومفارق، فقد هتكت أنغامه كل ستر، فبرح الخفاء وانكشف كل سر».

ومن مستطرف أمر المولوية، اجتماعهم فى تكيتهم لإقامة طقوسهم المذهبية، فهم يحتشدون فيما يسمى «سماع خانه» أى بيت السماع، وهو بهو واسع مستدير يلتف حوله حاجز يقف المشاهدون خلفه، وفى صدر المكان موضع للضاربين بالمعازف ومقصورة للنساء، فيدخل الدراويش بقلانسهم الطويلة، وقمصانهم البيض وسراويلهم غير

الفضفاضة، وبعد التسليم على شيخهم، يرفعون أذرعهم، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى، وراحة اليسرى إلى أسفل. ويحن الناى وترن القيثارة وتقرع الطبول، فيشدون أقدامهم وهم حفاة حتى يقفوا على أطراف أصابعهم، ثم يدورون بخفة وسرعة كما تدور الرحى حول قطبها، وبعد مدة يصلون على النبى ﷺ، وتقف حركتهم ويضعون أيديهم على صدورهم، ثم يحنون قاماتهم، وبذلك تنتهى رقصتهم التى يعاودونها بعد ذلك مرتين.

ولا ريب أن الأنغام تبعث فى النفوس هزة طرب تتبعها هزة فى الأعضاء، فتكون هذه الحركات التى تعتبر رقصًا، ولهذا الرقص معنى رمزى يشرحه جلال الدين بقوله: «إذا ما ذكرت البحر وأمواجه. فأنت فى واقع الأمر لا تذكر شيئين متباينين، فالأمواج هى البحر فى ارتفاع وانخفاض، والموج بعد الهبوط إلى البحر يعود، ومثل البحر مثل بنى الإنسان فما هم إلا أمواج الله، فإليه بعد الممات مرجعهم!».

ويحكى عن السلطان سليم أنه كان ذات يوم مارًا من إقليم قرامان ومعه كمال باشا زاده فراعته الأعاصير التى يكثر هبوبها فى هذه المنطقة وتعجب من ذلك. فقال له الباشا إن قونية عاصمة لهذا الإقليم، وهى التى سكنها مولانا جلال الدين الرومى، ولذلك فإن كل ما فيها من تلال وأحجار وغبار يرقص رقصة المولوية!

وقال الشاعر فهيم فى غلام مولوى راقص: «آهٍ منك أيها المولوى الوسيم آه. فإن لعينك الوطفاء من الأهداب خناجر تسفك دمى! أيها الكافر القاسى، ما كنت أعلم قبل رؤية ذؤابتك الفاتنة أن المنطقة فى وسط المولوى كالزنار عند المجوسى. وإذا حركت ذراعيك، واختلبت القلوب برقصاتك ففى صميم روحى أسنة من نظراتك، بالله مرحمة يا بدر التم ففهيم فى أسرك دائم الأنين».

ومن عقائدهم أن الله خلق عالم الأرواح قبل عالم الأجسام، وجعل روح النبى الكريم فى وعاء من نور على هيئة تلك القلنسوة التى يلبسونها، ويعزون بها هذه الذكرى، ولرئيس المولوية منزلة عظيمة تتلو منزلة شيخ الإسلام، وقد جرت العادة بتتويج سلاطين آل عثمان فى مسجد أبى أيوب الأنصارى باستانبول، فكان رئيس المولوية هو الذى يتولى ذلك ويقدم إلى السلطان سيفًا أثريًا هو سيف عثمان.

وإذا عرف المولوية بالدراويش الراقصين، فهناك فرقة أخرى يقال لها الرفاعية وتعرف بفرقة الدراويش الصائحين، وهم يلبسون السواد ويفضلونه على غيره من الألوان، وكانوا يعقدون اجتماعهم عصر كل يوم ثلاثاء، فيجلس شيخهم على سجادة أمام المحراب بين

مبخرتين ينفح الطيب منهما، ويصطف مريدوه أمامه، فيرتلون ما تيسر من آى الذكر الحكيم، ويترنمون بعد ذلك بقراءة خاصة بهم وهم يهزون رءوسهم هزًا شديدًا، ثم تدق الطبول والصنوج، ويرفع الدراويش عقيرتهم بقولهم: «الله أكبر، يا الله، يا هو» ويشير إليهم شيخهم فيذكرون أسماء الله الحسنى، ويتساندون بوضع أيدى بعضهم على أكتاف بعضهم الآخر. ثم يصيحون قائلين: «الله هو» حتى يتصبب العرق من جباههم، ويقع الخشوع فى قلوبهم فيفقدون وعيهم، ومن المألوف أن يتوجه إليهم جمع من المتبركين والزمنى، فينسطحون على الأرض أمامهم ويرجون منهم أن يطأوا أجسامهم بأقدامهم، أملاً فى الشفاء من الأوجاع، فكأى من عليل يلتمس الخير والبركة من قدم الدرويش، وأم ترقد ولدها الكسيح وتقول إن الوطأة المباركة لا تؤلم الطفل ولا تبكيه! وكان الرفاعية قديمًا يعلقون في جدران تكاياهم مدى وقضبانًا من حديد، ليحموها فى النار حتى تحمر ثم يضربون بها صدورهم أو يخزون وجوههم.

وهناك فرقة تعرف بالترلاقية، ودراويشها متقشفون إلى أبعد أمد، فهم لا يذوقون لحمًا ولا سمكًا، ويقتاتون بالأعشاب، أما النساء فلا يقربوهن، ومن عجيب أمرهم أنهم يسيرون عراة من غير شىء يستر جسومهم، وقد شوهد أحدهم متجولاً فى أحد شوارع استانبول سنة ١٨٨٩م، فهرع إليه العوام من كل صوب ملتمسين البركة وهم يلمسون جسده العارى، وقد ساء ذلك بعض السفراء فى المدينة وضجّوا منه بالشكوى، فقبض على الدرويش وأمر بأن يتوارى فى إحدى التكايا. وقد كثرت الأراجيف والأقاويل حول سيرة هذه الجماعة، فحلتها السلطات وكان ذلك فى أواخر القرن الماضى.

أما المعروفون بالبكتاشية فينتسبون إلى حاجى بكتاش الذى رحل إلى الأناضول فى القرن الثامن الهجرى، وزاره السلطان أورخان فى صومعته ملتمسًا منه البركات والدعوات يوم ألف فرقة جديدة من الجند سماها الانكشارية، فباركه وباركها، ويسمى الانكشارية (أولاد حاجى بكتاش)، وهم أوقر الدراويش عقلاً، وأغزرهم علمًا، وقد توفروا على الدراسات الفلسفية والسياسية والعلمية، وانضم بعضهم إلى حزب الأحرار وتركيا الفتاة يوم ثار الترك على السلطان عبد الحميد مطالبين بالدستور سنة ١٩٠٨م فأظهروا كياسة وحسن سياسة، وكان السلطان يوجس خيفة من يقظتهم ونهضتهم، ويبث الجواسيس عليهم. وهم يشاركون فى الحركات العامة منذ قديم، فقد كان منهم من صحب السلطان محمد الفاتح فى حملته على القسطنطينية عام ١٤٥٣م وقيل إن رئيسًا من رؤسائهم يقال له فاضل بك، رحل إلى باريس فى أوائل القرن الثامن عشر، وهناك عرف فولتير وغيره من أعلام الفكر، فوعى

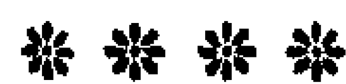
عنهم تعاليمهم وعاد إلى بلاده بعد غيبة طويلة فبث فى البكتاشية روحًا متوقدة، وآراء حرة. وكان من هؤلاء البكتاشية فريق ضمن تلك الفرقة العسكرية المعروفة بالانكشارية.

ولهم قصة مستملحة مع السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩م، وهى تدل واضح الدلالة على تميزهم بالعقل والرأى من غيرهم من الدراويش، فقد حدث أن أوغر بعض أعدائهم صدر السلطان عليهم، وزينوا له أن يحل جماعتهم، غير أن السلطان تمهل قبل الإقدام على مثل هذا الأمر.

وأولم وليمة عظيمة دعا إليها رؤساء الدراويش جميعًا فى استانبول. وقدمت إليهم صحاف الأرز، إلا أن الملاعق التى جعلت أمامهم لتناول الطعام بها كانت كبيرة مفرطة فى الكبر. فقد بلغ طول الواحدة أكثر من ذراعين، فتبادل الدراويش النظر وبدت الحيرة على وجوههم، ولم يعرفوا كيف يأكلون بهذه الملاعق التى لا يمكن أن تصلح لتناول الطعام بها، فقال لهم السلطان فى ذلك وسألهم ما بالهم لا يأكلون الأرز، فأسقط فى يدهم ولم يحيروا جوابًا، ولما رأى البكتاشية أنهم فى مأزق متضايق، اغترفوا الأرز بملاعقهم الكبيرة، ومد كل منهم ملعقته عبر المائدة إلى صاحبه وجعلوا يأكلون. ولما رأى السلطان ذلك من حيلتهم صفق متهللاً وقال: «لله دركم أيها البكتاشية، ما أعقلكم والله لن أحل جماعتكم من أجل هؤلاء الأغبياء!».

ولدينا قصة أخرى تنهض برهانًا على جرأتهم فى الحق، ورغبتهم الأكيدة فى إصلاح المنكر أو ما يعتقدون أنه المنكر، فلما قام السلطان محمود الثانى بإصلاحاته المعروفة فى التاريخ التركى (بالتنظيمات) ثارت لذلك حفيظة بعض رجال الدين ومنهم البكتاشية، وبينما كان السلطان مارًا فى استانبول، انطلق إليه درويش بكتاشى فقبض على زمام فرسه حتى أوقفه وقال فى وجهه: «أيها السلطان الكافر، أما كفاك ما اقترفت يداك؟ لقد أفسدت الدين، وسيلعننا رسول الله!» فالتفت أحد أتباع السلطان قائلاً: «إنه مجنون يا مولاى وليس عليه حرج» وما سمع الدرويش ذلك حتى احتدم غيظًا وقال: «كلا، لست بمجنون، أت المجنون أيها السلطان الكافر، إن الله يتكلم بلسانى، وسيزين رأسى تاج الشهداء ما دمت قوّالاً بالحق».

فقال السلطان: «حسنًا زينوا رأسه بتاج المجد»، ففهم من ذلك حكمه عليه بالموت.



الترك فى حمّاماتهم

الحمامات سمة من سمات الحياة الشرقية على العموم، والتركية على الخصوص، وقد زخرت مدينة استانبول بالعدد الوفير منها ووجد الجوابون فيها تلك المشاهد التى تروى نفسًا ظمأى إلى رؤية العجيب، وتقر بها عين تواقة إلى المزيد من كل جديد، أما الكاتبون فاستقوا منها صحفات تفيض رقة وعذوبة، وتحدثوا عنها حديثًا طليًا كأنه يجرى على ألسنة الحور العين وجميلات الأساطير. وإذا ذكرنا هذه الحمامات فنحن لا محالة ذاكرون بها قولة من قال: إن رقى الأمم وتقدمها على قدر عنايتها بالتنظف والتطهر.

ولنا أن نميز الحمامات الخاصة من العامة، فكان لوجوه القوم حمامات تأنقوا فى تشييدها وتزيينها، أما السلاطين فى قصورهم، فخصوا أنفسهم بحمام كما خصوا كل حظية من حظاياهم وجعلوا هذه الحمامات آيات حسن وفن بقبابها العالية، ونافوراتها الجارية، وأرائكها المخملية، ومرمرها الناصع الذى يغمرها بنور حالم كنور القمر، يلتمع فيه ذهب الأباريق والكيزان. ولنضرب المثل بحمام السلطان مراد الرابع الذى وصفه أوليا أفندى سنة ١٦٣٥م فقال: «ختمت القرآن ذات ليلة فكان من سعد طالعى أن أحظى بمشاهدة الحمام السلطانى، وهو حمام ليس له من شبيه فى الدنيا بما وسعت. فماؤه الدافق يجرى فى كل الجنبات من الحياض والنافورات، مناسبًا فى أنابيب الذهب والفضة، وإن هذين المعدنين النفيسين يزينان تلك الحياض التى تنصب فيها المياه وتتجمع، والعجب أن الأنبوبة الواحدة تمج من الماء ما هو حار وما هو بارد، أما إفريز الحمام فمن رخام تزاحمت عليه الألوان يبهر الأبصار، وقد عطرت جدرانه بالعنبر والمسك، ونضح عليها ماء الورد، ونفح الطيب من مباخر لا تخبو جمراتها وتسربت الأضواء من نوافذ بهية منقوشة، أما مقصورة اللبس فقد صفّت فيها مقاعد من تبر ولجين، وكان هذا الحمام على ربوة فكأنه يمس الجوزاء فى عليائها بقبة عظيمة من الرخام اللامع وكل نافذة له على البحر مطلة. وللمطربين غرفة إلى جانب باب المقصورة».

ويحكى عن السلطان محمود الأول المتوفى سنة ١٧٥٤م، أنه كان مولعًا شديد الولوع بحريمه، محبًا لتسريح الطرف فى محاسن النساء ومفاتنهن، فطلب ذلك يومًا بحيلة لا نعدم فيها الطرافة والفكاهة، واختار مكانًا مرتفعًا يخفيه ليشرف على الحمام ويرى من فيه من حيث لا يُرى، وتلبث فى مكمنه برهة حتى دخلت الملاح، ومنحت كل منهن غلالة رقيقة من حرير عند دخولها على مألوف العادة، ولبستها على جسدها العادى حتى إذا تندت عرقًا، كشفت عما كانت تستره بعض الستر، فامتد بصر السلطان وخفق قلبه، غير أن

متعته لم تكن لتنتهى عند هذا الحد، لأنه أوصى بأن تكون هذه الغلائل مغروة لا مخيطة، وكان يداخله من الطرب ما لا مزيد عليه إذا صهرت حرارة الحمام ذلك الغراء الذى يمسك شقى غلائل الحسان، فيتملى منهن حسن الزهرات البيض تفتقت عنها الأكمام.

وما دمنا نذكر السلاطين فى حماماتهم فلا بأس أن يتغلغل بنا القول إلى الشاعر التركى أحمدى المتوفى سنة ١٤١٢م والذى التقى بالعاهل تيمورلنك فى مدينة أماسية، فقربه إليه ورفع منزلته لأنه كان مشغوفًا بالشعراء مكرمًا لأهل الأدب. فقال يومًا للشاعر وهو فى الحمام: «قوّم لى هؤلاء الولدان بثمن»، فقال أحمدى: إن بعضهم يساوى ملء الأرض ذهبًا وفضة، وبعضهم الآخر يساوى خراج مصر إذا أدته درًا وجوهرًا. ثم سأله تيمورلنك وقد انتفخ زهوًا: «إن كان هذا ثمن الولدان فماذا يكون ثمنى أنا عندك؟ فأجاب أحمدى بقوله: «أنت عندى بثمانين دانقًا»، فأدركت العاهل حيرة، وألهبت وجهه غضبة، غير أنه ملك نفسه ولم يخرج عن طوره، وقال: «أنىَّ يكون ذلك وتلك المنشفة التى بيدى تساوى الثمن الذى ذكرت؟» فكان من جرأة الشاعر أن يقول: «هو هذا، فالثمن ثمن المنشفة، أنت لا تساوى شيئًا، لأن نفسك الأمارة بالسوء لا تعدل دانقًا».

وأعجب من هذا الكلام أن الطاغية كظم غيظه وأحسن جائزة الشاعر، فأعطاه الرضا وفوق الرضا، وكان الظن كل الظن أنه لا شك قاتله.

ومن شعراء الترك الماجنين من يدعى محمد شلبى ولقبه (الأخ المجنون) لخلاعته وغوايته، وقد كان من ندماء الأمير قورقود ابن السلطان با يزيد الثانى وصحبه فى رحلته إلى مصر، وقتل الأمير فأرمض الشاعر الحزن عليه، وانصرف عن الدنيا لانصرافها عنه ببشاشتها، وانزوى بإحدى التكايا فى مدينة بروسه ثم ابتنى فى استانبول مسجدًا وحمامًا عامًا، وكان هذا الحمام ملتقى لخلعاء هذه المدينة يسعون إليه للهو والقصف وقضاء اللبانات. وما مر خبر هذا الحمام بسمع الصدر الأعظم إبراهيم باشا حتى أمر مائة من الإنكشارية فسووه بالأرض هدمًا، فأنسى الخلعاء ذكرى محمد شلبى الذى مات سنة ١٥٣٤م.

وفى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، عهد الظلام والظلم، تناقل الترك من أبناء الشعب أقصوصة مستملحة يذكرون فيها الحمام، فيقول قائلهم إن السلطان عبد المجيد كان فى حمامه فى اليوم الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٤٢ فما راعه إلا أن يدق عليه بابه من يبشره بغلام اسمه عبد الحميد، ففرح عبد المجيد للبشرى غير أنه تأسف ألا يكون معه ساعتئذ ما ينبغى أن يدفعه إلى البشير من ذهب أو جوهر، فتطير بذلك وقال فى نفسه، ستكون أيام عبد الحميد أيام شؤم!.

وقال حكيم من الترك، يزع قومه عن مجانة الحمامات وما قد يفرط من بعض من يغشونها أو يغشينها: «إنما الحمام مجلبة للشر عليكم يا معشر الترك، ففيه تتشدقون بهراء لا طائل تحته وتلاعبون خدامه، فكنتم العار والشنار لأمتكم التركية التى فتحت البلاد وسادت العباد فى سالف الأيام. وفيه تقضى نساؤكم ساعات متطاولة وهن يتجاذبن أحاديث الهوى والفتون، ويطعمن ويحتسين من القهوة والشاى أكوابًا بعد أكواب، ولا كلام لهن إلا عن الترهات والخزعبلات، وهناك بنات الروم اللاتى يعلمهن غرام بنات الروم!».

وكان من جراء ذلك أن أصدر الصدر الأعظم محسن زاده سنة ١٧٦٨م أمرًا بمنع تشييد حمامات جديدة فى استانبول، محتجًا بأن هذا الصنيع سيوفر للناس الماء والأخشاب.

وكانت هذه الحمامات تفتح أبوابها للتركيات فى أيام السبت ولليونانيات فى أيام الأربعاء، أما بقية أيام الأسبوع فكانت للرجال. وجدير بالذكر أن الحمام كان لنساء الترك فى الغابر بمثابة الملهى فى الحاضر؛ فكن إذا عقدن العزم على الذهاب إليه، اتخذن لهذا الأمر أهبته، فصحبن جواريهن وأطفالهن، وأكوامًا من ثيابهن، ولم يفتهن أن يحضرن كل أدوات الزينة، ويتزودن زادًا كثيرًا، فيحملن معهن سلال الفاكهة وصحاف الطعام وأقداح الشراب لقضاء صدر النهار أو طول النهار فى الحمام. فإذا اجتزن الباب استقبلتهن سيدة ذات سن هى القائمة بأمر الحمام. فتحييهن ببسمة مشرقة وترحب بهن ترحيبًا حارًا بعبارات معسولة، وهناك يدخلن مقصورة يتجردن فيها من ثيابهن، ثم يزايلنها إلى بهو واسع تتردد تحت قبته رنات الضحكات وأصداء المكالمات، حتى إذا قضين من الاغتسال حاجتهن، دخلن مقصورة أخرى طيبة النسيم، فارتدين بعض أرديتهن وجلسن على الأرائك أو تربعن على الحشايا، وأسلمن شعرهن للجوارى فتناولنه بالترجيل والضفر والتسكين، وسكبن العطور عليه سكبًا، ثم يمددن أيديهن لتخضب أناملهن وأكفهن بحمرة الحناء.

وإذا ما تم لهن ذلك تحلقت أسرابهن حول الطعام فأصبن من ألوانه المتعددة، أو خضمن فاكهة لذة للآكلين. ويندر ألا يكون بينهن من لا تدخن دخينتها، أو تنفث السحائب من نارجيلتها. أما حديثهن فطويل طويل، وهو يدور أبدًا حول محور واحد هو الزواج وما فيه من وفاق وشقاق، وما أكثر ما يتم الاتفاق على تزويج الصبايا، واختيار بارعة الجمال زوجة لعظيم المال.. وجرت العادة بدخول الفتاة الحمام قبل ليلة عرسها، فتطوف حول النافورة فى موكب من أتراب يرفعن صوتهن الأغن بعذب الأغاريد. وقد برز جمالهن العارى فتألف منهن مشهد لا تصوره إلا عبقرية الشعراء.

أما المطافيل من النساء فكن يقمن فى الحمام مهوداً تدل على اتساع الحيلة، وذلك بأن يشددن حبلين إلى عمد الحمام، ويضعن على الحبلين وسادة وثيرة، فيرقدن الطفل ويهززن مهده حتى ينام. والجوارى فى الحمام يقطعنه جيئة وذهابًا، وعلى رءوسهن دست من ثياب، وفى أيديهن قوارير العطر، فيسعين إلى سيداتهن بما يشتهين، ويدرن عليهن أقداح القهوة والشراب. ومما يميزهن عن غيرهن أنهن لا يكشفن إلا عن صدورهن، ولا يجلبن الحسن بالتزين والتطرية.

ومن أصدق ما وصف به النساء فى الحمام أبيات قالتها سائحة إنجليزية شاعرة وهى: «هى ذى المليحة منسطحة على حشيتها المزركشة، وفى جبينها سهوم، ولعينها سجو الأحلام، لكأنها الزهرة المطلولة! وإلى جانبها ركعت جاريتها تصفف لامع طرتها، وتنثر قطرات العطر على وجه غمرته الرؤى، فتزيدها حسنًا إلى حسن وفتنة على فتنة».

* * * *

الأســــير

قصة للكاتب التركى عمر سيف الدين المتوفى سنة ١٩٢٠م وهو من كتاب الترك المجيدين أولى التبريز، وقد جرت عادة القصاصين من أهل زمانه بأن يتخذوا استانبول دون غيرها مسرحًا لقصتهم. وإليه يعزى فضل التجديد، لأنه أول خارج عن مألوفهم، فصور غيرها من البيئات، وافتتح جديدًا من الآفاق، كما مجد قومه وحيا أسلافه فيما كتب، وهذه القصة مثال لذلك.

كانت أكمة صغيرة على البحر مطلة، تناوح آفاقًا ليس لها من نهاية، فبدت فى رأى العين كما تبدو الخميلة ذات الأزاهير، وقد تموجت هيف الظلال لطويل الأغصان فى شجرات اللوز، ورفت على شعب يهبط منحدرًا إلى الساحل. وتحركت نسمات عذاب فى مقتبل الربيع أسكرت طير البحر، فاهتز الفضاء منها بصيحة المعربد النشوان. وهناك جاور أشجار اللوز بستان أفيح، وسال إلى الوادى جدار أبيض الحجارة قليل الارتفاع يحد خلفه مزرعة للزيتون. وقام فى وسط البستان كوخ متضائل خرب لا باب له يخرج منه شيخ مشرق الرأس واللحية بالبياض مرتعد اليدين والساقين، وجعل يرنو إلى بحر يلتقى بالسماء خلوه وسكونه حتى قال فى نفسه:

ـ خيرًا إن شاء الله! وتهالك على كومة من الأحجار فى نهاية الجدار جاعلاً رأسه بين راحتيه، وقد اكتسى ظهره سملاً رثًا هو غرارة خرقاء، وكأنما عجنت قدماه بالثرى، أما ذراعاه النحيلتان فكان لهما لون النحاس المتسخ، ثم رفع رأسه إلى حيث تنطبق السماء على الدأماء، وكأنه يرى ما لا عين ترى.

***

كان هذا المسكين أسيرًا تركيًا، يرى كل ليلة فيما يرى النائم أن السفائن قادمة لفكه من أسره، بعد أن سلخ فى الأسر أربعين عامًا أو تزيد، وقد وقع فى أسر قراصنة مالطة وهو بطل صنديد له من العمر ثلاثون عامًا، فعالج جذب المجاذيف فى سفنهم عشرين سنة، وعاش عشرين بعدها فى قاع السفينة الرطب موثق الساق بالحديد، وعجزت هذه الأعوام المتطاولة، بصيوفها وأشتيتها وشموسها ورياحها، عن أن تذيب له جسدًا كأنما أفرغ من الصم الصلاب، وبليت قيوده وتحطمت وأصلحت حلقاتها تكرارًا، غير أن بأسًا لم ينل ساقين له أشد من الحديد بأسًا! وشيء واحد كان يغمر نفسه بشديد الأسى وهو عجزه عن أن يتوضأ، فكان يجعل مشرق الشمس على يسرته، ويستقبل القبلة بوجهه. ليقيم بالإشارة صلواته الخمس سرًا.

ولما بلغ الخمسين من سنيه، زهد القراصنة فى وجوده عندهم وقالوا إنه لم يعد يصلح لتحريك المجاذيف، فباعوه فى إحدى الجزر، واشتراه أحد الزراع. ولم يكن يقدم إليه طعامًا سوى الخبز بلا أدم، وأمضى على هذه الحال عشرة من الأعوام، غير أنه طاب بذلك نفسًا، وحمد لله أن أطلق ساقه من أصفادها، فتمكن من الوضوء وعرف قبلته فاتجه إليها، وصلى بآيات لم ينسها ودعا ربه. وكان قصارى أمله أن يعود إلى وطنه، ولم ينفض يده من هذا الأمل طوال أعوام ثلاثين وهو يقول: «إذا اعتقدت أنى سأبعث حيًا، فأنا كذلك معتقد أنى أعود إلى وطنى».

وكان من أوسع الملاحين الترك شهرة وأشرفهم سيرة، وقد اجتاز بوغاز جبل طارق وهو فى العشرين متجهًا إلى الشمال الشرقى. ودامت رحلته شهورًا دون أن يرى الشاطىء، وتحصلت له الجزية من سحيق الجزر، وطالما أغرق كبير السفن وصغيرها وحده بزورقه الخفيف، كما دار اسمه على الألسنة كما تدور أسماء أبطال الأساطير.

وركب بحارًا فيها من الجليد جبال وجزائر، ودنياها غير دنيانا، لأن ليلها الرهيب نصف العام. أما زوجته فكانت من ذلك العالم العجيب الذى لا يعرف إلا ليلة طويلة ونهارًا طويلاً، وبنى عليها فى عرض البحر، وفى سفينة مفعمة بالذهب والفضة واللؤلؤ والماس، موقرة بالأسارى. وأنجبت له ولده «طورغود» وهو يمر بالدردنيل. ولم يمح كر الأيام مدينة استانبول من خياله، فكان على ذكر من أفقها وما يرتسم فيه من سامقات القباب والمآذن، ولما علت سِّنه ووهت قوته، رأى مولاه أن يعتقه فتركه نهبًا للجوع والشقاء هائمًا لا يلوى على شىء.

واهتدى الشيخ إلى هذا الكوخ الخرب فى البستان، فدخله وارتضاه مأوى له، وكان يهبط المدينة بين الفينة والفينة ليعمل بها، ثم يعود إلى كوخه برزق ضئيل.

واختلف الجديدان، فضعف الشيخ ولم تبق فيه بقية، وكره صاحب البستان بقاءه فى بستانه فأين يذهب؟

وعادته تلك الرؤى التى كان يراها من زمان بعيد، ويشاهد فيها مقدم الترك إلى جزيرته بسفائنهم، فمد يده النحيلة المعروقة إلى عينه يمسحها، وردد فى آفاق البحر بصره، وترجح عنده أنهم لا ريب قادمون. وقال إن حلمًا يراه هذا الزمن الطويل لا يمكن إلا أن يتحقق، ودخل كوخه، وانسطح على أرضه ثم أغمض عينيه.

وأشرق الربيع باسمًا فى كل الجنبات، فكأن الأمل فى بسمته المشرقة، وخيل إليه أن طير البحر تبشر بقدوم الترك، وهى ترسل الشجى من أصواتها، فأعارها السمع وهو فى الخيال يهيم.

وكانت خشاش الأرض وهوامها تخرج من شقوقها فى جدران الكوخ لتدخل ثوبه وتتواثب على بياض لحيته، ورأى الشيخ الأسير سفن الترك تدخل فرضة البحر، وتنزل منها كتائب الجند إلى الشاطىء، وعرف العلم الأحمر من بعد، والتماع الشمس على السيوف والتروس.

***

وهب من نومه وهو يقول: «ها هم أولاء أبناء الوطن، ها هم أولاء أبناء الوطن».

فقام ورمى ببصره إلى البحر، فرأى السفن القادمة بقلاعها العظيمة ومجاذيفها الكثيرة، فتغيرت سحنته وبرزت مقلته ووجب قلبه، ووضع يده على صدره، ها هى ذى سفن الترك تقترب رويدًا رويدًا. لم يصدق الشيخ عينه، وظن نفسه من الحالمين، وأراد أن يستوثق من يقظته فعض بنانه، ودق جبهته بحجر صغير! فتحقق واقتنع، ورأى فى اليقظة ما كان يرى فى المنام، تلك هى السفن تظهر الواحدة تلو الأخرى من وراء أنف الجبل، ولم تتماسك ساقاه عجبًا وفرحًا، فجثا راكعًا، وكانت كتائب الجند تتقدم نحو القلعة، رافعة حمر الأعلام، بعد انتظار الشيخ لها أربعين عامًا!

وفجأة سمعت فرقعة لعظامه، وانطلق فى طريق تظله شجرات مزهرات، وأخذ سمته إلى الشاطىء وجرى ما وسعه أن يجرى، ولما رآه الجند منطلقًا نحوهم قالوا:

ـ قف !

غير أن الشيخ لم يقف ورفع عقيرته قائلاً:

ـ أنا تركى.

ـ . . .

وانتظر الجند وصوله إليهم، فما وسعه إلا أن يعانق أولهم وعينه تفيض من الدمع، فتأثر كل من شاهده، ولما أعقب الجلبة بعض السكون سألوه قائلين:

ـ منذ كم وأنت أسير؟

ـ منذ أربعين سنة.

ـ من أى بلد أنت؟

ـ من ادره ميد.

ـ ما اسمك؟

ـ قارامش.

ـ أقبطان أنت؟

ـ نعم.

وماج الجند بعضهم فى بعض واختلط لغطهم، وتصايحوا قائلين: «أخبروا البك، أخبروا البك» وأخذوا بعضد الشيخ ومضوا به إلى ساحل البحر، وأركبوه زورقًا حمله إلى سفينة عظيمة، ولم يكن فيهم إلا من عرف مناقبه، وسمع بصيته الرنان.

وقد تلبث الشيخ قليلاً، وأذهلته الفرحة برؤية أبناء وطنه بعد طول الزمان وشدة الحنين، ثم منح قلنسوة وقباء وسراويل فما لبسها حتى قالوا له: «هيا بنا إلى البك!».

وسار فى صحبتهم إلى مؤخرة السفينة، حتى وجد نفسه أمام رجل ربعة، عظيم الشارب أسوده، يلبس زرد الحديد على ثيابه المزركشة.

ـ أأنت القبطان قارامش؟

ـ نعم أنا.

ـ أصادق أنت فيما تقول؟

ـ وما بالى أكذب!

ـ إذن، اكشف عن ذراعك.

وأخرج الشيخ ذراعه من تحت القباء وبسطها إلى البك، فبدت فيها ندبة عميقة لها شكل الصليب، وهى أثر جرح أصيب به يوم هرب بزوجته من تلك الجزيرة التى عامها ليلة واحدة يتلوها نهار. فما رأى ذلك البك حتى تناول يد الشيخ وأكب عليها يقبلها وهو يقول:

ـ أنا ولدك!

ـ أنت طورغود؟!

ـ نعم

ـ . . .

وقد استخف الشيخ الطرب حتى غاب عن حسه، فقال له ولده:

ـ أنا ماض إلى القتال، فابق فى السفينة واركن إلى الراحة والدعة.

ـ كلا. أنا معكم فى قتالكم.

ـ ولكنك هرم، علتك الكبرة ورق عظمك.

ـ نعم، غير أن لى قلبًا ما زال قويًا فتيًا.

ـ اقنع من ذلك بأن تشاهدنا، ولتسترح.

ـ إنى أحن إلى الهيجاء منذ أربعين سنة.

ـ ستغلب، وسيحزن الوطن افتقادك.

وأراد له البقاء فى السفينة، فاعتدلت قامة قرامش، وكأنما ارتدت إليه شبيبته، ولم يطق على البقاء صبرًا، فطلب السيف والترس، وأشار إلى علم السفينة الخفاق وهو يقول:

ـ إذا ما استشهدت، فلتجعلوا هذا غطاء على جثمانى. أليس الوطن حيث يخفق العلم؟

* * * *

مصــر فى الشعــر التركى

كان لبعض من شعراء الترك وفادات على مصر قبل الفتح التركى وبعده، فقدمها الأمير جم وهو شاعر أنيق الشعر رقيقه نزل ضيفًا على قايتباى أيام نازع العرش أخاه با يزيد وهاجت الحرب بينهما، وجاء مصر من الأمراء الشعراء، أخ للسلطان سليم يقال له الأمير قورقود، ومعه نديمه وشاعره الماجن محمد شلبى الذى كان شديد الاختصاص به لا يفارقه فى سفر ولا حضر، ولما تجهز السلطان سليم الأول لفتح مصر، لم تفته دعوة الشعراء إلى صحبته، ليكونوا رفقة معه تؤنس وحشته، ويتسلى بها من كل هم ملم. وهو من يعز العلماء ويكرم الشعراء، لأنه كان شاعرًا ديوانه ريحانة أهل الأدب.

ومن ندمائه الشعراء فى سفرته إلى مصر، إسحاق شلبى، وكان جهينة الأخبار حلو الأسمار كثير الأضاحيك راوية يستمدُّ من بحر لا ينفد، ومعه شاعران مزاحان ضحاكان لهما اتساع خبرة بأدب النديم، فكانوا ثلاثتهم يسامرون السلطان ويسرون عن نفسه ما قد يغشاها من هول خطب واقع أو متوقع. واتفق لهؤلاء الشعراء الثلاثة يومًا أن رفعوا التكلف كما لم يرفعوه من قبل، وتبسطوا مع مولاهم، ورأوا من الظرف والدعابة أن يمسوه بسيوفهم، فغضب السلطان عليهم وأكبر ذلك منهم، وبلغ به السخط أن يأمر بقتلهم، إلا أن الغضب سكت عنه فاستبدل بالقتل الضرب، ثم أحسن العفو عنهم، وجهد الشعراء أن يسترضوه فدخلوا عليه من الغد فى ثياب رثة منشدين شعرًا ماجنًا هزليًا، غير أن السلطان عبس وأشاح، وقال لهم: «أريدكم منادمين لا مضحكين».

وكان كمال باشا زاده من أتباع السلطان سليم، له عنده دالة وحظوة فاصطفاه رفيقًا له مقربًا، وكان شاعرًا عالمًا، فناط به أن يترجم كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وامتثل الباشا أمر السلطان، وأطلعه كل يوم على القدر الذى ينجز ترجمته من الكتاب، فما دخل سليم مصر إلا وهو على علم بتاريخها، وأخبار ملوكها.

والعجب أن أحدًا من كل هؤلاء الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم لم يخص مصر بشعر له فيما نعلم، اللهم إلا إذا استثنينا قول الأمير جم فى أبيات له بالفارسية أنه وعمود المقياس شبيهان، فهو غريق فى ماء الدمع والعمود غريق فى النهر، وقد ذكر النيل عرضًا فى شعره التركى وقال إن القناديل مصففة على شاطئه.

وللسلطان سليم بيت واحد فى ديوانه الفارسى وهو: «لى همة عالية جعلت من والى مصر عبدًا لى مخلصًا فى طاعتى، ومن ممالك تسع رفعت لوائى».

وليس بخاف أن تلك إشارات ضئيلة عابرة لا يعتد بها فى هذا الصدد، غير أننا إذا تجاوزنا عهد السلطان سليم وهو فى القرن السادس عشر، إلى القرن السابع عشر، ألفينا الولاية على مصر تسند إلى أيوب باشا، فيزايل استانبول لتسلم أزمة الحكم ومعه شاعر من بطانته يقال له فهيم. وليس فهيم هذا بالشاعر المرموق المكانة عند أهل الأدب من الترك، فبعضهم يطوى ذكره وهو يؤرخ الشعر التركى على أنه ضعيف الشأن خامل الذكر فى دولة البيان. والذى نرى أن هذا الشاعر المغمور مظلوم، فنحن لا نعدم فى شعره روعة وجودة، كما نرى له أهمية فنية وتاريخية، لأننا نجد عنده ما لا نجد عند غيره ممن تقدموا عليه فى الزمن، أو بذوه وبهرت أشعارهم أشعاره، فقد ذكر فهيم مصر، ووصف نيلها أجمل وصف فى قصيدة طويلة ذيلها بمدح الوالى أيوب باشا، ومنها:

«انظر بعين العبرة إلى حسن ما صنع الرحمن، لقد جاش هذا النيل وفاض، فكأنه من تخالجه شوق اللقاء. حمدًا لله، لقد سقطت على المقياس نقطة من قلم القدرة؛ فكأنها إنسان عين غمرها دمع الحنين. ونال من الوصال ما ينال العاشق الولهان، وارتسمت موجاته حلقات حلقات، ولسان حاله يقول: أنا من جن حبا، وتلك أغلالى وأصفادى. وما دام فى قلب النيل للهوى خفقات، فأى عجب أن ينطلق إلى البرارى والصحارى شأن محب ذهب عقله؟ ولئن كانت له هيئة من به جنة، فإن لقلبه صفاء مرآة ينعكس فيها الوجد والوجدان. النيل طغى وفاض كأنه الطوفان، وها هى ذى أمواجه ترتكض، ويلوح عليها أنها على أسنمة نياق تمضى بها. وانسابت الحيات العظيمات من ركن خفى إلهى تتثنى وتتلوى، حتى انسلت إلى منعطفات المزارع وهى تمج لعابها. ما أعظمها حكمة وأعجبها معجزة. فإن لهذه الحيات لعابًا يحيى الأرض بعد موتها، لقد انكشف السر الذى يخرج الحى من الميت. فتأمل ماء الحياة منبجسًا منها.

وبدت فى وسط النيل نخلات ما أشبههن بسرب من الحسان يبتردن، وقد ثارت رءوسهن وتفرقت شعورهن. وما رأى الزراع للنيل تيارًا حتى نثروا الحب، فنصبوا بذلك الحب شباكًا لطير الرزق، ولما فاض وكثر ماؤه، طفح وعاؤه، فخرج عن طوره وثارت ثائرته وبسط لسان القدح فى البحر!».

فهذا شعر تستعصى روعته على الترجمة وجمال تشبيهاته فى حدود الغاية، وقد تزاحمت معانيه وغمرته نفحة صوفية تعددت رموزها. وإنه لتصوير جميل للنيل زمن فيضانه، فهو فى خيال الشاعر محب مشتاق يقدم من بعيد ويرتجى وصل الحبيب، ثم يوصف متدفقًا بالخصب والحياة حتى يرتمى فى البحر، وشاعرنا موفق عظيم التوفيق فى

تشبيهه للزراع وهم يخططون أرضهم وينثرون فيها الحب، بمن ينصب الشباك لطير الرزق.

وهذه القصيدة مثال جيد لفن فهيم، الذى عاش فى بداية عصر يعرف فى الأدب التركى بعصر التحول، أى التحول من عصر قديم كان شعراؤه يلزمون أنفسهم طرق المعانى الصوفية، إلى عصر تحرروا فيه من هذا التصوف بعض التحرر، فتحدثوا عما يقع تحت حسهم وعبروا عن ذات نفسهم، فقد مزج التصوف وما فيه من أطياف وأحلام بالواقع الذى لا مجال فيه لريب ولا جدال.

وشاعرنا يخرج من كل هذا ليدخل على الوالى مادحًا، إلا أنه يعود إلى النيل متحدثًا عن الاحتفال السنوى بوفائه فيقول: «ومضى باليمن والإقبال، فشرفت بمقدمه مصر العليا، وعز القصر والإيوان، وتحلى النيل بالزين والزخارف. فكأنما تزينت زليخا للقاء بدر كنعان هذا المستوى على عرشه. وأصبح النيل عروسًا تمشط المواشط شعرها، وما أشبه القوارب على صفحته بأمشاط، والمجاذيف أسنانها. وبدت عروسان فى الوشى كأنهما ذيل طاووس، أو حوريتان من حور الجنة تتخطران وتنظران، لإخبار رضوان بأن فى الدنيا ما يشبه الجنان!».

والشاعر هنا وصاف بارع يتكئ أكثر ما يتكئ على تشبيه مبتكر يكسب شعره جمالاً وفتنة. وفهيم شديد التأثر بالنيل، فهو فى شعره كثير الذكر للأمواج والبحار والأمواه.

وقد ساءت فى مصر حال هذا الشاعر، لأن جفوة وقعت بينه وبين مولاه، فتنكر له وقطع كل سبب كان يربطه به. أما فى أى شيء كان غضب أيوب باشا عليه، فهذا ما سكت عنه المؤرخون. وأيًا ما كان فإن سوء حاله أثار فى نفسه السخط على مصر وأهلها، فلم تطب له مستقرًا؛ وردد فى شعره شكوى الفاقة ونكد العيش؛ فقال يومًا وهو سؤوم: «على عهد الله لا دخلت بعد اليوم من باب لمصر ولو قيل لى إنه باب الجنة، ولا شربت لها ماء؛ وإن أمرنى الخضر بأن أشرب منه ماء الحياة! ولو جعلت شمسًا ما اخترت البزوغ فى أفقها، ولو كنت قمرًا ما استمددت النور من شمسها. إن اليأس يخرس البلابل فى بساتينها؛ وللغربان نعيق يرن صداه فى طلولها. لقد شاهدت كثيرًا إلا أنى لم أشاهد فيها رجالاً، وما ذاك إلا لأن عينى غائمة من خمار خطوبها، وعلى بصرى غشاوة من ترابها. من دخل النار وصف لأهلها ما يخلع قلبهم رعبًا من عذابها، فلأداوم على أكل الخشخاش حتى تأخذنى سنة ونوم. ولا أفيق من غفلتى عنها».

فالشاعر حزين حزين، يستعين على العزاء ونسيان الغموم بنشوة لا يريد الإفاقة منها كراهة أن يراها أو يرى أهلها، غير أنه لم يدم على سوء ظنه بأهل مصر، لأنه وجد

منهـم من فك كربته وكشف غمته، فلما عقد العزم على الرحيل أعوزه المال، ورأى أن يلوذ برجل عريض الثراء يقال له معالى بك، كان سمحًا كريمًا يغيث اللهفان، فمدحه رجاء خير يصيبه منـه، ومـال يتزود بـه لرحلـته إلى استانبول، فأغدق عليه معالى بك من عطاياه وأجازه بجائزة سنية، ثم ألحقه بتلك القافلة التى كانت تحمل الخراج فى كل عام إلى السلطان.

وانطلق فهيم مع القافلة قافلاً إلى وطنه، وفى إحدى مدن الأناضول أصيب بالطاعون، ولم يمهله الموت حتى يفرح فرح الغريب بأوبة وتلاق، فما شاهد استانبول، ومات غريبًا بالأناضول كما عاش غريبًا فى مصر، وكان موته عام ١٦٤٥م.

وشاعر آخر من شعراء الترك سكن مصر أعوامًا عشرة وذكرها فى شعره، هو محمد عاكف المعروف فى تركيا بشاعر الإسلام، لأنه كان ذا نزعة دينية، فدعا إلى اتحاد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تحت راية القرآن، وفى جمهرة أشعاره تفسير لآية كريمة أو حديث شريف، ولنا أن نعتبره أول داع إلى ما يعرف بالجامعة الإسلامية فى شعر تركى محكم النسج رصين الأسلوب.

وقد شتا بمصر من عام ١٩٢٣م إلى عام ١٩٣٥م واتخذها مستقرًا له فلم يعد إلى استانبـول إلا سـنة ١٩٣٦م، وهـى السنة التى كانت وفاته فيها، كما طبع بمصر الجزء السابع مـن ديوانه المسمى (صفحات) وشغل نفسه طوال هذه الأعوام العشرة بتدريس التركية فى الجامعة المصرية، بعد أن تأكد الود بينه وبين الأمير عباس حليم باشا الذى بذل له القرى وأكرمه كثيرًا، أما الباعث له على الرحيل إلى مصر، فضيقه بالمقام فى تركيا، ويأس خيم على نفسه من حياة لا تدور أيامها ولياليها كما يهوى ويرضى، ومن ثم وجد الحاجة إلى سياحة فيها تفرج هم، وغرب لتتفتح عيناه على دنيا أخرى قد تكون من دنياه خيرًا وأبقى، ورأى فى ذلك إحياء الآمال، كما اعتبره جهادًا وسعيًا فى مناكب الأرض يذكره بقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾، وقد أورد هذه الآية فى تضاعيف رسالة له، منها: «كلا كلا، اليأس حس مشئوم أنكد، فلنباعد بينه وبين قلب عامر بالإيمان، وإذ ما خذل التوفيق إنسانًا، ومات فى سبيل أمل يحققه، فإن موته حياة أخرى. قيل لنملة تسعى، إلى أين؟ فقالت إلى الحج، قيل كيف تخرجين للحج على ضعف سوقك! فكان منها أن قالت: «إن حال ضعفى بينى وبين بلوغ بيت الله، فليكن فى السبيل إليه موتى».

وبين الشاعرين التركيين فهيم ومحمد عاكف وجها شبه، كبير وغير كبير، أما الوجه الأول فهو أنهما جميعًا وصفا النيل فى شعرهما، والثانى أن فهيمًا كره المقام فى مصر، أما محمد عاكف فكره أن يسكن القاهرة، وأبدى لذلك سببًا قد ندهش ونبسم له، فقال فى رسالة له بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٢٦م: «هبط مصر من الخارج يونان ويهود وأرمن وطليان وروس، وبهم جميعًا من جهد الفاقة ما لا يخفى. ثم أصبحوا اليوم من أهل الثراء والحول والطول. أما من جاء مصر فى بلادنا فإن بعضهم على حال نعوذ بالله منها!! وإنى لأحسب أن اعتكافى بمدينة حلوان، يعيننى على تحقيق رغبتى فى عدم مشاهدتهم حتى لا تذهب نفسى حسرات».

ولمحمد عاكف قصيدة عصماء بعنوان «فى الأقصر» يتغنى فيها بالنيل وآثار الفراعين فيقول: «النسيم راكد، وشدة القيظ لا تكاد تحتمل، أما الشمس، ففى الطفل. وقد انحدرت انحدارًا وئيدًا من ربوة كثيرة شجراتها. هو ذا الوادى المخضوضر يحتضن النيل، وموجاته الزمردية تمتد أمام ناظرى إلى غير نهاية، وهى تفور وتمور كأنها سراب الحياة. فما هذا القد الفارع البض وامتداده المديد الذى تعانقه الشمس من سمائها بعد أن عبرته من شرق إلى غرب. وكان على يسرتى نخلة وحيدة أويت إلى ظلالها المتفرقة المتخرقة. ما أبهج أن يمتد البصر من هذا المكان إلى الفضاء، وقد ارتفعت الدور على الشطين كالأجنحة. وإذا تأملت صدره البديع، حلق الخيال بك كل محلق فى عالم غير هذا العالم، ويبسم الوادى القديم وتبسم أمواهه ورغبتها أن تثب منه وتخرج عنه».

ثم يقف محمد عاكف عند هذا الحد من وصف النيل، ويردد النظر فيما تعمر به الأقصر من خرائب، فيناجيها ويناجى فيها مصر وأهلها الأقدمين: «تلك الهياكل التى ملأت منها العين صبحًا وجست خلالها، هى حرص عنيف ضعيف لهذا الإنسان على أن يكون من الخالدين! وأراد أن يرفع له فى الفضاء ظلاً ضئيلاً، فاتخذ من كل صخرة حجر قبر لألف حياة! أما هذه الأصنام، فقد أقام منها أشباحًا مخيفة أولئك الذين كانت الأرض تسجد عند أقدامهم، والعروش تهتز لتعبيس فى وجوههم. غير أن الزمن مد يد الكبرياء إلى هؤلاء الطغاة البغاة، فلم يبق منهم إلا أنف مجدوع أو ساعد مكسور. وامتلأ الرحب بأشلاء من الأنقاض لتكون عبرة لمعتبر، فما على الوجوه مهابة، وما فى الجباه غرور، ومحا البلى كل أثر للملامح والسمات!».

ولا يسترسل الشاعر فى وصف الآثار، وإنما يلتفت ثانية إلى النيل فى ساعة الأصيل فيقول: «والآن، أوشكت الشمس أن تنطفئ فارتعشت منها الأشعة فى الأفق، وركز

وميضها الأخير فى ماء النيل عموداً نورانياً هاجت له الأمواج وماجت. ثم اتخذت من الجبل ستاراً لها يحجبها، ومضت لتعرض الحسن فى آفاق أخر. وسكب المغرب روحه المعذبة وهو حزين وهبط الغسق على الأرض رويداً رويداً، وتربد وجه النيل فهو مصفر، أما عمود النور فهو داكن محمر».

وهكذا تغنى بمصر ونيلها شاعران تركيان، قديم مغمور ومحدث مشهور، والذى نميل إليه هو أن نيل فهيم أبهى وأجمل من نيل محمد عاكف.

* * * *

يقظة الليل

قصيدة من الشعر التركى العالى لجناب شهاب الدين بك المتوفى عام ١٩٣٤م، وكان فى بدء أمره يتلو تلو الأقدمين من شعراء الترك، حتى رحل إلى فرنسا طلبًا للطب، فاطلع على الأدب الفرنسى وتأثر به تأثرًا يتجلى فى هذا المثال من شعره الرقراق.

تعالى يا جميلتى، بالله ألا ما قربت مجلسك منى هذه الأمسية، لتسترقى السمع معى بأذن مصغية، فإن هذا الليل من حولنا يموج بالأنغام.

المعزف بعيد بعيد، وله حنين ورنين، لأن رقاق الأنامل تداعبه بلمسها الرفيق، فكأن أرواح الخريف تخفق ثم تخفق.

فاملأى مسمعيك يا حبتى من حنينه فى أغوار الليل الساكنة وجوف الظلمة الخرساء.

إذا أدرك هذه الأنغام لين ورقة، أو غشيتها للأسى وحشة وانكسار، ذكرت بها بلبل البستان وهو يرجع فى شدواته العذاب.

أما إذا ما عرتها هزة النشوة، فإن زفرة الوحدة تغمر كل ما فى هذا الكون النائم.

لمن تلك اليد المرتعشة التى ترسل لحنًا بعد لحن؟ ومن ذا الذى يرفع الصوت بذلك الغناء المحزون؟ وأين هذا المحبوب الهاجر الذى ينطق الأوتار باللحن الكسير على ذكراه؟ وأى مأتم يرتج بهذا النحيب؟

وذاك الصوت يدق ويرق، ويطيل فيه الليل بترجيع أصدائه فتصغى إليه ظلمات بها سكات، وقد يعلو ويدوى فيهتز الوجود وينخلع قلب الدنيا فأشهق شهقة تمضى عنى فى الليل المظلم جاهدة أن تحرك روح الصمت.

ثم ينخفض رويدًا رويدًا، ويتقطع كأنه يتلاشى ويمحى حتى يسكن سكونًا، وينقطع انقطاعًا، ولا يتبقى من هذه النغمات التى كانت تداعب السكينة إلا أنين خفى.

فمن يدرى ما تحكى هذه الزمزمة العابرة واللحون البواغم؟ ومن يفهم هذا الجرس الذى يطرق المسامع كألطف ما يكون الطرق وأعذبه؟

وما هذه الشكاة المترددة بألفاظها التى لم تتم وجملها التى لا تفيد معنى؟!

لعلها تستعطف الليل الساجى، أو تلتمس السلوة والعزاء، وتصنع ما يصنع النسيم إذا هب فنطق وطال منه ما يقول، ثم تنطلق من كل صوب تطير وهى بالآمال والخيال مفعمة.

أما إذا وهنت فهى كبقية الروح إذا ترددت فى صدر المحتضر، وما أشبهها بضعاف طير تتناوح.

هو ذا المعزف أسمعه من بعيد، وما أحسب إلا إحدى بنات حواء تضرب به وتناجيه، ثم تسأله فلا يرد عليها إلا بحزين اليأس.

اسمعي يا حبتى، فإنها هى الباكية التى تنتحب انتحابًا.

* * * *

الطبيعة
فى الشعر الفارسى والتركى

للشعراء شديد ميل إلى الطبيعة وفرط إعجاب بمحاسنها، وقلما يخلو ديوان شعر من ذكرها أو وصفها، فى قصيدة أو قصائد وبيت أو أبيات، ففى آفاقها الرحبة متسع لروح الشاعر إذا انطلقت كالطائر الغريد يخفق جناحه فيحوم على غدير رقراق ويقع على فنن مزهر مياد، وهى دنياه التى تحتوى عليه وتحيط به فلا يملك الخروج عنها، والمشاهد أنه يستوحيها معانيه ويصوغ منها زينة لبلاغته، فالجميل عنده روضة حسن غضة الزهرات يانعة الثمرات، والجواد بحر، والحليم طود، والمدامع أمطار، إلى آخر ما يجرى هذا المجرى. وإن ورودها فى الشعر ليلزمنا التفرقة بين الشعراء وتحديد الأسباب التى تربطها بها، فهم إزاءها شاعران، شاعر يكفيه منها نظرة عابرة تمر عليها مر النسيم ولا تردد فى نفسه إلا أصداء خافتة، وآخر يكرر البصر فيها ويستبيه حسنها، فيختص بها ويتخذ منها عروسًا للشعر. وفى مكنتنا أن نتبين ذلك جليًا، ونجعله أصلاً نفرع عليه فروعًا، إذا نظرنا فى شعر الفرس والترك، ضاربين الأمثال بشعرائهم، ومستقين الأمثلة من أشعارهم.

فمن شعراء الفرس فى القرن الخامس الهجرى شاعر مداح يقال له فرُّخى، وقد عاش فى كنف السلطان محمود الغزنوى وأمير من أولاده، كما أزلفه شعره عند الوزراء والكبراء، وليس بدعًا من مثله أن يكون المدح جل بضاعته، غير أنه كان يحلى أجياد مدائحه بأبيات حسان جمهرتها فى وصف الطبيعة، وقد جعل هذا الصنيع من حقه علينا أن نعتبره شاعرًا من شعرائها، لتلك الجودة التى يتميز بها، كما فى قوله يمدح السلطان ويصف سحابة: «وافت سحابة دكناء بعد أن مرت على صفحة بحر من الزرقة، وكأنى بها نفس العاشق فى فورتها، ومهجته الجياشة فى خفقتها، فأذرت ما كانت تمسك من مائها، وعلى أديم السماء تفرق بعضها عن بعضها، فكأن الفيلة تجمعت ثم تفرقت فى البيداء ذات السراب ولاحت السماء كما تلوح المرآة تحت الصدأ، أو الشعر الذهبى إذا انتثرت غدائره على حرير فى لون الفيروز. وكأن بحرًا أخضر عليه أفراخ العنقاء تطير».

فالشاعر موفق عظيم التوفيق فى رسم هذه الصورة للسماء المطرة بما يزدحم فيها من متباين الألون والشكول، كما وهب الحياة هذه السحابة إذ شبهها بقلب عاشق يحتدم لوعة. ويريد ليفيض مما هو ملىء به، واختار تشبيه بقاياها بالعنقاء لأنها منيعة تكبر أن تصاد. وقال أيضًا من قصيدة فى النوروز وهو عيد الربيع عند الفرس: «نتنسم ريح الربيع من

بستانك أيها البستانى، فاعطنا مفتاح بستانك لأن لنا به شأنًا فى الغد، وإذا ما قدم البلبل للقاء الربيع فيه، فاعلم بأن ضيفانك الكثر سيقدمون من غير دعوة، أما إذا أزهرت شجرات الورد فاعلم أن أريجها من طيب أحبابنا، وأن ربيع هذا العام لأجمل من ربيع مضى، وأجمل منه الغد، لأن السلطان يعود فيه من صيده، فليكن كل عيد بهذا الجلال ويوم بذاك الجمال له عيد نوروز».

وهو فى هذا الشعر يحدثنا حديثًا هادئًا طليًا، فلا يلزم نفسه تأنقًا ولا تعسفًا، ولا يقصد إلى تحديد للرسوم ولا توزيع للأصباغ، وإنما حديثه عن نفسه ووقع الربيع على حسه، والغرض واضح من جعل عيد الربيع مناسبة يفترصها لمدح مولاه وزف التهانى إليه. وقد جرت لشعراء الفرس عادة بتحية النوروز، فجرهم ذلك إلى وصف الربيع، إن إجمالاً أو تفصيلاً.

ومن أهل عصر فرخى، أبو القاسم الفردوسى، وهو صاحب الشاهنامه ـ أى كتاب الملوك ـ وهى منظومة من ستين ألف بيت جمع فيها تاريخ إيران منذ أقدم العصور إلى الفتح العربى.

والفردوسى فى الشاهنامه قصاص عظيم وراوية، إلا أنه كذلك شاعر متصرف فى كل فنون الشعر، فهو يروى الأخبار ويسرد التواريخ ولكن بلسان شاعر وبيان متفنن، ووصف الطبيعة من تلك الفنون التى لم تضق عنها شاعريته فهو الذى قال: «مازندران بلاد أحيا الله ذكراها، وأفعم بالعمران أرجاءها على مر الزمان، فرفت الأزاهير فى بساتينها، وأنواع الرياحين فى رباها ووديانها. وصدحت العنادل على غصونها، ورعت الغزلان فى مروجها. ودامت للنضرة بسمة على شطآن الغدران وطاب أن يصاد بالبازى فى كل مكان».

فهذا وصف ساذج للطبيعة فى بلد يدعو له الشاعر بدوام الربيع والخصب واستبحار العمران. ولا يعد هذا شيئًا إذا ذكرنا أن الفردوسى وصف شروق الشمس وغروبها فى ألفى بيت وأربعمائة. وله فى الشمس قرابة خمسة وعشرين وصفًا يغاير كل منها الآخر، وكأنه بذلك يدلل على أنه من أهل خراسان، فإن معنى خراسان بلد الشمس، ومن قوله فى وصف الغروب ومقدم الليل: «وانتشر لليل جيش كثيف فى البرارى والسهوب، فمد له بساطًا كجناح الغراب، وأصبحت السماء أشبه شىء بحسام يكسوه الصدأ، وسكتت نأمة الدنيا، وأدرك الشمس من الأين والأعياء ما أوهنها. وانعقد لسان الكون وأقصرت عن الكلام خيره و شره، فلا بلبل يئن، ولا دابة تحن!».

وكان السابق إلى الظن، أن يعجل الفردوسى عن الإجادة ويتخلف فى وصف الطبيعة لانسياقه مع حركة القصص، وترديد نظره فى سير الملوك والأبطال. والواقع من الأمر غير ذلك.

أما منوجهرى فهو شاعر السلطان مسعود الغزنوى المقتول سنة ٤٣٢ هجرية، وهو معروف فى الأدب الفارسى بتقليده الشعر العربى وشدة تأثره به، فقد حذا حذو امرىء القيس فى معلقته، والخيال العربى واضح فى شعره، كما أنه يعتبر شاعر الطبيعة بحق فهو وصاف لها يصيب صفاتها، ومفتون بها يتطربه جمالها. ومن وصفه لعاصفة قوله: «عصفت الريح وكان هبوبها من بابل، فحطمت الصم الصّلاب واقتلعت منيع القلاع، وكأنها السيل الجارف ينحط من رأس الجبل، ويحط معه الجلاميد من عل، وبات فى الأفق سحابة لها سواد الغراب وهيئة طائر من طيور البحر، بعد أن عبرت قمة الجبل الأشم. وومض البرق فيها بين الفينة والفينة، وعمر بالنور كونًا تغمره الظلمات، فكأن حديدة محماة يخرجها الحداد من كوره فى الليل البهيم. وقصف الرعد فانخلعت القلوب وانتصبت الشعرات كالإبر، وهز الأرض زلزال عنيف حتى خرت الجبال على جباهها. وسح المطر سحًا كما تتهاوى أوراق الورد فى البستان. وتدفقت سيول الصحراء من كل صوب، وقد تعوجت واحتفرت لها فى الأرض مجرى، وأرسلت من الخرير نغمًا موصولاً». والروعة ظاهرة فى تشبيه اشتداد الريح بسيل يجرف الصخور، ووميض البرق بالحديدة المحماة يخرجها القين من كوره فى ظلمة الليل. وله بيتان يصف فيهما طلوع الشمس وهما: «رفعت الشمس رأسها من وراء جبال البرز، فكأن قاتلاً يطل من مكمنه وفى وجهه دم القتيل، وما أشبهها بسراج خبا نوره، ولا ينفك صاحبه عن مده بالزيت».

فمنوجهرى وصاف يعمد أكثر ما يعمد إلى النحت والتجسيم، ولا يكتفى كغيره من الشعراء بالرسم والتلوين ويبتكر التشبيه ابتكارًا يكسبه جدة وخروجًا عن المألوف.

***

وجرى كذلك للطبيعة فى الشعر التركى ذكر طويل، وممن ترنم بمحاسنها شاعر يسمى نجاتى، وكان من شعراء السلطان محمد الفاتح، فامتدحه بقصيدتين مشهورتين، الأولى فى وصف الشتاء، والأخرى فى الربيع فقال: (وللثلج هبوط من السماء فكأن أرجالاً من الجراد تتهاوى، ألا يا قلب ويحك لا تؤمل الصفاء، إنه طائر أخضر القوادم والخوافى. والغمائم ابل جنت، فقد ألقت على الأرض أكفانًا ثم مضت عنها كما تمضى قافلة السرور والحبور.

أما الناس، فخرجوا بالمصابيح صبحًا يتفقدون شمسًا، وما وجدوا منها إلا شررة خفى لمعها، إنه السلطان محمد ولئن أرسلت الشمس شعاعها الذهبى وطفقت إلى يوم الحشر تمسح به بحره وتسبر غوره، لا تجد له من قاع ولا ساحل!) فقد أجاد الشاعر فى رسم صورة لإلباس الغيم الأرض وكان مبدعًا حين وصف الشمس ثم هبط منها إلى بحر ممدوحه. ومن قوله فى الربيع: (هو ذا الربيع يرد على الدنيا بهجتها وبسمتها، فكأنه لقاءالعشاق بعد طول الفراق. يقولون حان وقت رشف الكأس وفرحة الجذلان، فحذار ثم حذار أن يضيع منك هباء مع الهواء انظر إلى الغدير عذب الخرير، وهو ينساب فى الروضة كما تنساب الحية، لتداعب وجهه قدم جميلة هناك فى ظل الخميلة.. محمد بن مراد فخر السلاطين، إن النجوم من أتباعه والشمس رايته والبدر ركابه) فيا أسفًا على روحانية الشعر، ويا ضيعة الفن الرفيع إذا لم تنثر درره إلا فى حواشى المدائح. وإن قدم الحسناء فى الغدير لأبهى من قدم السلطان فى هلال السماء. وليت الشاعر فرغ للطبيعة وحدها، فقد شوه من جمال شعره فيها أنه لم يذكرها إلا لحقًا فى شعر المدح.

وفى طليعة شعرائها مسيحى المتوفى سنة ١٥١٢م. وقد كان هذا الرجل شاعرًا بطبعه يهيم فى الخيال، ويتبع أطياف الأوهام فيتهالك على اللذات ويضيق ذرعه عن حياة العمل والواقع. فمنحه الصدر الأعظم ضيعة ينفق من ريعها، وبوأه منصبًا فى الديوان، غير أن الشاعر أظهر من التهاون وسوء التدبير لأمور نيط به إنجازها، ما أسخط السلطان عليه، فنقص راتبه، وجهد مسيحى أن يرفع عنه السخط والبلاء فكان جهده هباء. وشعره مرآة نفسه ففيه النزعة إلى التحرر من كل قيد، والدعوة إلى اغتنام فرصة اللذات قبل فواتها فى دنيا نعيمها إلى زوال.

وله قصيدة مشهورة فى الربيع منها: «استمع للبلبل، إنه يزف البشرى بمقدم الربيع، فأفعم بالألحان كل بستان، وحيته أزهار اللوز فنثرت عليه من فضتها، فاشرب واطرب، ليس لأيام الربيع دوام! وتحلت الرياض والمروج من أفانين النوار، أما الأزاهير فرقدت ناعمة على أسرتها فى البساتين. آه من يدرى من منا يمتد به العمر حتى يشهد هذا الربيع قبل انقضائه! فاشرب واطرب، ليس لأيام الربيع دوام. بدت الورود كما تبدو الحسان حمر الخدود، وفى الآذان جواهر الأنداء. فلا يغرنك ما ترى من جمال مآله إلى الزوال. اشرب واطرب، ليس لأيام الربيع دوام. الغمامة تسكب اللآلىء كل أصبوحة، وتحمل الصبا من المسك أطيب النفحات. فلا تنس زينة الدنيا ولا تغفل عن متعتها. اشرب واطرب، ليس لأيام الربيع دوام».

فمسيحى ينطق عن هواه، ويستلهم الأزهار والأطيار من المعانى ما يردده فى خاطره ليعبر عنه بالشدو الجميل، فهو يمزج الطبيعة بروحه ولا يصفها وصفًا قائمًا بذاته منقطع الصلة بوجدانه.

وفى القرن السادس عشر استفاضت الشهرة لشاعر تركى يدعى لامعى، وكان شعر الطبيعة أخص ما عرف به ورفع ذكره، ومما يؤثر عنه أنه حفيد رسام، فكأنه أورثه دقة الحس ومحبة الجمال، كما كان درويشًا من فرقة النقشبندية، وله مناظرة شعرية بين الربيع والشتاء، وفيها يتحدث عن الخريف بقوله: «أقبل أيها الولهان المستهام، فالوقت وقت الغرام، ولتقض ساعة الوصال فى نسيم عذب للحقول. لقد أطل السفرجل شموسًا من غصونه بعد أن أنضجته الرياح وأكسبته من الألوان لون التبر، وتدلى من الكرمة عنقود كهيئة الثريا، واتخذت المروج لها حلة معصفرة من الأزاهير، أما الأشجار الذهبية فألقت على الأرض من ورقاتها قلائد العقيان».

فلامعى رسام يحسن أن ينقل إلى لوحته ما تشاهد عيناه، وإن فاته أن يصنع مثلما صنع مسيحى، فيشعر ويشرح شعوره ويحلم ويفسر أحلامه، ويثبت أنه من الكون بعض من كل.

وقد نظم شعراء الفرس والترك قصائد تسمى «بهاريه» نسبة إلى «بهار» وهو الربيع بالفارسية. وتغنوا فيها بجمال الطبيعة، غير أنهم ذيلوها بالمدح، وجعلوها وسيلة للغرض، وتباهوا فيها ببعد الشأو وطول الباع، فمنهم من أجاد، ومنهم من شوه الطبيعة بقبح الصناعة.



وطنية المرأة الإيرانية

للوطنية حديث قد يطول فى تحديد بواعثها وعرض المتعدد من صورها، وما همنا هنا سوى أن نتناولها من حيث دلالتها أوضح الدلالة على صاحبها، فإنها لا تنسب إلا إلى كل من كان على خلق عظيم، ولن نتصورها دون أن نتصور النفس الإنسانية فى أسمى درجاتها وأخص ما تتحلى به من إيثار كريم، ورغبة نبيلة فى الفداء، ورضا بالعناء أو حتى بالفناء فى سبيل أن يسعد الغير، ويرد عن الوطن كل شر، كما أنها جهاد فى الحق ونضال، واستشراف لأعلى المثل. وإذا كان للجماعة أن تعتز برجال فيها تجرى عليهم هذه الصفات، فهى ولا ريب أشد اعتزازًا بالنساء، لأن الزعم أنهن متخلفات عن الرجال فى العزم والهمة، وعليه فجهدهن جهد المقل وإحسانهن موضع عجب وإعجاب.

ومن الإيرانيات من أملين على التاريخ صفحات ناصعات فى الوطنية لا يطويها الزمان ولن يبليها، فلما ساءت الحال الداخلية فى إيران وعمتها الفوضى فى القرن الثامن عشر، أراد من يدعى أشرف الأفغانى أن يستأثر بالحكم ويجعل أزمته فى يده، فاستقر بمدينة أصفهان وأرسى دعائم ملكه فيها، ورأى الترك أن الإيرانيين تفرقهم الأهواء وتتقسمهم النزعات، فوجدوا الفرصة مواتية لقتالهم، وأنفذوا جيشًا تحت لواء القائد أحمد باشا فاستولوا على همذان واتخذوا أهبتهم لدخول أصفهان، إلا أن أشرف الأفغانى أعمل الحيلة وركن إلى الخديعة حتى يتمكن من أن يقتل منهم مقتلة عظيمة. ولما رأى أن الترك سيعيدون الكرة، وأنه لا طاقة له بهم، بعث بأربعة من علماء أهل السنة الأجلاء إلى معسكر أحمد باشا، ولما وقفوا فى حضرة القائد التركى قال قائلهم: «إن أشرف الأفغانى يقرأ عليك السلام ويقول إننا إخوتكم فى الدين، والتسنن مذهبنا ومذهبكم، وقد قضينا على الدولة الصفوية الشيعية، فكيف تقاتلوننا؟» فوقع هذا الكلام من نفس أحمد باشا موقعًا حسنًا، وأكد للعلماء الأربعة أنه لن يحارب الإيرانيين، غير أنه طلب الدخول تحت شرط، وهو أن تسمح إيران بإرسال ألفين من الفتيات إلى بلاد الترك للإفادة من حذقهن الفنى فى تعليم فنون النقش والتطريز ونسج السجاد. ونال أحمد باشا من أشرف الأفغانى بغيته، فما سمع الأفغانى بصنَّاعة فى المدينة إلا أمرها بالتوجه إلى معسكر الترك، حتى تجمع من الإيرانيات ذلك العدد المتفق عليه، وكان بينهن الكثيرات من سليلات علية القوم وبنات الملوك. فرحلن مع جيش الترك إلى استانبول كالأسيرات، وهناك ازدانت القصور بما نسجن من فاخر الطنافس، ورفلت حظيات السلاطين فيما طرزته أناملهن من وشى وديباج، وشاهد الترك للمرة الأولى جميل الرسوم والنقوش على بديع الأوانى، وتعلموا منهن النساجة والتطريز

والنقش وقد جلعت الإيرانيات على أنفسهن الإغضاء عن حراسهن من جنود الانكشارية الذين طالما جهدوا عبثًا أن يظفروا منهن بنظرة أو بسمة. كما رفضن بكبرياء وإباء كل من طلب لهن يدًا من أبناء الترك، وآثرن أن يضربن المثل للعفة الإيرانية، وتلك النخوة التى فرضت عليهن أن يحتفظن بكرامتهن، ولم يكن لهن من عزاء عن حياة الأسر والسخرة التى يحيينها سوى أن يسمعن الناس من حولهن وهم يشيدون بذكر إيران بلد الجمال والفن. وكم كان يطيب لهن ويرضى كبرياءهن أن يعتبرن مدللات على عظمة إيران معرفات بها. غير أن الغربة لم تنسهن الوطن الحبيب فكن يشتقنه ويتنسمن أخباره.

واتفق للقتال أن انتشب ثانية بين الأتراك والإيرانيين، فزحف نادر شاه على بغداد بجيش عظيم، بيد أنه نكص على عقبيه أمام الفئة الكثيرة والحصون المنيعة، ثم تلقى كتابًا من بنات قومه باستانبول جاء فيه قولهن: «يا ابن إيران البئيس، نحب أن نلفتك إلى أن فكنا من أسرنا خير وأجدى من مدائن تفتحها، وأخوف ما نخاف هو أن ينال أعراضنا من هؤلاء العثمانيين ما يسوء وطننا إيران ويذل كرامته، فنناشدك الله أن تتدارك أمرنا، لقد قمنا خير قيام بما يمليه علينا حق وطننا، فلم يبق إلا أن تؤدى الواجب غير منقوص».

وما أتم نادر شاه قراءة الكتاب حتى تحركت أعماق نفسه وفاضت من الدمع عينه، ثم امتلأ أنفة وحمية. فجمع فلول جنده، وألهبهم حماسة فانطلقوا إلى الميدان وعصفوا بالترك عصفة بددت شملهم وأذهبت ريحهم، ولما تهادن المتحاربون كان أول مطلب للإيرانيين هو إرجاع الفتيات إلى ديارهن، فعدن معززات مكرمات بعد غربة دامت نحوًا من عام. أما أبناء وطنهن فلم ينسوا جميلهن ولم يجحدوا فضلهن، فما زال أهل القرى حول مدينة كرمانشاه يحيون ذكراهن فى كل سنة، فيجتمعون ويقصفون ويمرحون منشدين أناشيدهم الشعبية، ومتخذين من ذلك عيدًا يسمونه «عيد بنات الأحرار». ويميل أهل إيران إلى أن يتسموا بالأحرار. وذلك أنفة من تسمية العرب لهم بالموالى والموالى هم العبيد فى بعض مدلولات الكلمة.

ولما قام الشعب الإيرانى بالثورة عام ١٩٠٨م مطالبًا بالدستور والحرية، وراغبًا إلى أولى الأمر منه أن يوقفوا الأجانب عند حد، ويحولوا بينهم وبين التدخل فى الخاص من شؤون البلاد، كانت المرأة فى هذه الثورة ظاهرة الأثر، تثبت وجودها أحسن إثبات، وتدلل على أنها ليست دون الرجال محبة للوطن، وقدرة على إبراز عاطفتها الوطنية. ويقول بعض مؤرخى الثورة، إن للنساء معظم الفضل فى إنجاحها، وذلك لمشاركتهن الفعالة فى تأريث نارها التى كشفت الظلمات وأنارت السبيل إلى حياة العز بعد الذل، والتقدم بعد التأخر.

وأحق النساء بالذكر فى هذا الزمان زينب باشا التبريزية، وكلانتر الطهرانية، فقد كان منهما أن عارضتا الحكومة معارضة شديدة عنيدة، وأفلحتا فى إثارة الخواطر ضدها. فأظهرتا من الثبات على الرأى شيئًا عجيبًا، ومن شجاعة النفس ما يجعل للحسد دبيبًا فى قلوب الشجعان. ويا طالما قادتا جماعات من النساء المتظاهرات وفى أيديهن عصى يلوحن بها، فمررن بالأسواق وطلبن إلى أصحاب المتاجر أن يغلقوها احتجاجًا على الحكومة وإظهارًا لتسخط صنيعها، فما كان يسع الرجال إلا أن يأتمروا بأمر النساء، وينتهوا عن نهيهن. كما كانوا يضمون صوتهم إلى صوتهن ويسيرون معهن فى حشود تمضى إلى قصر الشاه أو تقف بأعتاب الحكام ومن بيدهم الحل والعقد، وهناك تستنجز الحاجات وترتفع الشكايات، و تملى إرادة الشعب على حاكميه ويجرؤ المسودون على سادتهم. وقد استفاضت الشهرة لزينب باشا وكلانتر، فتغنى الشعراء بما لهما من مناقب، وامتدحوا ما اتصفتا به من فضائل. فجرى هذا الشعر على ألسنة المنشدين، ورتلته أصوات المغنين.

وفى مدينة تبريز تألف حزب نسائى باسم «جمعية النساء» ويرجع الفضل فى تأليفه إلى عقيلة من يدعى ميرزا على، وكان لهذا الحزب أهداف وطنية قومية، فقد أخذ أعضاؤه من النساء أنفسهن بأن يلقن أبناءهن مبادئ الثورة، ويؤيدن الثائرين فى مطالبهم ووجهات نظرهم، كما جعلن من ديدنهن حث المرأة الإيرانية على مقاطعة الأقمشة الأجنبية والاجتزاء بما تهيئه لهن أيد لبنات الوطن وأبنائه.

ولما توعد الروس باحتلال طهران إذا لم يخضع نواب الأمة لمطالبهم ويستكينوا لمطامعهم، قصدت فتاة تسمى شمس المعالى إلى أحد المساجد، فصعدت المنبر وخطبت الناس بما هز القلوب هزًا، ثم تحدثت بلسان بنات وطنها، فأنحت باللائمة على النواب واتهمتهم بالخضوع والخنوع أمام الروس، كما صرحت بأن النساء جميعًا على أتم الأهبة للبذل والفداء فى سبيل ظفر البلاد بحريتها ودستورها.

ولما قر القرار على إنشاء مصرف أهلى فى إيران، دخلت على لجنته المجتمعة إحدى السيدات وقدمت قرطًا لها مظهرة شديد أسفها على ضآلة قيمته، وملتمسة المعاذير لأنها لا تملك من النفائس ما تضحى به فى سبيل الوطن، فكان لذلك أبلغ الأثر فى النفوس، وحدا غيرها من النساء على التأسى بها وتأثر خطاها فشاركن بالنصيب الأوفى فى قرض وطنى.

وحين استعان محمد على شاه على الثوار بجند من الروس، فضربوا بمدافعهم دار مجلس الشورى ومسجد سبهسالار، انبرت للمعتدين من وجهت إليهم رقيق العتاب وشديد

الملام، وما زالت بهم تؤنبهم وتسفه أحلامهم حتى انثنوا عن قبيح ما كانوا يصنعون، وبلغ من فرط ندمهم وخجلهم أن طيبوا خاطرها وسألوها العفو والمعذرة.

ومما يروى أن نساء يبلغن الثلاثمائة عداً، أخذن سمتهن إلى دار مجلس الشورى، وهناك طلبن مقابلة الرئيس، غير أن الرئيس رفض ذلك وكرهه، ثم قرر أنه لا يسمح بالتحدث معه إلا لفريق صغير منهن، فما نقل للنساء ذلك الخبر حتى اقتحمن على النواب مجلسهم، فطرحن نقبهن وأبرزن أسلحتهن من تحت ثيابهن وقلن إنهن لن يترددن طرفة عين فى قتل أولادهن وأزواجهن من النواب إذا تخلفوا عن أداء الواجب وتلبية نداء الوطن، وبذل الجهد لإرجاع الحرية المغتصبة إلى الشعب وحفظ كرامته عليه، وختمن قولتهن بأنهن لا يخشين موتًا فى سبيل الوطن ويسعدهن أن يهلكن دونه.

ولن يفوتنا أن نذكر الصحافة التى جعلتها الإيرانيات وسيلة إلى الجدال عن الرأى، والتمييز بين الصلاح والطلاح، فتسابقت أقلامهن فى تدبيج المقالات والنداءات، وتحلت الجرائد والمجلات بما جادت به قرائحهن من نثير ونظيم.

* * * *

رثاء السلاطين

الناس فى كل زمان ومكان على ذكر محاسن موتاهم، ومن المألوف أنهم يكرمونهم فوق مقدارهم، وينسبون إليهم من صفات المدح بعد مماتهم ما لم ينسبوا فى حياتهم، ومرد ذلك إلى باعثين: أما أولهما: فالشعور بافتقاد المفتقد، وانقطاع ما يرجى من أفضاله وخيراته وحسناته وذلك إن كان عظيمًا على الخصوص، والثانى : لوعة الفراق وأسى الفجيعة وشدة الأسف التى تجعل بين الحى والميت من العاطفة شبه ما بين المحب الذى يتصور فى محبوبه حتى ما ليس فيه. وهل يمكن أن يأسف الإنسان إلا على ذاهب كان يرجو له البقاء، وزائل كان يتمنى له الدوام؟ فإذا أدركنا الرثاء بهذا المعنى ثم عرفناه بأنه مدح الميت، حق لنا أن ننظر فيما رثى به شعراء الترك سلاطينهم لنطلع على أفانين من القول ونتفهم ألوانًا من المعانى.

ومن أشهر المراثى فى الشعر التركى تلك المرثية التى رثى بها السلطان سليم الأول، وصاحبها كمال باشا زاده، ذلك الشاعر العالم الذى قيل عنه إنه علامة الخافقين ومفتى الثقلين. وقد أكرمه السلطان سليم وأدنى مجلسه، وصحبه فى غزوه للشام ومصر، فكانا خير صاحب ومصحوب، والظن بكمال باشا زاده أن يكون صادق اللهجة شديد اللوعة فى رثائه، وأن هذه المرثية صورة واضحة لشاعرها. ولمن قيلت فيه. فهى تظهر صاحبها رجلاً له عقل ورأى، صبورًا له صبر المؤمن المحتسب، يحزن ولكنه يستعين على حزنه بالكتمان، ويأخذ نفسه بتعداد مآثر السلطان لإظهار الفجيعة فيه، وينكر بذلك نفسه الحزينة إنكارًا يكاد يكون تامًا، فيقول: «هو فى عزمه فتى غرير وفى حزمه شيخ كبير، هو صاحب القلم وصاحب التدبير، هو قائد الجيوش فى الميدان، وفى أصالة الرأى كوزير سليمان، فلم تكن به من حاجة لا إلى وزير ولا إلى مشير، له خنجر من قلبه وصمصامة من يده، له الرمح من ذراعه والسهم من بنانه، لقد أنجز الكثير من المهام فى القليل من الأعوام، وامتد ظله بين الخافقين، وإذا كان فخر الملوك بالعروش والتيجان، فإن العرش والتاج به يفخران. كان شمس العصر، وشمس العصر طويل ظلها قصير زمانها. ما رأت الأفلاك له من ضريب فى ملاعب لهو ولا سوح وغى، فهو إذا خرج إلى إيوان الأنس والطرب شمس تنير، وإذا دخل ميدان الحرب أسد هصور. ألا فلتذكره الهيجاء، ولتبكه السيوف بالدماء، لقد قضى السلطان سليم، فوا أسفا عليه، وليبكه السيف واليراع جميعًا».

والقصيدة من الشاعرية ضئيل حظها لولا ذلك البيت المشهور الذى يشبه فيه السلطان المتوفى سنة ١٥٢٠م عن خمسين عامًا، بشمس الأصيل طويلة الظل قصيرة الأجل.

والشاعر حزين بعقله لا بقلبه فإنه لم يزد على أن مدح السلطان آسفًا على حزمه وعزمه، مبكيًا السيوف عليه بدمائها والأقلام بمدادها.

وكان نجاتى من هؤلاء الشعراء الذين بعد صيتهم وظهر أمرهم على عهد السلطان محمد الفاتح، فلما مات الفاتح وخلفه ولده با يزيد الثانى، اختار الشاعر مؤدبًا لولديه عبد الله ومحمود، وكان ذلك منه اعترافًا بفضله وإعلاء لمنزلته. وقام فى نفس با يزيد أن يولى ولده عبد الله إقليم قرامان، وامتثل الأمير أمر والده السلطان، ورحل إلى مقر ولايته، غير أن الوالى لم ينس مؤدبه وصفيه نجاتى الذى لازمه ولم يفارقه حتى جرى القضاء بأن يفرق الموت بينهما، فمات الأمير عبد الله فى قرامان.

ولنا أن نورد هنا أبياتًا رثاه بها نجاتى، وإن كان المتوفى أميرًا وليس بسلطان، إلا أننا لا نخرج عن صددنا خروجًا بعيدًا إذا راعينا أن الأمير سلطان باعتبار ما سيكون أو ما يمكن أن يكون. يقول نجاتى فى الأمير عبد الله: «أيها القلب، امح من كتاب المحبة ذكرك واسمك، ولتكن فى هذه الدنيا من الزاهدين، تنسك وتقشف لتمدح بذلك مع الممدوحين. أغمض الجفن عن بريق لوجه الدنيا، فإن الدموع لتجرى من عين كل محملق فى قرص الشمس، الفلك وعاء مقلوب على خوان الحياة، فما أصاب منه أحد قط ما كفاه وأرضاه، لقد تخرب الملك فلا الملك ملك قرامان، واختفى الكنز فلن يبدو للعيان».

فهذا الشعر فى ذم الزمان، ودعوة للرغبة عن الدنيا، وحض على رفضها من أجل ذلك النحس الذى تدور به أفلاكها والشاعر متطير حزين، لا يرى بعد موت صاحبه فى الحياة إلا حرمانًا وخرابًا، وإخفاء لكنوز كانت على وجه الأرض فأصبحت فى بطنها. وهذا الرثاء قليل الصلاحية لأن يسمى رثاء بالمعنى الصحيح. غير أن نجاتى شديد التعلق بهذا المنحى لا يبغى عنه حولاً، فقد قال ما يشبهه ويجرى مجراه يوم مات الأمير محمود فبكاه بقوله: «هذى دنيا الخراب والهموم والغموم، وهى دار شقوة وعناء، وإن سماها الواهمون دار سعادة وهناء. وإنا لمدرجون جميعًا فى الأكفان، وسواء فى ذلك صعلوك ومليك، ولو كان للقبر لسان وبيان لقال: هراء وبهتان، كل ما حدثتكم به يا بنى الإنسان، عن هذا الجبار الذى تسمونه بالحمام!».

فأين ذكر الميت فى هذا الكلام؟ الواقع من الأمر أن نجاتى يقف من الموت موقفه أمام سر مبهم وطلسم مغلق، فهو فى حيرة من أمره، عاجز عن التعريف والتعبير، وقانع بتصوير أثر الموت فى نفسه، وما يديره فى رأسه من أحلام وأوهام، وكأنما أذهله هول الخطب وشغله عن ذكر من يرثيه، اللهم إلا تلميحًا لا تصريحًا.

وفى تاريخ الترك مأساة فاجعة، وذكر الخبر عنها إجمالاً أنه كان للسلطان سليمان القانونى ولد يقال له الأمير مصطفى، كما كانت له زوجة روسية تدعى روكسلانا، بعيدة الهمة، عظيمة الدهاء، شديدة التسلط على زوجها السلطان.

فأحبت أن يكون العرش لابنها لا لمصطفى وارث العرش الشرعى، ورأت أن رغباها لا تتحقق إلا بموت مصطفى، فخدعت السلطان عن نفسه وألقت فى روعه أن ولده يريد قتله، وأعارها أذنًا واعية فأصدر الأمر بقتله، وكان مصطفى البرىء محبوبًا، فترددت فى البلاد رنة الأسى لموته، ورثاه شاعر من رجال الجيش هو يحيى بك المتوفى سنة ١٥٧٥م. وتعرف مرثيته بالمرثية المصطفوية، وكاد من أجلها يلقى مصير من بكاه، فقد استدعاه الصدر الأعظم رستم باشا، وخشن عليه فى القول مستنكرًا منه أن يتوجع لمن أمر السلطان بموته.

فرد يحيى بك بقوله: (نحن نلعنه مع السلطان وإن كنا نبكيه مع الرعية!) وجهد الصدر الأعظم أن يستصدر الأمر بقتله، إلا أن السلطان اكتفى بعزله من منصبه. ومن قوله فى رثاء الأمير: (ويلاه ويلاه ماذا دهانا. لقد انهار جانب من دنيانا، بعد ما كان من زبانية الردى، الذين قتلوا الأمير مصطفى، فكسفت شمس طلعته، وهو منقطع عن حماته وبطانته. إن حقد الحقود وإثم الكذوب وغدر الفاجر، ما أشعل للفراق نارًا، واستقطر من عيوننا أمطارًا، فيا ليت هذه العيون لم تكن، ولم تشاهد هول ما كان. إن النجوم الطوالع خفقـات وحرقات، وبلاد الترك والشام تفيض بالعبرات هو ذا الثعبان الرهيب يطوق عنقه وا حَرَّ قلباه، فكأنه الهالة! وقد ارتضى ما جرى القضاء به كيفما كان، والله إنه برىء الساحة ما عرف عنه قط من سوء، أيها الشهيد الطاهر، لقد منيت بجور جائر. أفسح الله له فى رحمته وأسكنه جنته. ودامت أيام مولانا على وجه الدنيا فى نعيم مقيم!).

والمرثية جيدة لا غبار عليها فى كل معنى من معانيها، غير أن الشاعر لم يحسن صنعًا بالدعاء للسلطان سليمان بعد الترحم على الأمير مصطفى، لأنه بذلك أفسد روحانية المرثية وضيع بعضًا من أثرها فى القلوب، فقد تمنى الخير لأب غليظ الكبد يقتل ولده، بعد أن رق للقتيل فبكى واستبكى، وعطف عليه واستعطف وأفعم النفوس كرهًا لأبيه، بقدر ما أفعمها ألمًا للفجيعة فيه، وهذا ما يسوء وقعه على الحس الأدبى، لأنه لا يوافق مقتضى الحال.

ولدينا شاعر رابع هو باقى المتوفى فى نهاية القرن السادس عشر والذى يعتبر أمير الشعر التركى فى العصر القديم، ونخصه بالذكر هنا لتلك القصيدة الطويلة التى رثى بها السلطان سليمان القانونى، ويذهب بعض مؤرخى الأدب التركى إلى أنها أجمل مرثية قيلت فى سلطان، وليس فى هذا شىء من الإغراق لأنها جمعت إلى جزالة لفظها وإحكام نسجها

كل عناصر المراثى، فهو يستهلها بتوجيه الكلام إلى القارئ أو السامع قائلاً: «أنت يا من تنشد الصيت البعيد وتطلب المجد التليد، فأصبحت من حرصك هذا فى القيود، إلام بزخرف الدنيا تعلقك، وحتام على لذاتها تهالكك؟ لا بد للحمرة فى خد زهرات الربيع، من صفرة كورقات الخريف، ولا بد من أن يكون مقرك الأخير، كهذه الثمالة التى تلقى، وذلك التراب الذى ينفض، ولسوف يصدع الزمان كأسًا تدار على الندامى فيتصدع الشمل الجميع. أما آن لعين أن تمسح عنها نعاس الغفلة!».

وكأن باقى فى قوله هذا يردد أصداء نجاتى. غير أنه رقيق الشاعرية مشرق الديباجة، ينبه بلطف ولا يزجر بعنف. مستعينًا بقريحة خصبة وخيال واسع على تزيين كلامه وتقديمه تقديمًا جميلاً يلفت الخواطر ويجذب إليه النفوس، حتى إذا اطمأن إلى ذلك أتى موضوعه من بابه فمضى يقول: «أليس لك عبرة فى حكم الزمان على سيد الحكام وفتى الفتيان وفارس الميدان، راكب المحجل الأغر الذى كانت الدنيا على اتساع رقعتها مسبحًا له فيه يصول ويجول، ويعدو ملء فروجه شامخًا برأسه. ذلك الذى رفع السيف الحسام الملتمع، فانخفضت أمامه رءوس المجر، وعرف الفرنجة من خبره ما عرفوا، لقد جعل وجهه فى التراب كورقة الورد. فتسلم خازن الأرض جوهرة يعتز كنزه بها. كانت أدنى عطية له تجعل الفقير الوقير غنيًا مليًا، هو كريم الكرام وعظيم الحكام. وعلى أعتابه كان الشعراء والعلماء يرقبون مناهم. لا تحسبنه ضاق ذرعًا بحدثان هذا الفلك الخؤون لقد كان خروجه عن ملكه وزهده فى عزه ومجده تقربًا منه لرب العالمين واختيارًا لجواره».

فقد وصف باقى سليمان القانونى فى كرمه وسماحته، وصوره فى الهيجاء بطلاً صنديدًا وفاتحًا مغوارًا أذل أعناق المجر على صلابتهم وشدة بأسهم، وأذاق الفرنجة من هول القتال ما تحدثت به ركبانهم، وبينما يظهره الشاعر لنا فى عظمته وجبروته، إذا به ينتقل بنا من نقيض إلى نقيض فيشبه وجهًا له أذبله الموت بورقة الورد الرقيقة أسقطتها زفرة النسيم فى التراب، ثم يحسن أن يعلل موته برغبته فى جوار ربه. وهذا ما يشهد للشاعر على ملكة أصيلة وطبع فياض. ثم يعبر عن وجده به وشدة حزنه عليه فيقول: «كأن سحائب الربيع حزنت لموتك مثلى وامتنع قرارها، فهامت فى الآفاق تذرى أدمعًا لها، فلتندبك أطيار السحر، ولتنح عليك وتملأ الدنيا نواحًا، ولتشق أزهار الروض جيوبها إلى جانب الهزار ذى الحنين والرنين، وإذا ما تناوح الزهر فى مأتمك فليبك ما شاء الله أن يبكى. أما الجبال فلتتحدر دموعها على سفوحها، أيها القلب، أنت من يسعدنى وعلى بلواى يعيننى، تعال نرفع من صوتنا ما يرفع الناى من صوته، وليسر بثنا فى نفوس المحزونين من أمثالنا».

ولا ريب أن التوفيق خذله فى هذه الأبيات بعض الخذلان لأنه يعيد مبتذلاً ويقول مكروراً. ويردد تلك المعانى التى يفسدها التكلف، ويشوه من حسنها شديد الإغراق، فلم يبق شاعر حزين لأمر ما، إلا وقد طلب إلى الطبيعة إسعاده فاستقطر الدمع من السحاب، واستبكى البلابل على الأغصان وتصور أن الورود تشق الجيوب، والذى يلوح هو أن هذه النغمة القديمة المملولة إن بدت هنا غير جميلة من (باقى)، فلأنه كان مبتكراً قبلها، محسناً كل الإحسان، وتخلفه اللاحق ظاهر بالإضافة إلى تقدمه السابق.

وإن كان يذكر السلطان الذى مات فى خيمة له بمعسكر ببلاد المجر فيقول: «لقد تنفس الفجر وانصدع عمود الصبح، فهل لسلطان السلاطين يقظة من رقدته؟ أو خروج كعادته من خيمته، تلك الخيمة الى كان يزينها ما يزين قبة السماء؟! لقد وقفنا وطال وقوفنا، وامتد إلى طريقه بصرنا، غير أنه ارتد حسيراً إلينا، فلم نشاهد له أثراً ولم نسمع عن موكبه العظيم خبراً! ويلاه إن هناك مثواه، وقد يبست شفتاه، وذبل خداه!».

فشاعرنا هنا مشبوب اللوعة يقرر الحقيقة ولا يعدوها، ويذكرها فى جو شعرى جميل، كما أنه لا يتخيل شيئًا وإنما يطلب إلى قارئه هذا التخيل الذى تذهب النفوس فيه مذاهب شتى. وإن هذه المرثية الرائعة لمثال جيد من شعر باقى أمير الشعراء.

***

والفرق واضح بين هؤلاء الشعراء الأربعة، فكمال باشا زاده يرثى سليمًا رثاء هو أشبه شىء بالرثاء الرسمى الذى تفرضه المناسبة فرضا. ونجاتى يتخذ من موت الأميرين ذريعة لشكوى الزمان والتعجب من صروفه. ويحيى بك يحسن الرثاء وإن كان لا يحسن الدعاء، أما باقى فمتأثر ومؤثر، لأنه لا يغفل التحدث عن نفسه والإفصاح عن عاطفته بعد أن تحدث عن السلطان سليمان، فكانت مرثيته كاملة عامرة.

* * * *

الفـرس فى أدب الغـــرب

عرف الغربيون الفرس منذ طويل زمان، والخبر اليقين عند التاريخ السياسى الذى ينبئنا بما كان بينهم من حروب، والتاريخ الأدبى الذى يسجل أثرهم فى أدب الأوربيين، ويبين كيف ذكرهم أهل الأدب فى آثارهم، فالذى نقصد إليه هنا هو تصور الفرس فى أدب الفرنجة مذكورين ومؤثرين، وتحديد ذلك ما وسعنا أن نحدده.

فقد هاجت الحرب بين اليونان وإيران على عهد الملك دارا يوم ثار اليونان فى آسيا الصغرى واستولوا عنوة على مدينة لملك الملوك، وأضرموا فيها النار تشفيًا وتنكيلاً، فأحفظ ذلك الملك دارا، حتى أنه أمر غلامه أن يذكره فى كل يوم بالثأر من الثائرين المعتدين، فقاتلهم وهزمهم وبدد شملهم ثم جهز جيشًا أنفذه إلى تراقيا ومقدونيا فكان الفتح مبينًا والنصر عظيمًا. وشاء أن يحاربهم بحرًا كما حاربهم برًا، إلا أن الفرس لم يصمدوا لليونان، ولم يف أجل دارا بإعادة الكرة ومحو عار الهزيمة. وخلفه ولده خشايارشا الذى أخذ نفسه بأن يسير فى الأعداء سيرة أبيه، فوجه إليهم جيشًا كموج البحر عبر الدردنيل وزحف صوب أثينا، وما أن وصل إليها حتى أحرق معبدها، واقتتل الفريقان أحر قتال فى بوغاز سلاميس فدارت الدائرة على الفرس بعد أن هبت عاصفة دمرت سفائنهم فى البحر تدميرًا. وقد اعتز اليونان بنصرهم هذا أيما اعتزاز، ومجدوه أيما تمجيد، ولا غرو فقد رد عادية الفرس عن أوربا وحال دون تحول التاريخ عن مجراه.

وفى عام ٤٢ قبل الميلاد أى بعد انتصار اليونان فى سلاميس بأعوام ثمانية، ألف الروائى اليونانى العظيم اسخيلوس تمثيلية «الفرس». وهو فيها يصور ما آلت إليه حالهم ماديًا ومعنويًا بعد أن كسرهم اليونان أبخس كسرة، فنشاهد فى التمثيلية جمعًا من رجال الدولة الفارسية بمدينة سوس أمام قبر الملك دارا، وقد اشتد قلقهم وجزعهم على جيشهم الذى انقطعت عنهم أخباره ولم يعرفوا شيئًا عما نزل به، فذهبت نفوسهم شعاعًا بعد أن حطم اليأس قلوبهم وران ظلامًا على أفكارهم. ثم تظهر أتوسا والدة الملك خشايارشا فى عربتها الملكية الضخمة الفخمة، وتلتفت إلى المجتمعين قاصة عليهم رؤيا رأتها فأفزعتها، مستفسرة عن معناها ودلالتها، ويدخل على القوم رسول ليتلو على مسامعهم نبأ الموقعة وما منى الفرس فيها من هلكة مبيرة وويل ودمار فيقول: «وارتفعت الجلبة من ناحية اليونان وكأنهم يترنمون بنشيد من أناشيدهم الدينية، فرددت الأصداء صخور الجزيرة وكان ترديدًا عاليًا داويًا. أما البرابرة المستيئسين فانخلعت قلوبهم لأن اليونان المغنين لم يفروا، وإنما شدوا وكروا، وخاضوا الغمرات بِبَأْسٍ عظيم، وقد ألهبت حميتهم نفخات فى الصور. وبرز

اليونان لنا وصائحهم يقول: «يا معشر اليونان استنقذوا وطنكم ونساءكم وأطفالكم ومعابد آبائكم وقبور أجدادكم. وغطت الأشلاء الشواطىء والصخور، وانطلقت سفائن البرابرة هاربة فى كل وجه تلتمس النجاة، ونزلت الضربات بالفرس ومزقوا كل ممزق وكأنهم سماك فى شباك، فما رنّ فى البحر إلا شكوى الشاكين وبكاء الباكين. ثم رحمنا ظلام الليل فحجبنا عن أعدائنا إلا ما كان أعظم ما لقينا من شدائد وكابدنا من آلام، لو شئت تعدادها لما بلغت من ذلك مأربًا ولو بعد حين. اعلموا يقينًا أنه ما هلك قط من الرجال فى يوم واحد مثل ما هلك من رجالنا».

وتظهر أتوسا أسى وتفجعًا، ويلوح شبح الملك دارا، فيبذل النصح وينطق بالحكمة ويأمر المحزونين بالرضا والاستكانة، ثم يدخل الملك خشايارشا وهو ينتحب مع المنتحبين ويخرج للعودة إلى قصره، وتختتم التمثيلية بزفرات الأسف وعبرات الندم والحزن الذى ليس بعده حزن. ويلحظ على المؤلف أنه يكاد يقتصر على ذكر الفرس ووصف محنتهم ونكبتهم، وفى أوصافه مرارة الشماتة وسخرية التشفى، ونشوة المنتصر الذى مكنه الله من عدوه بعد يأس وجهد ومعاطب.

وهكذا صور الفرس فى أدب اليونان القديم، أما الإنجليز فالثابت أنهم لم يعرفوا الفرس حق المعرفة قبل القرن السادس عشر، ومع كل فإننا نجد أقدم شعرائهم وهو تشوسر يشير إلى لون فارسى يميل إلى الزرقة وذلك فى القرن الرابع عشر، ثم يؤلف برستون فى عهد الملكة اليصابات قصة يقتبسها من تاريخ الملك قمبيز، ويتخذ الشاعر القصاص مارلو أسماء ومشاهد فارسية فى إحدى قصصه.

أما شكسبير فيشير إلى الثياب الفارسية فى «الملك لير»، وإلى أمير فارسى فى «تاجر البندقية»، وإلى رحلة إلى فارس فى «كوميديا الأخطاء».

والشاعر الضرير ملتن صاحب «الفردوس المفقود» يذكر أسماء لمدن فارسية كهمذان وأصفهان، ويلخص تاريخ فارس القديم فى الجزء الثالث من «الفردوس المستعاد».

ويستعيد شلى ذكرى الأبهاء ذوات العمد فى تخت جمشيد، وقد ذكر المجوسية وهى الديانة الفارسية القديمة كل من الشاعرين بايرون ولندور. ومن كتاب الإنجليز من تأثر بالفردوسى، شاعر إيران فى القرن الرابع الهجرى، كجوس وأرنولد، ونظم مور منظومة تسمى «لال رخ» وهو اسم فارسى بمعنى وردية الخد، ومنظومته تموج بالحياة الفارسية ومشاهدها.

وجرت عادة المتأدبين من الإنجليز فى القرن الثامن عشر بمطالعة كتاب من جزئين للكاتب الإنجليزى امبروز فيلبس بعنوان «قصص فارسية» وذاع صيت قصة لموريه تسمى «حاجى بابا الأصفهانى»، وإذا ما ذكرنا ترجمة فتزجرالد الشعرية لرباعيات عمر الخيام، فإنما نذكر أكثر الكتب سيرورة فى اللغة الإنجليزية بعد مؤلفات شكسبير، وقد أصبح الخيام بذلك شاعرًا للإنجليز أكثر من كونه شاعرًا للفرس، إن صح هذا التعبير، فهو فى انجلترا أبعد صيتًا وأسمى منزلة منه فى إيران. وما دمنا فى الحديث عن أدباء الإنجليزية، فلنلحق بهم كراوفورد الكاتب الأمريكى، لأنه صاحب قصة يجعل المدار فيها على حياة زرادشت نبى الفرس القديم.

أما شعراء الألمان فإن منهم من تأثر بشعر الفرس أبلغ التأثر وفى طليعتهم جوته. الذى قرأ الترجمة الألمانية لشعر حافظ الشيرازى، فملك عليه هذا الشعر إعجابه ووقع من نفسه أجمل موقع، وراعه ما فيه من سمو العاطفة وقدسية الفكرة وجمال الرمز، فامتزجت روح شاعر الألمان بروح شاعر الفرس، وأصدر جوته (الديوان الغربى الشرقى) سنة ١٨١٩م وهو مجموعة من أجمل الشعر الغنائى، وقد خطا فيه خطو حافظ وردد صداه إلى حد جعل فهم شعره أمرًا عسيرًا أو مستحيلاً من غير شرح يرد المعانى المبهمة والرموز الخفية إلى أصولها الصوفية الفارسية. وفى هذا الديوان قصيدة تسمى (الحنين المقدس) يعتبرها بعض نقاد الألمان أروع ما جادت به قريحة جوته لأنه يعبر فيها عن فهمه للحياة برمز أفلاطونى وطهارة مطهرة، فيقول فى أبياتها الختامية: «وتأتين خافقة الجناح طريدة، وتحنين إلى النور وفى النهاية، تحترقين أيتها الفراشة، وما دمت لا تملكين لك حياة ولا مماتًا. فأنت ضيف حزين على هذه الأرض».

وللشاعر الألمانى الرقيق هاينه قصيدة عنوانها «الفردوسى» وفيها صور حياة هذا الشاعر فذكر كيف نظم تاريخ الفرس الطويل فى ستين ألف بيت من الشعر، وتطلع من السلطان إلى أن يحسن صلته على ما كابد من جهد طوال ثلاثين عامًا، فأعطاه السلطان عطاء قليلاً عفت نفسه عن قبوله. وهذه القصيدة قصة قصيرة يظهر فيها السلطان بكزازته ونكثه للعهد والشاعر برغبته فى المال لحاجته إليه ثم يأسه منه ومن كل خير فى الدنيا. وإنا لنقع فى شعر الألمان على تشبيهات فارسية تدل على أن منهم من عرفها عن الفرس وأعجب بها فضمنها أشعاره، ومن ذلك تشبيه العين باللوز والحاجب بالقوس.

أما نيتشه الفيلسوف فاتخذ من اسم نبى الفرس القديم رمزًا للحكمة وسمى كتابًا له (هكذا قال زرادشت).

والشاعر الروسى بوشكين ظاهر الأخذ عن الشعر الفارسى، وقد رثاه شاعر إيرانى بعد مماته، ومايقال عنه يقال عن لرمنتوف الذى عاش فى القوقاز فكان للبيئة حكم وللجوار حق، وللروس قصة شعبية تتحدث عن أميرة إيرانية.

وكان للفرنسيين صنيع كصنيع الإنجليز والألمان والروس فعرفوا الفرس فى مؤلفاتهم وذكروهم واستلهموهم. ومنهم الكاتب مونتسكيو صاحب «الرسائل الفارسية» وهو كتاب فى النقد الاجتماعى والهجاء السياسى يتخيل فيه مؤلفه إيرانيًا يسميه أوزبك عاش فى باريس بين سنة ١٧١٣م وسنة ١٧٢٠م وكاتب خلانه فى إيران، فيوقفهم على ما يشاهد فى المجتمع الباريسى ويتناول بالنقد اللاذع مسائل الدين وأصول الحكم، ساخرًا من ظلم الظالمين واستعلاء المستعلين، ومشيرًا إلى مكمن الداء فى الجماعة. ولفولتير قصة «هنرياد» وهو يعارض بها الفردوسى فى قصته «رستم وسهراب» ففى كلتا القصتين أب يقاتل ولده حتى يقتله وهو لا يعلم من يقاتل ومن يقتل، ثم يقرع سن الندم ويأخذه شديد الأسى بعد أن تتكشف له الحقيقة. ويقول النّقادة الفرنسى سانت بوف: «من يقرأ قصة فولتير بعد قصة الفردوسى، ير الحد الذى انحط إليه الشعر القصصى عند المحدثين ويشعر كأنه قدم من شاطىء نهر الكنج إلى حوض من حياض فرساى!».

وفى أواخر القرن السابع عشر كان من يدعى البارون دوفريول سفيرًا لفرنسا فى استانبول، واتفق له يومًا أن جاس خلال سوق النخاسين، فراعته فتاة لم تستوف الخامسة من عمرها الغض النضير، واستوقفه منها جمال تزينه ملامح شرقية وعينان سوداوان، وسأل عن خبرها فقيل له إنها من بنات الأمراء فى إيران، وقد قاتل الترك أباها فغلبوه، وسبوا نساءه ونهبوا نفائس قصره حتى هذه الدمية الجميلة التى ينالها دافع المال الجزيل فى شرائها، فأدركت السفير رقة على الفتاة وحملها إلى قصره على ضفاف البوسفور، وأصبح لها كأب شفيق. ومرت الأعوام وعاد السفير إلى فرنسا ومعه «هايده» التى ربت وترعرعت، وأزهرت وأثمرت، فكانت زينة المحافل فى باريس اللاهية الماجنة على عهد لويس الرابع عشر، غير أن حياة اللهو والفتون لم تصادف هوى فى نفسها، فزايلت العاصمة وآثرت أن تعيش على مبعدة منها، وطلب الوصى على العرش يدها فردته. ثم خفق قلبها لشريف يقال له وايدى.

وكانت أديبة شاعرة فكاتبت صاحبها، وقيل إن رسائلها من روائع الأدب الفرنسى، غير أنها لم تسعد بغرامها فقالت شعرًا حزينًا مدموعًا. وقد جعل الشعراء والروائيون من قصة «هايده» موضوعًا طليًا شيقًا، فكتب سانت بوف عنها كتابًا مفصلاً مطولاً، وألفت مدام

فوردل تاريخًا لها شعرى الأسلوب بديع العرض والتحليل، وفى سنة ١٨٠٥م نشر بارانت مؤلفًا له عنها، كما جرى بأخبارها قلم الكاتب الفرنسى المعاصر إميل هانريو.

ويروى عن فولتير أنه قال: (اقرأوا كتاب الفرس المقدس القديم بتدبر وروية).

أما ألف ليلة وليلة، ذلك الكتاب الفارسى الأصل، فقد قال عنه أنه لم يعالج فن القصص إلا بعد أن قرأه أربع عشرة مرة، وتمنى القصصى الفرنسى ستندال أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ويتسعيد لذاذته.

ولا يفوتنا أن نقول إن المربين فى فرنسا وانجلترا وألمانيا يختارون قصصًا من هذا الكتاب، لتهذيب ناشئة الأدب وصقل أذواقهم، وإفعام أخيلتهم بما فيه من أطياف الشرق، وقد يشتد إعجاب بعضهم بهذا الشرق الجميل، فيجعل على نفسه فى مقبل الأيام أن يدرس لغاته وعلومه وآدابه، ويصبح عالمًا يفيد من علمه أهل الغرب والشرق على السواء.

ومنذ أكثر من مائة عام قال مؤلف فرنسى هو الماركيز دوفيليت شعرًا جاء فيه: (صادف برهمى ذات يوم قطعة من الطين بجوار حمامه، فسألها قائلاً: أأنت قطعة من عنبر؟! إن لك عبيرًا يروقنى ويخلب لبى. فقال الطين: لست من كل ذلك فى شىء بيد أنى جاورت الورود حينًا هنا).

وقد أخذ هذا المعنى بتمامه عن الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى فى أبيات له يعرفها كل من شدا شيئًا من أدب الفرس.



السفور والقبعة فى تركيا

قيل إن الناس أعداء لما جهلوا، وهذه قولة كثيرة الدوران على اللسان، غير أننا إذا ما فسرناها حق تفسيرها، ظهر لنا من معناها البعيد ما يتعارض بعض الشىء مع ما يسبق إلى الوهم من معناها القريب.

فنحن فى واقع الأمر لا نعادى الجديد ولا نكرهه بقدر حبنا للقديم ووفائنا له، خصوصًا إذا كان الشأن فيما يمت بآصرة إلى العادات والتقاليد، وكأن رغبتنا فيما عرفناه وألفناه ورأينا عليه آباءنا هى أقوى البواعث لنا على رغبتنا عما لم نعرف ولم نألف ولم نتوارث خلفًا عن سلف. فطول إلف الشىء داعية التعلق به تعلقًا يصرف عن غيره ويزهد فيه، وآراؤنا العامة ما هى فى الحق إلا عادات عقلية تمكنت وتغلغلت وسيطرت على النفس والفكر، فصعب تجريحها أو تبديلها، وخابت فيها حيلة العقل والمنطق أو كادت. ومن أجل ذلك عانى النبيون ما عانوا، وتجشم المصلحون ما تجشموا، ولقى قادة الرأى من شديد العقبات ما لقوا.

وليس استطرادًا أن نذكر ما يذهب إليه علماء الجمال من أن من يشاهد الجميل لا يشعر بجماله كل الشعور إلا بعد أن يكرر فيه بصره مدة ما، على أن النفس يلزمها بعض الوقت حتى تتذوق تذوقًا تامًا. ونخرج من كل هذا بأن للعادات أثرًا لا ينكر فى تلوين شعورنا وتكوين إدراكنا، وبالتالى فى آرائنا وتقاليدنا واستحساننا واستهجاننا. وإذا تلمسنا المثال مصداقًا لما نذهب إليه وجدناه فيما كان من سفور المرأة التركية ولبس الأتراك للقبعة عوضًا من الطربوش.

قال أتارتورك: «على النساء ألا يقبعن فى كسر بيوتهن ولا يحجبن وجوههن، لأن ذلك مجلبة للشر على البلاد. لقد ساهمت المرأة التركية فى الحرب بالحظ الأوفى من حماستها وحميتها وتكبدت من الأهوال ما تكبد الرجال، فحقيق أن تنعم اليوم بكامل حريتها. فلتضرب فى العلوم بسهم، ولتشيد دورًا للعلم، وحقها الذى هو لها، أن تنال فى الدولة من المنزلة مثلما ينال الرجال. لقد أبصرت فى الطريق نساء على وجوههن النقب وعلى جيوبهن الخُمُر، يشحن كلما اقترب منهن رجل. بالله ما هذا! أما آن الأوان لنبذ هذه الخرافات والسخافات، ولمسايرة تلك الأمم التى تعلقت بأسباب من الحضارة».

هذا هو النداء الذى وجهه أتاتورك إلى التركيات عام ١٩٢٥م يأمرهن فيه بأن يطرحن النقاب ويتأثرن خطى أخواتهن الغربيات فى التعلم ومجانبة عزلة البيت، والبروز للرجال وغشيان مجالسهم، على أن ذلك حق لهن لا يسوغ أن يبخس، ومشاركة منهن فى خدمة

وطن يدعمن صرح تقدمه ورقيه، ويأخذن بيده للخروج من ظلمة العصور الوسطى إلى نور المدنية الحديثة.

ولم يكن توجيه هذا النداء إلى النساء عفو الخاطر، وإنما كان أمرًا ليس منه بد، فقد سبق لبعض العجائز أن كرهن السفور واشتد عليهن، فاعتبرنه بدعة ومفسدة للنساء أى مفسدة، كما رأين فى البروز للرجال عارًا دونه كل عار، وأعملن الرأى فى إيجاد وسيلة لتقويم العوج ودفع البلاء، حتى اهتدين إلى موظف رجعى من رجال الأمن العام له أذن تصغى لشكواهن وعقلية تحبذ رأيهن، فأقنعنه بضرورة إصدار منشور يعلق على الجدران هذا نصه وفصه: «فى هذه الأشهر الأخيرة، أظهرت النساء تبرجًا شائنًا معيبًا، فلزام على كل مسلمة أن تطيل من ثوبها وتضع نقابًا صفيقًا على وجهها، ولتحذر أن تتمنطق بالمشد، وإن الحكومة لا تمهلها أكثر من يومين لإطاعة هذا الأمر».

وكان لما جاء فى هذا المنشور شديد وقع على النساء اللائى تسخطنه وتذمرن منه وغضبن غضبًا ليس بعده غضب، حتى أن الحكومة لم تجد لها بدًا من تصحيح موقفها معهن بالرجوع عن قولها، والانتقاض على حكمها، فنشرت عليهن ما يفيد إلغاء ما اتخذت من إجراء.

وقد كان للدعوة إلى السفور أصداء من السخط والعصيان فى ولاية طرابيزون، فعولت النساء على التمرد كراهة أن يبدلن عادة درجن عليها كما درجت أمهاتهن من قبل، فما وسع الهيئة الحاكمة فى الولاية إلا أن تصدر بيانًا تعدد فيه مساوئ الحجاب وقد ركبت الشطط واصطنعت الإغراق فى اعتبار ستر الوجه حيلة كانت المرأة تلجأ إليها للتستر رجاء ألا تلحظها العيون وهى تسعى إلى الريبة!

ثم قر القرار على أن يسوق الشرطة كل امرأة غير سافر إلى المخفر. ومن مستطرف ما يروى أن منهن من كن يسترن وجوههن العارية بما فى أيديهن من مظلة مفتوحة. تنفيذًا لمشيئتهن ومشيئة الحاكم فى وقت معًا، غير أنه لم يكن لهذه الحال دوام فكشفن عن وجوههن فى البلاد عرضًا وطولاً.

ولم يكن هذا النقاب خاصًا بالمسلمات دون غيرهن، فقد ذكره الشاعر اليونانى هوميروس فى الأوديسا، وكان للفينيقيات نُقُب قرمزية اللون، وعرفته الراهبات فى عصور المسيحية الأولى، ولم يعرفه عرب الجاهلية، أما فى الإسلام فقد كثر الجدل حول شرعيته لتضارب أقوال المفسرين فى تفسير قوله تعالى فى سورة النور: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها

وليضربن بخُمُرِهنَّ على جُيُوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾.

فمنهم من يفسر الزينة بمواضعها كالجيد والمعصم والساق، ومنهم من يجعلها نفس التزين كالاكتحال وتخضيب البنان. ومهما يكن من أمر فنحن لا نريد هنا إلا أن نبين كيف أبت بعض التركيات أن يخرجن بالسفور عما ألفن من عادات وتقاليد، بقطع النظر عن حكم الشرع، وعلى المؤرخ حكاية الحوادث كما وقعت.

أما استبدال القبعة بالطربوش، فقد أثار من اللغط والهرج والمرج أكثر ما أثار طرح النقاب على غير ما يسبق إلى الظن، وذلك محمول على أن الأتراك كانوا يعتبرون الطربوش شعارهم القومى الإسلامى، وكانت أولى المشاكل التى ولَّدها لبس القبعة فى وجهة نظرهم يومئذ، هو استحالة الصلاة بها لسببين، أما أولهما فحافتها البارزة التى تجعل السجود بها أمرًا متعذرًا، والثانى أن خلعها دليل على رغبة صاحبها فى إظهار الإجلال، ولما أفتى مفتى استانبول بجواز خلعها أثناء الصلاة، كان هذا أمرًا غريبًا على الناس.

وكان السلطان عبد الحميد أول من عرض برأى للبس الطربوش والقبعة سنة ١٩٠٢م يوم عارض شيخ الإسلام فى اتخاذ جند الترك للخوذات، فسفه السلطان أحلام الشيخ وقرر أن لباس الرأس لا يمس الدين فى كثير ولا قليل. وفى الحرب العالمية الأولى لبس ضباط الترك قبعات فرنسية طويلة الحافة، ويقال إن اللورد بالمرس سأل يومًا السفير التركى فى بلاد الإنجليز قائلاً: «ما بال الترك يتخذون الثياب الأوربية بتمامها ما عدا القبعة!» فأجابه السفير بقوله: «لأنهم قوم معاندون لا يريدون لرءوسهم تبديلاً!».

ولما اجتمع مجلس الوزراء فى أنقرة عام ١٩٢٥م تحت رئاسة أتاتورك، وقرر أن تكون القبعة غطاء لرأس الترك مع استثناء رجال الدين منهم، فتحت إحدى جرائد استانبول استفتاء فى هذا الشأن تستطلع فيه الآراء. فكان من صبحى بك وزير المعارف أن قال: إن الدين فى القلب لا على الرأس. وصرح رشيد بك مدير التعليم بأنه رأى بعينى رأسه حجاجًا فى مكة وعلى رءوسهم قبعات بيض، وقال آخر إن قواعد الصحة تقضى بإيثار القبعة على الطربوش.

وأقبل الناس على لبس القبعة امتثالاً لأمر أتاتورك، وبلغ من شدة تهافتهم وحماستهم أن تخطفوا القبعات فنفدت من الأسواق بعد زمن يسير، ولم يحصل عليها الناس جميعًا،

ومن عجيب أمر هؤلاء الذين لم يحصلوا عليها أنهم آلوا على أنفسهم أن يبقوا من غير غطاء للرأس ولا يعودوا إلى لبس الطربوش!

غير أن الناس كافة لم يرتضوا تغيير شعارهم هذا التغيير الفجائى بين عشية وضحاها. وتراءى لهم أنهم يكفرون باتخاذ شعار الأوربيين، وقد ذهلوا عن أنهم إنما أخذوا الطربوش عن اليونان غير المسلمين، فقامت فى بعض المدن التركية كسيواس وأرضروم مظاهرات عظيمة تدل على روح التمرد والثورة، وارتفعت الهتافات ترمى بالكفر حكومة أنقره.

وكان من المعترضين على لبس القبعة نور الدين باشا ذلك القائد العظيم الذى طرد اليونان من أزمير، ونائب مدينة بروسه الذى قدم للمجلس الوطنى مذكرة ينص فيها على أن إلزام الشعب بلبس القبعة خروج على القانون الدستورى الذى تنص مادته المائة والثلاثون على الحرية الشخصية، فرد عليه أسعد بك وزير العدل بأن لبس القبعة وهى غطاء الرأس عند الشعوب المتحضرة لا يمكن أن يعتبر خرقًا للقانون الدستورى.

وأجريت تحقيقات دقيقة واسعة المدى، تكشفت عن أيد خفية أجنبية وشيوعية تحرك الثورة وتدفع إلى العصيان، فشمرت الحكومة عن ساعد الجد وألقت القبض على الجم الغفير. ووجهت إلى المقبوض عليهم تهمة الثورة على الإصلاحات الحكومية، وحكمت إحدى المحاكم بالموت على ثلاثة وبالسجن على ثمانية وأربعين، وأصدرت محكمة أخرى حكمها على خمسة عشر قتلوا، وكثيرين سجنوا.

وطرح التركى طربوشه كما نبذت التركية نقابها، ولكن بعد وقفة أملاها الوفاء للطربوش والنقاب، وأسف على صحبة قديمة لهما، وأسى لفرقتهما.

* * * *

السُفَـراء فى إيران القديمة

من المعلوم أن السفارة فى سالف الأزمان لم تكن ما نعهد اليوم من منصب قائم دائم يتبوؤه عظيم رفيع الشأن عالى المقام ليرعى مصالح دولته ويدبر أمور رعاياها، وإنما كان السفير رسولاً تنفذه دولة إلى أخرى ليسفر بين القومين، حاملاً خبرًا أو رأيًا، وساعيًا إلى إصلاح ذات البين، وربط ما انْبَتَّ من صلات، تبعًا لما يستوجب ذلك من أمور تطورت وأحوال تبدلت. وغنى عن البيان أن القوم لا يصطنعون متحدثًا بلسانهم وعنوانًا عليهم ما لم يكن صالحًا لذلك أتم الصلاحية، حريصًا أشد الحرص على أداء واجب يناط به أن يؤديه، وأمينًا كل الأمانة على وديعة فى عنقه، فهو صاحب العقل والبديهة والقول الفصل والمتقد حمية ووطنية، وكانت ملوك الأعاجم، إذا آثرت أن تختار من رعيتها من تجعله رسولاً إلى بعض ملوك الأمم، تمتحنه أولاً بأن توجهه رسولاً إلى بعض خاصة الملك، ثم تقدم عينًا عليه يحضر رسالته ويكتب كلامه فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابل الملك ألفاظ الرسول فإن اتفقت أو اتفقت معانيها، عرف الملك صحة عقله وصدق لهجته، ثم جعله رسولاً إلى عدوه، وجعل عليه عينًا يحفظ ألفاظه ويكتبها ثم يرفعها إلى الملك فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدقه عند عدوه، جعله رسوله إلى ملوك الأمم، ووثق به، ثم كان بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة.

وإن ما يتحلى به من صفات المدح، ليحرك همتنا إلى الوقوف على طرف من أخبار هؤلاء السفراء فى إيران القديمة، خصوصًا إذا شئنا أن نتعرف بعض الفروق وأوجه الشبه بين الغابر والحاضر.

فلما صح عزم الملك دارا على غزو بلاد اليونان، زين له الدهاء أن يركن إلى قذف الرعب فى قلب العداة، ويعتبر الدعاية سلاحًا يشبه فى الفتك سيوفه المسلولة ورماحه المشرعة فأشخص رجلين من بطانته إلى أرض اليونان، فطافا بالبلاد وتحدثا مع أهلها مظهرين لهم صولة الفرس وجبروتهم، وبسالتهم وشديد بأسهم، ونصحا لهم بالترحيب بمقدمهم والتسليم عن رضا وطواعية، كما أوضحا لهم سوء مغبتهم إذا حاولوا صدهم ووقوفًا بالسلاح أمامهم، فالضعيف إذا نهض لقتال القوى إنما يسعى إلى حتفه بظلفه، يقضى بحماقته على نفسه بيده. فانطلى رونق هذا الكلام على اليونان ورأوا أن يؤثروا العافية ويكفوا يدهم عن محارب لا يد لهم به، وخارت نفوسهم وذهبت شعاعًا، ووجد الفرس يوم اقتحموا عليهم ملكهم قومًا مستسلمين مستضعفين.

ولما بلغ السفيران من اليونان الأرب، شدا الرحال إلى اسبرطة، وكان أهل اسبرطة غلاظًا شدادًا لا جانب فيهم لرحمة أو ملاينة، فلم يرعوا للسفيرين حرمة ولم تأخذهم بهما رحمة، فأوقعوهم في الأسر، ونكسوهما فى بئر حتى ماتا ميتة سوء. ونمى إلى دارا خبر السفيرين فاتقد غضبًا وعول على التنكيل بمن جرح كبرياءه فى شخص رجلين من أتباعه يصدعان بما يؤمران وما عليهما إلا البلاغ، غير أن العمر لم يمتد به حتى يشفى غيظه ويدرك ثأره. وخلفه ولده اكزرسيس الذى أحفظه قتل السفيرين من أهل اسبرطة، فأرسل عليهم جيشًا لجبًا، ويقال إن الندم أدرك الإسبرطيين على ما فرط منهم، وأدركوا أن القتل فى غير جريرة معرة وخسة، وأرادوا أن يغتفروا لزلتهم ويقدموا المعاذير إلى ملك الفرس فتطوع فتيان منهم لأن يكونا سفيرين، يرحلان إلى فارس ويسألان اكزرسيس الصفح. ورحل السفيران لطيتهما، وبعد سفر طويل بلغا بلاد الفرس وتوجها إلى قصر الملك، واستفتحا بابه ففتح لهما، ولما مثلا فى حضرته قالا: «يا ملك الفرس، لا يخفى علينا أن للسفراء أرواحًا عزيزة مقدسة، تستوجب الحماية من كل شر وأذى، وإنا على ما كان منا لنادمون، أما أنت فقد وجهت جيوشًا إلى أرضنا، طلبًا لثأرك عندنا. انثن عن عزمك ولا تغز بلادنا، فنحن على أتم أهبة لأن نفدى روح سفيرك بروحينا. نحن طوع يديك فاقض ما أنت قاض واصنع بنا ما أنت صانع».

ووقع كلام الفتيين من نفس الملك أجمل موقع، وراقه منهما أن تبلغ الشهامة والوطنية بهما هذا المبلغ، فقد طاب لهما أن يموتا فى سبيل دفع البلاء عن وطنهما، ولم يشتد عليهما أن يكونا ذلك البرىء الذى يؤخذ بذنب المسىء، ما دام سعيهما إلى غاية، وفداؤهما عن مبدأ. وكان الظن أن الملك لا محالة قاتلهما كما صنع بسفيريه قومهما، غير أنه كظم غيظه ولم يخرج عن طوره وشاء أن يكون ذا معدلة فأجزل صلتهما وأفاض عليهما الخير من كل جانب وردهما إلى وطنهما وهو يقول: «كلا لن أمسكا بأذى، فأنا من أهل اسبرطة أكثر عدلاً وأعظم مروءة».

وقد اختص ملوك الفرس الأقدمون بعادات ومراسيم لاستقبال رسل الدول وسفرائها، ولا ريب أنهم كانوا يحرصون الحرص كله على الظهور أمامهم بمظاهر العظمة، فكانوا يستقبلونهم فى أبهاء تحار العين فيها حسنًا وبهاء، وقد لبسوا الحرير تجرى فيه خيوط الذهب، وتحلوا من نفيس الجوهر، كما كانوا يفتنون فى إكرامهم غاية الافتنان، فيكرمون وفادتهم ويغدقون عليهم من هداياهم وعطاياهم، ولا يأخذونهم بعقاب لخبر يحملونه بالغًا ما بلغ من الشؤم والسوء. وإن دل ذلك على شىء فهو يدل على كياسة وحسن سياسة.

وفى عهد الدولة الإشكانية وهى الدولة التى حكمت بعد فتح الإسكندر المقدونى لفارس، قويت الروابط بين الفرس والروم، وكثر تبادل السفراء بين الدولتين، ومما ينهض دليلاً على اعتبار السفارة عملاً عظيمًا لا يضطلع به إلا عظيم، أن الملك فرهاد أرسل أبناءه إلى قيصر الروم لتبادل الآراء وتناقل الأخبار.

وفى عصر الساسانيين كانت مهمة السفراء فى الأغلب هى فض المنازعات وحل المشكلات، فقد حدث أن قائدًا من قواد الروم أراد أن يغزو فارس، فوجه إليه ملك الفرس سفيرًا يقنعه بالعدول عن خطته فكان من السفير الفارسى أن قال للقائد الرومى:

«أيها القائد، إذا شئت أن تعلن علينا حربًا شعواء فنحن من أخذ للحرب أهبتها، ولكننا مع ذلك نرحم شيخوختك، إن هامت نفسك فى ذلك الوهم الذى لا يجديك فتيلاً، ونحن نأذن لك بأن تنقلب إلى بلدك وعشيرتك تحت جناح من رعايتنا ومسالمتنا!».

فساء هذا القول قائد الروم وأغضبه لما فيه من تهزؤ وتهكم فنادى بالثبور والويل. وقال أنه سيحاسب ملك الفرس عسير الحساب على سخريته منه يوم يفتح بلاده، وما سمع السفير الفارسى ذلك حتى استضحك باسطًا يده وقال: «انظر إلى كفى، لن تشاهد بلاد الفرس حتى تشاهد شعرة فى كفى!».

وصحت فكرة السفير فانكسرت جيوش الروم وقتل قائدها مع ولده بين رحى القتال.

وكان من عادة الساسانيين أن يختاروا سفراءهم المبعوثين إلى الروم من القساوسة، والعلة فى هذا راجعة إلى اتساع مداركهم واتصالهم الوثيق بملوك الفرس، واطلاعهم على بواطن الأمور فى البلاد والبلاط، كما كان من امبراطور الروم أن جعل السفارة لرئيس كبير من رؤساء المسيحية، وأرسله مرتين إلى يزدجرد، فارتبط العاهلان بالصالح المشترك والود الأكيد، وكان ذلك نصرًا مؤزرًا للمسيحية فى بلاد الفرس، ومرجع الفضل إلى ما للسفير من لباقة وحصافة. وفى زمان الدولة الصفوية التى حكمت إيران الإسلامية من أواخر القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر، كان الاحتفاء بسفراء الدول الأجنبية يشبه ما نعهده اليوم، فإذا تسلم السفير مهام منصبه فى إيران وأراد أن يحظى بلقاء الشاه للمرة الأولى، أرسلت إليه قافلة من الجمال البيض أعدت لركوب السفراء يوم تقديم أوراق اعتمادهم، وكانت العناية عظيمة بتزيينها، فرحالها من الحرير الأحمر، ورقابها محلاة بالأزاهير ومقاودها من الذهب الإبريز، أما قادتها فعليهم أبهى حلة ولهم أحسن هيئة. فتزايل القافلة قصر الشاه إلى دار السفير، وهناك تناخ الإبل لركوب السفير وحواشيه، ويسير الركب بين مظاهر الإجلال والإكرام، حتى إذا ما وصلوا إلى القصر الملكى، وفرغوا

من أداء المهمة التى قدموا لأجلها، أعيدوا إلى دارهم كما جاءوا. وقيل إن بعض السفراء كرهوا ركوب الإبل لما فيه من جهد ومشقة وهزة لا عهد للأوربى بها، فاعتذروا من قبولها مظهرين الأسف على الخروج بذلك عن مجرى العادة، وطلبوا الخيل عوضًا منها.

ومن سفراء إيران فى تركيا، سفير يدعى مرتضى قليخان، وكان أديبًا شاعرًا لسن اللسان. فلما رحل إلى استانبول، وكان ذلك فى القرن الثامن عشر، التقى هناك بالصدر الأعظم إبراهيم باشا. ورحب الباشا بمقدمه، وسأله عن بعد الشقة ووعثاء السفر ورأيه فى استانبول الجميلة، فأجابه السفير بقوله: «لقد وجدت منها روضة كروضة إبراهيم لكرمكم وظرفكم»، وفى هذا الكلام إشارة إلى النار التى أوقدت لإبراهيم عليه السلام فكانت بردًا وسلامًا وروضة ذات زهر. وكان فى المجلس نخبة من أدباء الترك وعلمائهم كالشاعرين نديم ووهبى، والمؤرخ رشيد، والخطاط وحيد الدين، فتحدث الصدر الأعظم عن الأدب التركى وغيره من الفنون كالموسيقى وتحسين الخط، ثم استطرد إلى ذكر شعراء الفرس، وأظهر الإعجاب بجمال الورد فى أصفهان، وهكذا تجاذب السفير والصدر الأعظم حديثًا لا يديره إلا حصيف سمح البديهة. ولهذا السفير قصة يتفكه بذكرها، فقد اتفق له أن زار أسطول الترك فى الميناء، وأعجب الإعجاب كله بسفينة حربية قيل له إن مدافعها تدك الحصون دكًا وتدمر السفائن تدميرًا، ورأى أن تكون هذه المدافع أول ما يحدث عنه دولته بعد عودته إلى بلاده، فأكثر السؤال وأراد أن يحيط بكل شىء علمًا، وكان الشاعر المزاح وهبى بين الحاضرين فقال له: «يحسن بك يا سيدى أن تدخل هذا المدفع من فوهته ليكون رأيك فيما بعد عن علم وتجربة»، وبلغت بالسفير سلامة الطوية أن يحسب الشاعر الهازل جادًا فيما قال. فهم بدخول المدفع، ولم يوقفه إلا ضحك الملتفين حوله، ولما سألهم ماذا يضحكهم، قيل له إن وهبى أراد أن يجعل منك قذيفة لهذا المدفع تنطلق إلى أصفهان، فإذا بك بين قومك فى لمح البصر تحدثهم عن عجيب ما رأيت من عظمة الأسطول التركى، ووجدها الصدر الأعظم دعابة خشنة، وكره أن يستسخر من السفير الإيرانى، وأمر الموسيقيين بالعزف حتى تمحو بهجة الطرب ما قد يثور فى النفوس من غضب.

والذى نلحظه هو أن السفارة فى ذلك الزمان كانت ذلك المنصب الذى نعرفه اليوم، فلم يكن السفير رسولاً يوفد ثم لا يلبث أن يعود، وعودته رهن بإنجاز مهمته كما كانت الحال فى الزمان الأول.



ثورة الجوع

إن كان للجوع ثورة تقوم، فإنما الصراع بين البقاء والفناء وهما المتغالبان اللذان لا يكفان عن المغالبة أبد الآبدين. والنزاع الشديد على حياة هى أعز ما يملكه الحى ويطلب له الدوم بدافع غرزى لا حيلة له فى صده، وهذا ملحوظ فى ظواهر عدة، منها ما يذهب إليه البعض من أن الشيخ أشد حرصًا على حياته من الشاب، وأصدق رغبة فى وصل عمر قارب أن ينقطع، ومن حكمة الطبيعة أنها تزود حتى من لا قوة له، بقوة يستطيع بها أن يغالب الموت فى الأعم الأغلب، وإن هذا الملحظ ليدير فى خلدنا أحداثًا من مأثور التاريخ تنهض عليه دليلاً وتصلح له تفسيرًا.

ففى إيران، ومنذ أربعين عامًا أو ما يقرب، احتبس المطر فى الشمال خصوصًا، فخاب الزرع وعم الجدب وشح القوت، ولقى القوم من ذلك أشد الجهد والعنت، ومما زاد كربًا على كرب وأضاف بلاء إلى بلاء، حال سياسة فى البلاد مضطربة، وثورة داخلية رفع لواءها شعب غصب على حريته، فقام مطالبًا بالحكم النيابى، وأعلن رفضه لتسلط الأجنبى وقوامته.

وكانت الغلال ترد إلى بلدان إيران من حقول تتاخمها، فانقطعت السبل بحاملها ومرسلها، ونهب الشطار واللصوص غرائرها الممتلئة بعد الفتك بكل من زجرهم ومنعهم، فما كان يتوصل منها إلى حيث يراد إرسالها إلا النزر اليسير وفى الفلتات. كما كان من التجار أن احتجزوها عن الناس ليغلو السعر ويعظم الربح. أما الخبازون فلما رأوا إقبال دولتهم ورواج بضاعتهم، تنمروا واستعلوا، وطاب لهم أن يشاهدوا الحشود والوفود وقوفًا بأبوابهم مستعطفين مستصرخين، وبلغ من جبروت رئيس الخبازين فى طهران وغلظته أن زج أحد رجاله فى التنور، وقد زين له شيطان الغضب أن يعاود هذه الفعلة الشنعاء غير مرة، ووجد هذا الظلوم الغشوم قتيلاً فى دكانه ذات يوم، فكان الجزاء من جنس العمل.

وتطاولت هذه الحال وأصبح الرغيف أعز منالاً من بدر السماء، ولم يجد الناس ما يسد الجوع ويقيم الأود ويمسك الحياة على الحى، فاحترقت الأكباد جوعًا، وشوهدت فى الطرقات جثث أكلها السغب غير مبق منها إلا عظامًا رقت تحت جلود بليت. ولما تفاقم هذا الشر على مر الأيام وأقفرت المتاجر، لم يجد أصحابها محيصًا عن إغلاقها لعدم تحقق الرغبة من فتحها. وأصبحت الأسواق قاعًا صفصفا، مخافة أن تحدث الجياع نفوسهم بنهبها على زعم وجود قوت مخفى فيها، بعد أن فسد الأمن وأصبح السلب أمرًا مألوفًا لتعدد حوادثه حتى فى النهار المبصر، فكان السالبون يسلبون كل ما وصلت إليه يدهم واستطاعوا إليه سبيلا، لا يفرقون بين عظيم وحقير مما يغنمون، فهم ينزعون الوعاء الصغير

فيه بعض السمن من فتاة تغدو به على أمها العجوز، كما يقتحمون على صاحب القصر قصره باحثين فى السراديب عن القمح أو الدقيق أو خبز الشعير، متوعدين بالقتل من حاول أن يصدهم.

وقد صور شاعر هذه الحال فقال: (ما دام للمحتكر يد تحتبس خبزنا، فهذا هو الخراب والفساد فى أرضنا. وبه تدخل العدالة فى محاقها، أما المساواة فتختفى طلعتها. أيها الطفل الجوعان، حذار من البكاء وشكوى الحرمان. وإلا عاجلك المحتكرون بالصفعات والضربات وأنت أيتها الأم. أودعى الثرى ولدك الذى تضمينه إلى صدرك. فقد أصبح ابن آدم أقل ثمنًا من لقمة!).

وكانت مدينة أصفهان أوفى بلدان إيران نصيبًا من بلاء هذا القحط المبير الذى عصف بها عصفًا وعذب أهلها وجيع العذاب. غير أن هؤلاء الذين أتلفتهم المجاوع والمخامص لم يستسلموا للأمر الواقع ويتركوا المنية تنشب أظفارها فى بطونهم دون أن يذودوها عن أنفسهم، فتحركت فيهم تلك الرغبة الجامحة فى الحياة التى يستمد الضعيف منها قوة، والعاجز المتخلف قدرة وحيلة، وأوفدوا رجالاً منهم إلى حاكم المدينة، ليعملوا عنده فى فك الكربة ورفع البلوى، ويشرحوا له سوء الحال وما سوف يتكشف عنه الغد القريب ما لم تدركهم رحمة الله، ويسعفهم ولى الأمر بحاجتهم بعد أن بلغت الأرواح التراقى، فوعدهم الحاكم خيرًا وطيب نفوسهم، وقال لهم توكيدًا أن القمح سيغمر مدينتهم ويسد جوعتهم. ولم يجشمهم إلا صبر يوم واحد.

وانقلبوا إلى أهلهم فكهين، وتنادى الناس وصبر بعضهم بعضًا بأن لذة الشبع على قدر ألم الجوع، وتصور كل من كان خميص البطن فى أمسه، أنه سيصبح بطينًا فى غده، ثم مضى يوم تبعه يوم، فوجد الناس أن الحاكم خاس بالعهد وأخلفهم ما وعدهم، وخدعهم بسراب ملتمع وواحة ضائعة، فتبدلوا من عظيم الأمل بعظيم اليأس، وأصبح فرحهم ترحًا ورضاهم سخطًا، واشتد عليهم أن ينتقلوا فجاءة من الضد إلى الضد فغضبوا بكل ما لديهم من عواطف الكراهية والحقد، وثارت خواطرهم ما وسعها أن تثور، وهدتهم طبيعتهم إلى ما فى التجمع والتكاتف من قوة يعدمه الآحاد، فتزاحمت جموعهم فى ميدان من ميادين أصفهان يقال له ميدان الشاه حتى تعددوا على خمسة آلاف رجل، قر فى أفهامهم أن الحكومة حبست الخير عنهم وأرادتهم بالسوء. وما ذاك إلا لأهواء تلاعبت برجالها، فسفهت أحلامهم، وما أصابوا للصواب شاكلة فى كل ما يقولون ويفعلون، وأعيتهم حيلة يجعل الله لهم بها مخرجًا.

ومن عجب أن ينضم إلى الثائرين جمع كبير من ربات الخدور أناف على ألف وخمسمائة، فهتكن البراقع واللفاع، بعد أن أزعجهن الجوع عن ديار كن فى عقرها قابعات، ومزجن من أصواتهن نبرة ناعمة بتلك النبرة الخشنة التى ارتفعت من حلوق الرجال بينما كان الجميع يصيحون صيحة صائح واحد «الجوع الجوع!».

وإلى النساء مرجع الفضل فى إلهاب قلوب الرجال حمية وحماسة، فقد وقفت منهن من تدعى «أغابيكم» على أكف صواحب لها، وخطبت الجم الغفير من النساء والرجال موجهة إليهم كلامًا جهرًا يهز الأعماق، بعد أن أقامت النكير على الرجال ونعتتهم بالجبن والاستخذاء، ثم صرحت بأن النساء سيتوجهن إلى حاكم المدينة. فما لهذا الأمر إلا هن، وسيطالبن بالخبز، ولن ينثنين عن ذلك أو يهلكن دونه.

وسارت الجموع الساخطة الهاتفة أمواجًا ترغى وتزبد وقد شق أجواز الفضاء لغطها وصخبها، أما النساء فكن فى الطليعة، معهن عصى يلوحن بها وأحجار للشدخ والتحطيم، وما وقف موظفو الحكومة على جلية الأمر وسمعوا الصخب حتى غلقوا الأبواب وأوقفوا الحجاب، وانكمشوا فى زوايا الحجرات واجفى القلوب، ووقف الثوار أمام أبواب محكمة وأسوار منيعة، أما الثائرات فأطلقن من أفحش السباب كل سهم مسموم سدَّدنه إلى علية القوم وأهل الحل والعقد، فما كان من الحاكم إلا أن برز للثائرين، فاسترسلت النساء فى السب والثلب، غير أنه رفع عقيرته بكلمة بين فيها أن سبب هذا القحط معزو إلى المحتكرين فى أصفهان فالذنب ذنبهم والحكومة بريئة الساحة من كل ما نسب ظلمًا إليها، وستبذل الوسع فى إمداد أصفهان بحاجتها من القمح.

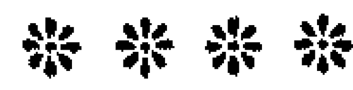
بيد أن هذا الكلام لم يصادف من الحاضرين آذانًا مصغية لاعتقادهم بأنه زور لا ينطلى عليهم فكانوا يقاطعونه باستخفافهم وسخريتهم وتكذيبهم، حتى اجتمع الحاكم غضبًا وخرج عن صبره وشاتمهم. وكان من النساء غير بعيد، فما كان إلا أن حملن عليه حملة شديدة أفزعته وألجأته إلى الفرار من وجوههن، وزادهن ذلك جرأة ورغبة فى التشفى، ولا عجب فهو فى رأيهن من نزع اللقمة من يد أطفالهن، وأهلك جوعًا عائلهن، ثم هو فوق ذلك يتكذب ويخدع ويسب، فلحقن به ورفعن أيديهن بما فيها من غليظ العصى وصلب الحجارة، وهوين بها على رأس له تهشم تحت أقسى الضربات وأعنف الصدمات وأوجع الركلات فمات الرجل تحت أقدامهن ميتة سوء.

ثم وقفت «أغابيكم» بين القاتلات فاتحة عينيها بنظر شديد فيه فرحة النصر، ومرارة الشماتة، وأشارت بسحب القتيل على وجهه إلى ميدان الشاه ليعرض على من يثلج

صدورهم أن يروا قاتلهم مقتولاً وعدوهم منكسراً، وسحب الحاكم إلى الميدان وهناك علقت جثته فى شجرة.

وقد أشاع ذلك الفوضى والشغب فى المدينة، وانضم إلى الثائرين كثير من اللصوص والدهماء ليرتعوا معهم فى المرعى الخصيب، فاندفعوا صوب دار الحكومة، وتمكنوا من النفاذ إلى داخلها، ولما لم يجدوا أحدًا فيها، شفوا غيظهم من الأثاث والرياش، فحطموا ومزقوا وأفسدوا، كما نهبوا وحملوا ثم مضوا. وأصبحت نقمتهم من الحكومة أمرًا خاصًا لا سخطًا عامًا عليها، فأثبتوا بذلك أن نفسية الجماهير تغاير نفسية الأفراد كل المغايرة. وانطلقوا إلى السجن ولم يثبت بابه على عنفهم وشدتهم، فانفتح لهم عنوة، وخلوا سبيل من فى السجن من سجناء. وما بلغت الحال من السوء هذا المبلغ حتى رأت الحكومة أن تصطنع الشدة وتأخذ على يد المشاغبين، وكان الرأى أن تطرد هذه الذئاب الجائعة ببطش السلاح، فلما تجمهروا أمام المحكمة كان فى انتظارهم شرذمة من الجنود على سطحها، فأطلقوا نارهم عليهم، فتهافت منهم على الأرض أمثال السنابل إذا أعمل فيها الحاصد منجله. وفلح الحديد بالحديد، ولم يجد الثائرون والثائرات بدًا من النكوص على الأعقاب والتفرق فى كل وجه.

وأودع الحاكم القتيل الثرى، وظهر أنه كان صادقًا فى قوله بارًا بوعده، فقد أثمر جهده ونجح مسعاه، وما أصبح صباح الغد حتى كانت غرائر القمح تدخل أصفهان لتعيد إلى الحياة أهلها الذين كاد الجوع يلحق أحياءهم بموتاهم، ووفرت الخيرات شيئًا بعد شىء.



الوَطَـــن

من تمثيلية للكاتب التركى نامق كمال بك المتوفى سنة ١٨٨٧، ولهذه التمثيلية عند الترك منزلة لا تسامى، فقد حركت حماستهم، وأشعرتهم معنى الوطنية والحرية فى عهد تحول واستشراف لعصر جديد سعيد من تاريخهم القومى. ولما ظهرت سنة ١٨٧٢، ثم عرضت على المسرح للمرة الأولى فى استانبول، كان الطرب لها شديدًا، ودويها فى النفوس عظيمًا فمنع عرضها ونفى صاحبها إلى قبرص، ولم ينفك الناس عن ذكرها والإعجاب بها حتى بعد ظفرهم بالدستور عام ١٩٠٨، وتعرف كذلك بسلستره، وهى مدينة على الدانوب، ذاد الترك ذياد الأبطال عن قلعتها فى حرب لهم مع الروس.

الفصل الأول

ينشق الستار عن حجرة على الطريق مطلة. وزكية هانم فى حلة ألبانية متكئة على حشية، بين يديها كتاب وأمامها شمعة متقدة. وإسلام بك فى الطريق يقطعه جيئة وذهابًا.

زكية «تضع الكتاب على صندوق بجانبها» ـ أماه يا أماه لم أفعمت قلبى رقة وضعفًا، وأنى تجعلين لعقلى كل هذه الحصافة والرجاحة، لو رأيت ابنتك اليوم لأدركك مر الندم على هذا الصنيع! كيف يقوى هذا القلب على احتمال حياة ينوء بحملها، فهى ثقيلة ثقيلة، وكيف لا يضيق هذا العقل عن كل تلك الأخيلة وهى وسيعة وسيعة. آه ما أشد وجيب قلبى، لكأنه يريد قد صدرى والخروج من بين أضالعى، أما عقلى فهو فى اضطرابه وفورته يريد تحطيمًا لما ينطبق عليه ويمسكه فى مستقره!

(تستر وجهها براحتيها) أماه يا أماه، إن الفكر الذى هيأته لكى يتجه دائمًا إلى أبى، قد انحرف عنه إلى غيره، والروح التى هذبتها وسموت بها رجاء أن تتعلق بك، أصبحت اليوم ملكًا لآخر. لقد علمك أبى وتأدبت بأدبه ومت من أجله وأدبتنى فأحسنت تأديبى غير أن الموت من أجلك لا يدور بخلدى. وليس فى الحسبان أن يستقطر موتك دمعة من عينى.

آه منه، إنه أمامى لا يريم كأنما تمثل لى بكل سبيل، هو فى عينى صورة وفى خيالى طيف وفى عقلى خاطرة، هو من أخذه بصرى ببعض الطريق مرة، يا ليت تلك النار التى مس حرها فؤادى وأنا أرنو إلى وجهه، كانت صهرته فذاب ذوبًا! لقد جهدت أن أحول عنه ناظرى بكل ما أوتيت من عزم فما بلغت من ذلك مأربًا، ويلاه، خذلتنى قوتى وامتنعت على عيناى. لكأنما اجتمع كل حسن فى الوجود رأيته وسمعت به فى وجه هذا الرجل الذى أمامى.

(بعد تفكير) لله هذى الحياة ما أعجبها، لقد كنت بالأمس القريب إذا رأيت باكيًا إلى جانبى حسبت دمعه دمع الفرح، أما اليوم فشهقات الضحك عندى هى شهقات النحيب، والندى فى الزهرة المطلولة دمعة فى العين المحزونة، أنا من كانت تبسم فكأن كل شىء يبسم حولى، واليوم أبكى فكل شىء باك. هو ذا الليل قد أدبر والصبح قد أسفر وما اكتحلت عينى بغمض.

(تطفىء الشمعة) ـ أيتها الشمعة ما أحسبنى إلا مثلك فى نزعك البطىء وفنائك الوشيك. آه لو انطبق جفناى برهة ولو كحسوة الطير. يا لله أى شىء تلك الرسالة، لو كانت حروفها من نار لما كان لها على هذا الوقع المحرق، لقد قرأتها فوجدت لهيبها على وجهى وبين جوانحى، وقدمتها إلى ظئرى فامتلكتنى خجلة وددت معها أن تسوخ الأرض بى، إن الفرحة لا تقتل غير أنها تذهب العقل، لقد عرفت خبر مقدمه من سطور رسالته، أنا أهواه وهو يهوانى. . . هذا حق، هذا مقطوع به، يا إلهى إن صدرًا له هذا الحسن لا يمكن أن ينطوى على قلب خؤون.

(بعد روية) من يدرى؟ إن الأفعى قد تسعى فى شجرات الأزاهير الجميلة!

إسلام بك ـ زكية هانم

(إسلام بك يدخل من النافذة)

زكية (تراه داخلاً فتجد شديد الرغبة فى الاتجاه إليه غير أنها تملك نفسها، وبعد سكون تتحدث فى سريرتها ولكن بصوت مسموع) ألم أكن محقة فى تمنى الموت كل يوم، بالله ماذا يحدث لى إذا لحظتنا عين الرقيب؟

إسلام بك ـ لا تخشى عاذلاً ولا رقيبًا. كأى من يوم وليلة تحركت على الأرض زحفًا حتى لا ترانى العيون، الصبح يتنفس، والكرى ما زال يرنق فى العيون فنحن فى آخر لحظات الليل، لقد اجتزت بدارك كل ليلة، فثقى مما أفعل.

زكية (تخفى فرحتها بفتور) ـ من هذا الذى دعاك إلى المجىء؟

إسلام بك ـ بالله لا تسترى وجهك بيديك، لقد رأيت الدنيا مرة واحدة فأنت دنياى، فهل أراها ثانية؟ الله يعلم. وكنت أستمع إلى كلامك ونجواك كأنى عين عليك (يظهر الحزن والطرب فى وجه زكية).

أنا أعلم شناعة خطئى، ولو أن واحدًا صنع معى ما صنعت معك لاستحقرته وسخطت عليه إلى يوم يبعثون (وتبدو زكية أشد حزنًا) لقد دخلت عليك الدار من النافذة كاللص، ولو دخل على أحد دارى كما دخلت عليك دارك، لكان حقًا على أن أستحل دمه وأقتله،

ولكن ما حيلتى، وقد عجزت عن السيطرة على عزيمتى؟ أنا أحبك وسأفارقك، وسمعت اليوم من فيك أنك تحبيننى.

اليوم أستودعك الله. انظرى كلما أردت الابتعاد عنى، قربتك قدماك منى ولو كان لى سيطرة على نفسى لسلس زمامها فى كفى، وتحاشيت أن أسىء إليك. بالله مرحمة، إن هذا القلب الذى قد من صخر، لا يليق بهذا الجسم الذى كأنما أفرغ من نور!

زكية (تنازع نفسها مهتاجة مترددة) ـ ما أطول ما تحملت من عذاب الموت (تشير إلى إسلام بك) ماذا تريد؟ أنا أجاهد نفسى، لقد انتزعتنى من نفسى، أنت فى أحلامى إذا رقدت، وفى أفكارى إذا صحوت، وأمامى فى وحدتى، أنت على الدوام. فهاك روحى وجسدى، وأرحنى مما أكابد من لواعجى وبرحائى.

إسلام بك ـ لما أبصرتنى أردت أن تحولى عنى بصرك، أليس كذلك يا قاسية الفؤاد. ولما أبصرتك أتعلمين ماذا كنت أحس فى قلبى لو كنت أغمضت الجفن برهة لظننت أنى فقدت العمر كله، الحمد لله حق حمده، إنك تحبين على غير عمد مثلى ولا تملكين قلبك، لقد رأيتك مرة ورأيتنى مرة، لقد خلق قلبانا صنوين وجعلك الله لى كما جعلنى لك، ولو فرقتنا الأيام هنا فسوف تجمعنا هناك، وإذا افترقنا اليوم فلقيانا فى الغد، وقد نلوح مفترقين، ولكن كلانا سيلقى صاحبه، وإذا تصدع شملنا فنحن ملتقيان.

تعالى! تعالى إلى جانبى. أقسمى لى بأنك ستبقين على عهدى ولا تحبين سواى إن فرق الدهر بيننا.

زكية ـ (عاجزة عن حكم نفسها) ـ بالله... (خجلة) لا أفهم ما تريد أن تقول، لقد قلت لنفسى... لقد ظهرت فلم أقل شيئًا.. ماذا عساى أقول؟..

ولكن إن كنت تحبنى فكيف تفارقنى!

إسلام بك ـ سأذهب لطيتى...

زكية (تقاطعه بعنف) لقد ذدت عن حب أمى وأبى، وكان قبر أخى فى قلبى، لقد أنسيتنى كل شىء. واليوم طيفه كجسده دفين فى ظلمة الأرض، لا نوم لى ولا عزم ولا همة تتحرك إلى شىء، لم تبق فى الفؤاد شيئًا سواك وتريد أن تهجرنى وتزف إلى هذه البشرى!

(تخطو فى الحجرة ثائرة مدمدمة) وماذا يحدث فى النهاية، ستزايل هذه البلاد وسأفارق هذه الدنيا، وما أهون الموت على فإن هذا العيش لا يهنأ لى.

إسلام بك ـ (كأنه لم يسمع) لا بد من الذهاب، ألست رجلاً، أليس على واجب، ألست لوطنى محبًا، كيف تتوقعين صدق رجل فى عاطفته إن كان لا يحب وطنه!

زكية - إن كان حديثك عن الوطن فماذا عسيت أن أقول؟ اذهب اذهب! ألم تستحلفنى! ويمين الله بجميع أسمائه الحسنى، الذى خلق هذه الدنيا وجعل هذا الحب لأكونن لك فى الدنيا والآخرة.

إسلام بك - وأنا أيضًا أقسم بربى.

زكية (مقاطعة) صه، لا أريد أن تقسم، فأنا إن توقعت كلمة كاذبة تفوه بها جننت جنونًا.

زكية بالحجرة - إسلام بك - الجنود المتطوعون فى الخارج.

إسلام بك - (فى الطريق) نحن هنا أيها الرفاق.

(تسمع زكية صوته فتعدو إلى النافذة مستطلعة وتختفى فى جانب منها).

متطوع - نحن هنا جميعًا.

إسلام بك - أيها الرفاق، لقد التففتم حول لوائى. وإنى بذلك لمزهو فخور، وإن كنت لا أدرى هل أحوز رضاكم أم لا؟ أنا ذاهب إلى القتال، وقد عقدت العزم على أن أموت، أنا لا أنال على ذلك أجرًا، وعلى الراغب فى الأجر أن يخرج من زمرتنا، ولا أمل لى فى غنيمة وعلى الراغب فيها أن ينسحب. وقد وطدت عزمى على الأين واللغوب، فعلى طالب الراحة ألا يتبعنى. ولا خشية لى من السيوف المجردة والسهام المسددة، فأولى بمن يخشاها أن يقبع مع أهل بيته. أتفهمون كلماتى، وتملكون أن تطردوا خشية الموت من قلوبكم؟ أفى مكنتكم أن تعتبروا صدوركم قلاعًا تحمى بلادكم. أتذهبون لملاقاة الردى؟ سنبذل أنفسنا عن وطننا والله حافظنا، أما إذا لم يحفظنا فتلك حكمته وله الأمر من قبل ومن بعد، ألكم فى أنفسكم عظيم الثقة؟

أيها الرفاق إنا إلى شاطىء نهر الدانوب متجهون. الدانوب حياتنا وإذا فقدناه فقدنا الوطن، فما استطاع أحد أن يحيا فيه، وقد يستطيع البعض أن يعيش فيه، كلا كلا! قد يستطيع أحد أن يعيش ولكنه لن يكون رجلاً. فلا يمكن لرجل أن يعيش وهو يرى أنه تحت الأقدام، والرجل لن يعيش وهو يرى ولى نعمته تحت أقدام المهانة دون أن يحرك ساكنًا إلا أن يكون أحقر من كلب، أيها الإخوان، ليس الإنسان بأحقر من كلب.

إن الله يأمرنا بمحبة الوطن، الدانوب معناه الوطن فإذا ذهب أحدهما لحق به الآخر. وستجدون عظام آباءكم وأجدادكم أينما سرتم وتوجهتم على شاطئه، وإذا رأيتم الكدرة فى مائه فهذا الغرين ذوب أجساد من نافحوا عنه من أبطال أماجد.

لقد عبر الترك الدانوب يوم عرفوا برنين اسمهم، لقد عبروه دفعات، إلا أنهم لم يستولوا عليه، وما دام لهم وجود فى هذا الوجود فلن يغلبوا عليه. أأنتم على أتم الأهبة

للموت من أجله؟ أتقسمون بربكم على أنكم ستتبعوننى؟

المتطوعون ـ يميننا لا نحنث فيها.

إسلام بك ـ من أحبنى تبعنى.

الفصل الثانى

(يرفع الستار عن فريق من المتطوعين، وهم جلوس فى جانب من قلعة سلستره، وزكية فى ثياب الرجال).

متطوع ـ الزموا الصمت الزموا الصمت.

متطوع آخر ـ ما الخبر؟

المتطوع الأول ـ أما تسمع الموسيقى.

المتطوع الثانى ـ علام هذه الجلبة، الجيش قادم.

المتطوع الأول ـ كأنها نغمات حربية.

زكية ـ ما دامت النغمات حربية فلنترنم بنشيد حربى.

المتطوع الثانى ـ تأمل هذه الطفولية.

عبد الله ـ أين هذه الطفولية؟!

المتطوع الأول ـ صه يا رفيقى.

(الجماعة) لنترنم بأنشودة.

«الوطن شاغلنا عن أنفسنا، وإقباله مناط أمالنا، ولنا من أشلائنا حصن يحمى حدودنا. نحن العثمانيين زينتنا كفن ملطخ بالدماء، والموت فى الهيجاء أعز ما لنا من رجاء، نحن العثمانيين رايتنا حسام دام، ولا خوف من الموت فى سهلنا ولا جبلنا، فالأُسْدُ رابضة فى كل ركن من بلادنا. الموت فى الهيجاء أعز ما لنا من رجاء، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد. إن للعثمانيين اسمًا يلقى الرعب فى كل القلوب ولأجدادنا مهابة تعرفها الدنيا بأسرها، لا تحسبن دماءنا قد تغيرت فدماؤنا هى دماؤنا، والموت فى الهيجاء أعز ما لنا من رجاء، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد. ولهذه المدافع أن تقصف وتبعث بالنيران فى كل الأنحاء، ولتفتح الجنان أبوابها للشهداء. ماذا أصبنا من دنيانا لنهرب من منيتنا! الموت فى الهيجاء أعز ما لنا من رجاء، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد».

صدقى بك ـ على الراغب فى البقاء بالقلعة أن يقف ناحية.

متطوع ـ إنما قدمنا للبقاء هنا جميعًا، فما معنى أن يفارق بعضنا البعض.

صدقى بك (لا يلتفت إلى كلام أحد) ـ يا رفاقى لقد عبر العدو النهر. والحكومة قادرة على حماية قلعتها بجنودها، وأنتم فى حل من البقاء هنا كما أذن لنا الباشا.

متطوع ـ العدو كثير، فهل تريدوننا أن نكون أقل عدداً على قلتنا!

عبد الله ـ إن كنا فئة قليلة فأى بأس فى ذلك، ما دمنا قلة، فالموتى عدد قليل. أما إذا كنا كثرة فالموتى فئة كبيرة.

صدقى بك ـ صه، دعهم فى كلامهم.

عبد الله ـ بالله.

صدقى بك ـ أيها الرفاق إن المحاصرين يلاقون من الجوع أهوالاً إلى تلك الأهوال التى يلاقونها من بطش سلاح العدو. انجوا بأنفسكم.

متطوع ـ سيدى: لقد جئنا طوعاً لا كرهاً، وكان مجيئنا من أجل شىء، أتشير إلى العدو بإحدى يديك، وتشير إلينا أن نهرب بيدك الأخرى! لقد عشت ما كفانى وها هو ذا كفنى معى، وأنا على أهبة الموت، لقد قدمت من بغداد على هذه النية.

صدقى بك (مشيحًا) ـ لست أعنيك بقولى يا رفيقى.

متطوع ـ إذن أينا تعنى؟

متطوع آخر ـ أينا بلغ من الجبن والنذالة أن يولى الأدبار قبل بدء المعركة!

صدقى بك ـ حسنًا، أنت مثلنا تريد الموت من أجل الوطن ستثاب وتؤجر عند ربك، وإذا ذهبت نفسك بقى اسمك، والرجل بحق هو من يؤثر اسمه على نفسه. كونوا أشجع الشجعان، لا تهابوا الموت، فإنه لا شك مدرككم فى يوم من الأيام ولا منجاة منه فى سلم ولا فى حرب.

(يشير إلى زكية) يا غلام.

زكية ـ سيدى.

صدقى بك ـ من تكون؟

زكية (حيرى) ـ أنا رجل من الرجال.

صدقى بك ـ ما اسمك؟

زكية (تتمالك نفسها) ـ رجل يا سيدى.

صدقى بك (فى نفسه) ـ ما هذه القحة! (مشيراً إليها) لك أن تغادر القلعة.

زكية ـ أنا أبذل حياتى، أتحدثنى لحداثة سنى، إن كنت جئت إلى هنا لقتل الرجال فاقتلنى معهم، أما إن كان مقدمك للموت فاعلم بأنى سأكون بالموت أطيب منك نفسًا.

إسلام بك (يعدو وفى صدره جراح)

سيدى سيدى.

زكية ـ آه.

صدقى بك ـ لقد عبروا النهر وهم عشرة آلاف رجل، فصمدنا لهم ونحن ثلثمائة وقاتلناهم ثلاث ساعات، نعم ثلاث ساعات قضيناها فى الجهاد والجلاد فسقط رجالنا جميعًا. لقد لحق كل منهم برحمة ربه، ولكن بعد أن أهلك اثنين من الأعداء وها هى ذى الأجساد على أديم الأرض، لقد واجهنا عشرة آلاف سنان مشرع إلينا وتواثبنا بين القنابل، وانهمر على رءوسنا من الرصاص مثل الوابل، ثم التحمنا وأظهرنا عثمانيتنا. لقد متنا عن آخرنا، آه ولم يبق منا إلا سبعة، ولقد وددت أن ألحق بهم والله على ما أقول شهيد! وكنت فى الطليعة، فنفدت مؤونتى وتحطم سيفى.

(وتقترب زكية هانم رويدًا رويدًا من إسلام بك وهو يقص قصته حتى يسقط بين ذراعيها، ويلتف الحاضرون حولهما).

إسلام بك ـ تعال يا عبد الله، سر بها توًا إلى حجرتى، ووافها بكل ما تطلب، ادع طبيبًا، لا تتركها حتى أعود.



عائشة التيمورية فى شعرها الفارسى والتركى

العربية والفارسية والتركية، هى اللغات الإسلامية الثلاث باعتبار الأهم وتقديمه على المهم. وقد أتى على المتأدبين من أبنائها حين من الدهر كانوا معنيين بها يتعلمونها ويتفهمونها، على أن ذلك ضرورة ثقافية لا غنية لهم عنها، ووحدة كاملة لا سبيل إلى التفرقة بين عناصرها، لأن الأدب الإسلامى الرفيع يتألف منها ويتفرع عنها فى ثلاث شعب تتكامل وتتجاوب وتحتفظ كل منها للأخرى بظلال واضحة وأصداء مترددة.

وقد ظل هذا دأب المتأدبين إلى نهاية القرن الماضى، وإنه ليفسر لنا أن ينظم شعراء من الفرس بالعربية والفارسية، ومن الترك بالتركية والفارسية. غير أننا إذا أردنا تحديدًا ودقة، قررنا أن أبناء التركية كانوا أكثر عناية باللغات الثلاث، وما ذلك إلا لحداثة عهدهم بالأدب، فإن أدبهم ترجع نشأته إلى ما قبل ستة قرون، على حين كان الأدب الفارسى مزدهرًا منذ ألف سنة والأدب العربى منذ ألف وخمسمائة أو ما يقرب. ومن ثم وجد الترك مس الحاجة إلى النظر فى آثار من سبقوهم، لتأثر خطاهم واحتذاء أمثلتهم. وهذا ظاهر الوضوح عند بعض من رجالات الأدب فى مصر المنحدرين من أصل تركى، أو الذين عاشوا فى بيئة تركية الثقافة، كمحمود سامى البارودى باشا الذى كان يحذق الفارسية والتركية، ويتزود من آدابهما لأدبه، ونسوق لذلك مثلاً قوله فى ذم الدنيا:

إذا أحسنت يومًا أساءت ضحى غد فإحسانها سيف على الناس جائر
تـرب الفتى حتى إذا تم أمره دهته كما رب البهيمة جازر

فهو متأثر بقول الشاعر الفارسى سعدى: «أخى، هى الدنيا لا تبقى لكائن من كان، فكافيك منها أن تكون موصول القلب بالرحمن. لا يغرنك ملكها، ولا تكن فى أمن منها ومن حدثانها، فكم من أمثالك ربت ثم قتلت. وإذا ما حان انقضاء عمرك، فسواء أن تموت وأنت على عرش، أم أن يكون لك من التراب فرش».

وكان من يدعى إسماعيل تيمور باشا من أماثل الكتاب ومذكوريهم على عهد محمد على الكبير الذى اصطفاه واتخذه كاتبه الخاص لاتساع باعه وعلو كعبه، فقد كان علمه بالتركية فى وزن علمه بالفارسية والعربية. وله ابنته عائشة التيمورية التى نظمت الشعر شيئًا عجبًا، فكان من حقها علينا وقفة عندها ونظرة فى ديوانها. فنحن لا نعرف من الشعراء والشواعر من نظم جديًا فى اللغات الثلاث بهذه القدرة وتلك الوفرة. ومن أسف أن يسكت عنها مؤرخو الأدب التركى سكوتًا تامًا، مع أن لها شعرًا تركيًا يروق،

وشاعرية ليست لشواعرهم، وهذا السكوت معزو إلى جنسيتها المصرية، وإنه ليذكرنا بأدباء الترك الذين طووا ذكر السلطان سليم الأول كشاعر، لأنه لم ينظم إلا بالفارسية كما أهمله أدباء الفرس لجنسيته التركية. وإذا ما قرأنا هذه الشاعرة المصرية التى ضاع جانب من آثارها بين العرب والترك والفرس تهيأ لنا إدراك الفرق بين دواوينها الثلاثة إن كان هناك من فرق.

وديوانها الفارسى التركى مطبوع بالقاهرة عام ١٣١٥هـ، وقد قدمت له بمقدمة تركية بليغة فى شرح حالها، وأظهرتنا على الكثير من دقائق حياتها، فروت لنا قصة جميلة بها من الأحداث والملابسات ما لا يكون إلا فى قصة شاعرة كمثلها. فذكرت كيف بلغت ضحوة العمر، وأرادت بها أمها أن تعالج فنون التطريز والحياكة على غير رغبة منها، فإنما كانت همتها إلى الأدب متجهة، ومتمناها أن تنصرف انصرافًا تامًا إلى شعر تكلف به أشد الكلف. وما أحس أبوها وهو الأديب الأريب بذلك من أمرها حتى أحزنه أن يجد البلبل حبيسًا فى القفص، وأحب له أن يكون طليقًا مغردًا بين الأعناب والنخيل، فاستدعى لها من يؤدبها ويلقنها العربية والفارسية والتركية. فبرعت فى الفارسية والتركية كل البراعة وانكبت عليهما تدرسهما حتى استأدبت. واتفق لها يومًا حدث تفتحت له شاعريتها، وذلك أن الخصى الذى كان يقوم على تربيتها، دخل غرفتها وبين يديه طاقة زهر قدمها إليها ليطرفها هدية تعجبها، فتناولتها وجعلتها فى إناء الزهر.

وكان الوقت ليلاً والليلة مقمرة، فدخل القمر الغرفة وغمر الزهر بنوره اللؤلؤى الحالم، وكان مشهدًا شعريًا جميلاً، فكأنما قطعة من الفجر تبسم للزهر المطلول والليل مرخى السدول! ووقفت الفتاة تتملى هذا الحسن بروح سكرى، وعين ترنو فترى ما لا تراه العيون، وبينا هى فى وقفتها إذ نادتها أمها فى حاجة لها، فانطلقت إليها ووافتها بما طلبت ثم عادت إلى زهراتها، فإذا بها منتثرة كأنها شمل أحباب كان جميعًا فتصدع. وحزنت لذلك حزنًا مرًا حرك أعماق نفسها الشاعرة، فنظرت إلى البدر مليًا ثم جادت قريحتها بهذين البيتين من الشعر الفارسى وهما: «يا بدرًا فى السماء منيرًا، هو ذا زهرى أراه نثيرًا، بالله إلا قلت لى من أذبلك ولك عندى ما تتمنى، أى حزن هذا الذى له وقد الجمر فى نفسى وأنا أشاهد زهراتى فى ذبولها!».

وفوجئت عائشة بأبيها يسألها عما تصنع، فأنشدته البيتين، فطرب كثيرًا لهما، وطابت نفسه بابنته وبهما، واحتضنها داعيًا لها ماسحًا على رأسها، ثم أوصاها باللغات الثلاث، قائلاً إن الشعر لا يحسن إلا فيها جميعًا.

وهذان البيتان نخصهما بالذكر لأنهما باكورة شاعريتها، ويا لها شاعرية أصيلة تدرك الجمال فى صفة لم تبتذل، ولم تدر على ألسنة الشعراء دورانًا يفقد الجديد جدته والمليح ملاحته، كما يشهد لها هذا الوصف للزهر والحديث عن البدر بأنها تصدر عن شاعرية أصيلة وملكة مواتية، فلا تتكلف ولا تتعسف متبعة مقلدة لما ردده الأولون فأطالوا ترديده، والتزموه فما كادوا يتخلون عنه. وإنها لصورة ساذجة رسمتها لنا غير واضحة المعالم بريشة رقيقة تتردد بين أنامل يعوزها الثبات وتنقصها الدربة، وإن كان لا يسعنا أمامها إلا أن نتخيلها فى غد مشرق مزهر بعد استتمام الأداة ونضج التجربة والتطور المأمول بعد مرور الزمن.

ودارت الأيام، وحان لعائشة أن تتزوج، فتزوجت ورزقت (توحيدة)، فأنست بها وحدبت عليها، وأورثتها علمها وأدبها وما لبثت الصغيرة أن تمت قوامًا واستوت خلقًا، غير أن الداء دب فى شبيبتها كدبيب الذبول فى كم لما يتفتح، وبلغ من رقة حس العليلة ونبل عاطفتها أن تكتم عن أمها ما تشتكى، وشديد ما تجد من ألم فى جسدها الضاوى، وأسف فى نفسها الحزينة على عمر لم تبق منه بقية. فكانت إذا سئلت عما أصارها إلى المشاهد من حالها، قالت إنها بخير حال، وإن أعجزها أن تغير ما ينطق عنها من ضنى وشحوب. وحدث يومًا بين الأم وابنتها ما يوقفنا على تلك العلاقة التى كانت بينهما فى هذا الصدد، وذلك أن توحيدة آوت إلى مضجعها ذات مساء مبكرة على غير عادتها وفى عينها أثر الدمع، بعد أن أطبقت يدها المخضبة بالحناء على قرطاس وقلم، ثم لبثت بعض اللبث فى هدوء وسكون، وفطنت الأم إلى ما كان من ابنتها، وأرادت أن تستكشفها عن سرها، وتسللت إلى حجرتها، فما شاهدتها توحيدة حتى ارتعد هيكلها الواهى، وكانت أسرع شىء إلى دس القرطاس بين الوسائد، ولما طلب إليها إبرازه حزنت وألحت فى رجاء حار أن تترك وشأنها، وقالت إنها لا تحب اطلاع أحد على القرطاس. ثم دفعته إلى جارية لها، ورغبت إليها أن تقدمه طعمة للنار، إلا أن الأم كانت أشد شوقًا إلى الوقوف على جلية الأمر من أن ترضخ لمشيئة ابنتها، فتعقبت الجارية وانتزعت القرطاس من يدها وبسطته، فإذا فيه أبيات من الشعر نظمتها توحيدة فى البكاء على نفسها بعد أن شعرت بالموت يخطو حثيثًا نحوها، وهى:

اسمع مقالى يا أريب ... وقصتى شرح مريب
قد كنت فى دوح الصبا ... أهتز كالغصن الرطيب
أصبحت حالى عبرة ... يبكى على مثلى الغريب

كــلا ولا لــى مــنـهــل أروى بــه إلا النحــيــب
فالـدمــع منــى ســاجـــم والرمس أضحى لى قريـب
يـا رب عـجـل رحـلـتـى واغـفـر ذنـوبـى بالحبـيـب

فأخذ الأسى من عائشة كل مأخذ، ووجدت فى الفؤاد حرقات الثكل ولذعات الفجيعة، فطال ليلها سهدًا، وسرى الوهن في جوارحها والخور فى نفسها إذ تذكر أنها ستقف من توحيدة وقفة الوداع. وصدق شعور البنت وحسبان الأم، فمضت توحيدة أنضر ما تكون عودًا وكأن ليلة مأتمها كانت ليلة عرسها.

وكان موت توحيدة شديد الأثر فى حياة عائشة التيمورية عامة، والأدبية خاصة، لأنه الستار الأسود الذى انسدل ليفصل أتم الفصل بين أمسها ويومها. فقد كفت عن قول الشعر بعد مدة، ولم يبق فيها جانب لتلك الدنيا التى انصرفت عنها بشاشتها بموت ابنتها، وزهدت فيها زهادة حببت إليها أن تنطلق منها بعقلها وقلبها، فاتجهت بنفسها إلى الآخرة ملتمسة موئلاً من آلامها، وريًا لصداها، وعكفت على القرآن تتلوه وكتب الأحاديث تستوعبها رجاء السلوة والعزاء، مستعينة بكل ذلك على تناسى المصاب وصبر المؤمن المحتسب. ثم عمدت إلى شعرها العربى والتركى فحرقت أكثره، ولم يبق إلا أقله، أما شعرها الفارسى فأكله اللهيب برمته وأذرته الريح رمادًا، وكل ما يحتوى عليه ديوانها منه أبيات نقشتها على قبر ابنتها وهى: «ولما تناهى إلى سمع العروس نداء الحور العين، قائلات إن المواشط منتظرات لمقدمها فى قصر عليين، قالت إنى إليكن قادمة، ولكن لى أما تزفر النار من كبد حرى! أماه لا تنتحبى وكفى عن البكاء، وعليك بجرعة من ماء، لقد انقضى الأجل، ودعيت للرحيل عن الدنيا لاستيفاء النصيب منها، فأى جدوى من طب لقمان؟ أيها الزائر، إن قبرى يستهديك أن تقرأ الفاتحة لروحى، وتطلب الرحمات من رب السموات»، وليس فى مكنتنا أن نحكم حكمًا عادلاً على هذا القدر الضئيل من شعرها الفارسى وإن بدا أقل طلاوة من شعرها التركى والعربى فى الرأى الأغلب. أما اختيارها الفارسية لشعر القبر فمرده إلى أن الترك جرت عادتهم بالتشدق بالفارسية تفصحًا وتظاهرًا بسعة العلم على أنها لغة البُلَغَاء وصيارفة الكلام. وإن إحراقها لشعرها لمما يجعلنا نميل إلى الظن بأنه من وحى ذكرى حزينة، هى ذكرى توحيدة يوم طلبت إحراق الأبيات التى نعت فيها نفسها.

وديوانها التركى يحتوى على قدر صالح من الشعر الجيد إذا وزناه بميزان عصره، وهو يضم معظم الفنون الشعرية التى عالجها شعراء الترك. فافتتحته بقصيدة فى المناجاة منها:

«لقد قدمت يا ملك الملوك بعد أن أثقلنى حمل ثقيل من جرم وعصيان. فأنا كاسفة البال من وحدة وأسر وفقر، أنا الحقيرة يا رب الإحسان. أنا من أذنبت فذلت وقصرت فكلت، وما أشد خجلتى من عجزى وخيبتى، غير أنى سأجد السلامة يوم القيامة إذا ما شفع لى روح عدنان. ولفظ «إلا» يجلو لى قلبى فحاشا وكلا، لن يمسنى حر النيران».

فهذه المعانى المحدودة المعروفة قلما نعدمها فى دواوين الشعر التركى القديم، والشعراء يظهرون بها اتباعهم للتقاليد الشعرية، ويشبعون نزعة دينية صوفية.

وعائشة التيمورية تميل إلى الفخر كل الميل وتبدو فيه تياهة معتدة بنفسها إلى أبعد الحدود، كما تجنح كثيرًا إلى المبالغة فى التشبيه ونصاعة الديباجة، ولها ولوع بتصيد الألفاظ البراقة حسنة الجرس. فهى التى تقول: «إن لنور أفكارى أشعة هى شفاف الياقوت، ورأيى الذى هو زينة عفتى مشكاة ترسل الضوء من وراء حجاب. وإذا ما أقروا لفطنت وليلى بالسبق والبراعة، فأنا من يسأل الرأى والحكم، وتقريظى فى الختام أحسن عنوان. وإن ولادة والخنساء لتقسمان على كمالى وتبريزى، وهما لا ريب تعترفان بالعجز عن بلوغ شأوى. وقصيدى تاج على شعر الشعراء من ترك ومن عرب».

فقد ذكرت الشاعرتين التركيتين فطنت هانم وليلى هانم والعربيتين ولادة والخنساء على أنها أشعر الشواعر جميعًا، والبون بعيد بين هذه الفخرية التركية وفخريتها العربية لأنها فى قصيدتها العربية أنعم نبرة وأرق معنى وأقل تكلفًا.

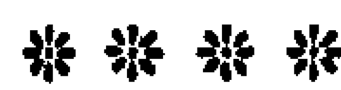
ولها قصيدة طويلة بعنوان «قصيدة خيالية» وهى فيها تتحرر من قيود التقليد وتبدو شاعرة واسعة الأفق تولد المعانى الكثيرة من المعنى الواحد، وتضفى عليها من روحانيتها رونقًا وبهاء. والقصيدة من الشعر الرصين العالى الذى يتعاصى على كثير من الأفهام، وأجمل ما فيه هذان البيتان: «وقع طائر الأمل فى روض الوفاء ولم يجد له مكانًا يعتش فيه، فدار ببصره بين الأشجار وهو ينوح، فهل عمد القدر إلى قوادمه فقصها، حتى تنقل كالغريب التائه، ورغائبه من فوقه أغصان وأغصان».

وقد نظمت فى أغراض أخرى منها الرثاء: فرثت علية القوم كالخديو توفيق، وبكت أمها وأباها، ومن عجب أن يخلو ديوانها من مرثية لابنتها، اللهم إلا بضعة أبيات تعتبر وسطًا بين الجودة والرداءة أوصت بنقشها على صفحة قبر توحيدة. ونحن لا نجد ما يمنعنا من الظن بأنها رثتها بالتركية فضاع الرثاء فى جملة ما ضاع من شعرها.

ومن شعرها فى الغزليات قولها: «أنا السكرى فهل من الصهباء نشوتى، أنا النائحة فهل نواحى نواح النّاى، أيها الحظ العاثر الغادر، هل كل ما ألقاه منك أنت أو منى أنا أو قلبى.

انتحابى كانتحاب البلبل بين الأغصان، واحتراقى كاحتراق الفراشة فى النيران، والله ما أدرى ما الذى يبكينى، هل كل ما ألقاه منك أنت أو منى أنا أو قلبى. أظل حيرى طول ليلى ونهارى، فهل من بأس إذا سألتك؟ بالله ما أصارنى إلى تلك الحال، هل كل ما ألقاه منك أنت أو منى أنا أو قلبى، الناس فى فرحهم ومرحهم، والأحبة فى هناءة باسمة، وأنا من يصعد زفرات الأسى، هل كل ما ألقاه منك أنت أو منى أنا أو قلبى».

فهذا الشعر الصوفى الجميل بما يشتمل عليه من رمز وإيماء ومعنى روحانى، هو الكنز الذى خلفه شعراء الترك والفرس للإنسانية، والربيع الذى تهيم فيه روح من تأدب بأدبهم، لأنه يغمر النفوس بنشوة حالمة تطرب الصوفى الواصل وتعجب المتيم الولهان، فكل منهما يبكى على ليلاه ويفهم بوحى من ذات نفسه، فلكل لفظ فى هذا الشعر معنيان قريب غير مقصود وبعيد مقصود، وللقارئ أن يفسر كما يشتهى وعلى الوجه الذى يرتضى، وهذا لا نعهده إلا عند بعض من شعراء العرب، فعلينا بعد ذلك أن نخفف من عجبنا ونحن نرى الناشر لديوانها العربى يقول فى باب الغزل: «وقالت متغزلة فى غير إنسان، والقصد تمرين اللسان»، ولم تدع الحاجة إلى مثل هذا التنبيه فى ديوانها التركى اعتماداً على معنى الغزل فى فهم الترك. وإن ذلك لفارق بين الشعر العربى والتركى.



دهاؤه .. وكيدها

جلس ملك الملوك على حشية حرير فى حديقة قصره المتراحبة الأرجاء، وكان المجلس مجلس أنس وطرب، فأدار الكأس على السمار ساق مشرق الجبين، وسطعت شموع العنبر نورًا وعبيرًا وقد خفقت أوتار الرباب فسرت خفقاتها فى القلوب، وهزت من أعطاف راقصة ما هزت النسمات من شجرات السرو والحور، وامتدت نقوش البسط أمام الجالسين أزهارًا وأطيارًا، فكأن فى البستان بستانًا طاب ألوانًا وألحانًا.

وعب ملك الملوك من الصهباء كأسًا تلو كأس، فمال رأسه وثقل جفنه، وهام فى الأوهام والرؤى، وكان هذا الملك وهو المسمى خشايارشا، كثير الزهو معجبًا بصولته وسلطانه، وبتلك الأقاليم المائة والعشرين التى تستظل بعرشه وتنضوى تحت لوائه. وساقته كبرياؤه إلى حب الظهور بكل ما يدل على عظمته ويشير إلى انفراده بالملك والسيادة، فزينت له نشوته أن يأمر الغلام بدعوة إحدى حظاياه إلى حضور مجلسه، وشرط أن تأخذ أحسن زينة وتبدو فى أبهى الحلل لتبهر الحاضرين بالجمال والجلال وما كان يرمى من ذلك إلا أن يطلع الندماء على عظمته مضافة إلى عظمة ما يمتلك.

وامتثل الغلام لأمر مولاه، وانطلق إلى مولاته وأخبرها الخبر، فلما عرفت جليته نفرت نفارًا وأبت أن تطيع، وقالت فى نفسها إن هذا إلا كلام مخمور والخمر تذهب بعقل شاربها. وأنهى إلى ملك الملوك ما كان من إباء حظيته فاستشاط غضبًا، وعدم الحيلة، فما وسعه إلا أن يستشير أهل مشورته، فقال قائلهم إن حظية الملك سيدة النساء، وللنساء أسوة فيها، وإذا مر بسمعهن أنها خرجت عن الطاعة، كن أسرع شىء إلى تقليدها فعصين الأزواج ونشزن منهم، وهذا شر عظيم وفساد فى الأرض. فالرأى أن يسلو عنها ويطردها من قلبه. قيل وأشير عليه بأن يقتلها فأمر بقتلها، وتقوض مجلس الأنس، وران على قلب ملك الملوك هم وغم.

ومرت أيام بعد أيام، فثابت إليه نفسه، وانجلت عنه غمرات أساه، فوجد مس الحاجة إلى عوض من تلك الحظية التى ذهب بها النشوز والعصيان، وبث رجالاً من بطانته يطلبون له ذات حسن تصلح للملوك ويصلح الملوك بها. وجاسوا خلال البلاد، فما أصابوا جوهرة غالية جدوا فى نشدانها، فرأوا لليأس ظلمات تغشى نفوسهم، غير أن بارقة لمعت فجاءة لتبديد تلك الظلمات، فقد اعترض سبيلهم رجل يهودى بمدينة شوش يدعى مردخاى، وجاءهم بنبأ هز القلوب منهم فرحًا، لأن هذا الرجل كان يكفل ابنة أخ له بارعة الحسن يقال لها هدسا. فأجلس الفتاة بحيث يرونها ولا تراهم، وما وقعت عليها عيونهم حتى

راقهم جمالها، وأيقنوا أنهم أمام كنز تبدى لهم من بعد طول احتجاب. فحملوها إلى القصر ومعها عمها الذى أوصاها بإنكار يهوديتها وإخفاء نسبها، حتى لا يرتاب أحد فى أمرها، أو يكره منها جنسها.

وفى القصر وكلت سبع جوار بخدمتها، فزينت وعطرت وأكرمت ونعمت، ثم اتخذت سبيلها إلى حضرة ملك الملوك الذى تعلقها، وتهافتت عليها روحه تهافت الفراشة على النور، فآثرها ولم يؤثر عليها، وسماها «استر» بمعنى نجم فى الفارسية، ولا غرو فلئن كانت نجمًا فى حسنها، لقد أصبحت نجمًا فى رفعتها وعلو شأنها.

أما عمها مردخاى، فما كان أبعد البون بين يومه وأمسه، لأنه أصبح من أهل السيادة، فعظم جاهه وسمت رتبته، واتخذ من ابنة أخيه وسيلة لكل ما يريد، فكانت تأتمر بأمره وتصدر عن رأيه، وذلك من طرف خفى. وقد تنسم الأخبار ذات يوم فتناهى إليه أن ملك الملوك مقصود بالسوء، وعرف أن رجلين من رجاله يضمران نيتهما على قتله، فوجدها فرصة مواتية لمكافأته إن دل عليهما، وسرعان ما أَسَرَّ ذلك إلى إستر، وأمرها أن تنقله بدورها إلى مولاها. فتنبه الملك إلى ما كان عنه غافلاً، ورأى أن يرد السهم إلى نحر راميه، وكفى نفسه شر الرجلين بقتلهما، ومد عمره من عمرهما. وتطلع مردخاى من الملك خشايارشا إلى أن يكافىء حسن صنيعه ويرد جميله فطال انتظاره ثم طال!

وكان للملك وزير يدعى هامان، وكانت له الرتبى على الناس، فأمروا جميعًا بتعظيمه وإكباره وطاعته، وحز فى نفس مردخاى وكبر عليه أن يستأثر هذا الوزير دونه بالمنزلة التى لا تسامى، فلم يظهر له إجلالاً ولا اكتراثًا، كما نقم منه الوزير دسه ومشيه بالنميم، وأن يصير إلى بسطة فى الدنيا وسعة من المال، وهو الذى كان بالأمس مستحقرًا ضعيف الشأن، فهاج العداء والشر بين مردخاى وهامان، وتمنى كل منهما لو تمكن من خصمه فأورده موارد الهلكة. وأراد الوزير أن يوغر عليه صدر الملك متربصًا به الدوائر، ومؤملاً القضاء عليه وعلى أبناء قومه قضاء مبيرًا، فقال للملك، إن فى البلاد قومًا لا يدينون له بالطاعة، ويجتمعون على عداوة الإيرانيين الذين يخالفونهم فى الجنس والعقيدة، كما ينقبضون عن غيرهم، فلهم عاداتهم وعرفهم وشرائعهم، فمن الخير أن يقتلوا عن آخرهم فتستأصل شأفتهم وتكسر شرتهم، وما كان الملك ليراجع وزيره فى أمر من الأمور، لأنه تعود أن يستشيره لا أن يشير عليه، فصح كلام الوزير فى فهم الملك، وفوض إليه أمر قتل اليهود فى إيران.

وما ظن هامان أنه أدرك بغيته حتى سر سرورًا لا مزيد عليه، وعقد العزم على أن يشفى غيظه من مردخاى وأبناء جنسه الذين عاداهم من أجله. وأحاط اليهود بذلك علمًا فجزعوا جزعًا شديدًا، ورأوا أنفسهم مسوقين إلى هوة للعدم تحت أقدامهم، ولم يجدوا مخلصًا لهم من ذلك الهول إلا مردخاى فسعوا إليه زرافات زرافات، وطلبوا الشفاعة عند ابنة أخيه لتثنى الملك عما نواه. فمزق مردخاى ما عليه من ثوب وعفر فى التراب رأسه ولحيته، ودخل على استر باكيًا منتحبًا يدق صدره، فقالت له فى ذلك، وأوقفها على الأمر، فهدأت من روعه وطيبت نفسه وأوصت أن يصلى اليهود فى إيران ويصوموا ويدعوا ربهم أن يلهمها المقدرة على تنفيس الكرب ودفع الشر ورد كيد الكائدين.

ودخلت على ملك الملوك الذى عودها أن يسألها حاجتها متحببًا إليها بقضائها، فطلبت إليه أمرًا ما كان أيسره، وهو أن تجمعها به وبالوزير مأدبة، فكان لها ما طلبت، وجمعت المأدبة بينهم، وعلت الملك ثم علته أقداحًا لم تبق فى رأسه مسكة من عقل يميز بها بين الحق والباطل فى أقاويلها وأراجيفها، وهى ترمق الوزير بعين غضبى تنبئه بأن شرًا سوف يدركه. ومضى هزيع من الليل، وأوى الملك إلى مضجعه، إلا أن عينه لم تكتحل بغمض، فاستعان على السهاد بمن يقرأ تاريخ حكمه وما حدث فيه من أحداث، ولما وصل القارئ إلى المؤتمرين به وما كان من فضل مردخاى فى التنبيه إليهما، ذكر الملك ما قد كان له ناسيًا، فسأل عن مردخاى وما نال من جزاء كفاء ما صنع، فقيل له إنه لم ينل بعد شيئًا، فاستدعى وزيره هامان وسأله عما ينبغى عمله إذا ما أريد إعلاء شأن وتعظيم قدر، فأخطأ الوزير الفهم وظن نفسه المقصود بهذا الإعزاز والإكرام فقال الملك: «حسنًا، ليكن ذلك من نصيب مردخاى، وعليك تنفيذ مشيئتى فورًا».

وما وسع الوزير إلا الإذعان، فأكرم خصمه متكرهًا مضطرًا ذلك الإكرام الذى لم يكن له فى حسبان، بعد أن ظن بأن الله أظفره به ونصره عليه. وفى اليوم التالى رأت استر هامان مجتمعًا بالملك، فاقتحمت عليهما مجلسهما، وصارحت بطلبتها، وهو أن يأمن اليهود فى إيران على أنفسهم من أعدائهم، ثم أشارت إلى هامان قائلة إنه أعدى أعداء اليهود، فانخلع منه القلب رعبًا، وعلم أن الملك غاضب عليه وقاتله لما رأى الشر فى وجهه، وغادر الملك الحجرة ثائرًا مزمجرًا لبعض حاجته، فارتمى الوزير على قدمى استر ضارعًا فى العفو عنه، وتعلق بثوبها فأشاحت عنه وصارت إلى مخدعها وهو ما زال متعلقًا به، ودخل عليهما الملك فجاءة فوجدهما على هذه الحال، وظن السوء بهامان، فسلمه إلى الجلاد الذى شنقه على أعواد كان قد هيأها لمردخاى من قبل.

وأطلعت استر الملك على كل أمر كانت عنه تخفيه فعرف أن مردخاى عمها، وأنها من يهود، ثم بكت أحر بكاء وهى تتمنى منه أن يتجاوز عن قتل اليهود، ويكتب بذلك إلى عماله فى أرجاء البلاد، فكتب يستوصى بهم خيرًا وينهى عن مسهم بالأذى، وما علم اليهود بذلك حتى تحركت نفوسهم للتشفى، فنكلوا بشانئيهم نكلة قبيحة وطغوا وبغوا.

ومات الملك خشايارشا عام ٤٦٦ قبل الميلاد، ومرت على موته وموت استر ومردخاى أعوام متطاولة، بيد أن اليهود فى إيران ذكروا لإستر ومردخاى فضل استنقاذهم، فأقاموا لهما مقبرة بمدينة همذان. وبعد أكثر من ألفى عام، أى فى القرن الثالث عشر الميلادى، أمر وزير يهودى يقال له سعد الدولة بتجديد بناء المقبرة وتزيينها، واليوم يتبرك يهود إيران بزيارة هذه المقبرة، ولا يفوتهم فى كل عام أن يقيموا عندها عيدًا من أعظم أعيادهم، وهناك يفرحون ويمرحون ويشكرون لله أن نجاهم من البلاء والفناء.

* * * *

الهندُ في الشِعر الفَارسي

بين الهند والفرس أسباب متصلة وواشجة نسب، فهم جميعًا من الآريين، والآريون أقوام عرفت منذ الزمان الأطول واتخذت من إيران مستقرًا لها، فاكتسبت إيران اسمها القديم من ساكنيها وهو «إريانا» بمعنى بلاد الآريين. ولم يخرج الآريون عن عادة الشعوب البدائية فى المهاجرة، فانشعبوا، وولى بعضهم وجهه قبل الشمال، فجازوا جبال أورال لينساحوا فى القارة الأوروبية. أما الفريق الثانى، فاتجه جنوبًا بعد أن اجتذبته إليها أرض الهند المعشوشبة المخصبة. وإن هذا ليفسر لنا وفرة الألفاظ المشتركة التى نشاهدها فى لغات الهند والفرس، وفى الألمانية والإنجليزية من اللغات الأوربية، فيؤخذ من هذا أن شعوب الفرس والهند غصنا دوحة وإخوان لأب واحد، ولم تنقطع، الروابط قط بين الهند وإيران على مر الزمان، فلما فتح العرب فارس، كره بعض الفرس أن يرتدوا عن دين آبائهم ويعتنقوا الإسلام، كما اشتد عليهم أن يرضخوا للعرب لأنهم فى رأيهم أهل جاهلية يرعون الإبل ويأكلون الضباب، فرأوا أن يفروا من وجوههم بقوميتهم العزيزة عليهم، ومجوسيتهم التى لا يرضون بها بديلاً، فشدوا الرحال إلى وطنهم الثانى ألا وهو الهند، وهناك طاب لهم المقام، وما زالت بومباى مركزًا لجاليتهم إلى يومنا هذا. واشتدت الخلطة بين القومين بعد أن فتح السلطان محمود الغزنوى إقليم البنجاب فى أوائل القرن الخامس الهجرى، واحتل عسكره مدينة لاهور، فاحتك الفرس بأهل البلاد وأقاموا بين ظهرانيهم، وكان من أثر ذلك أن تسربت اللغة الفارسية إلى لغة الهند، وامتزجت اللغتان امتزاجًا تامًا تولدت منه لغة هندية جديدة تسمى «أوردو» ومعنى أوردو الجيش أو المعسكر فى التركية. ولا يخفى أن هذا الجيش هو جيش الفرس الفاتحين الذين دخلوا هذه البلاد بلغتهم ثم خرجوا منها بعد أن خلفوا فيها لغة تنسب إليهم، وهى لغة الهند الإسلامية ولها أدب إسلامى رفيع.

وقد عم انتشار الفارسية من بعد بين مسلمى الهند فحذقوها الحذق كله، ونهلوا من آدابها حتى ارتووا، واتخذوها لغة رسمية، واعتبروها ضرورة ثقافية لا تكمل أداة المتأدب إلا بمعرفتها.

وكان الأمراء يبصرون الشعر الفارسى ويكرمون أهله فمدحهم شعراء من الفرس استوطنوا الهند، أملاً فى سنى الصلات وجزيل العطايا، كمسعود سعد سلمان الذى كان من بطانة سيف الدولة الغزنوى، فمدحه يوم ارتقى العرش بقوله: «ولما أسفر الصبح وبدا وجه للفلك على صحيفة من فضة، هب النسيم على، ومن القصر حمل البشرى إلى، فإن

الدولة قد سمت رتبتها، وزادت عظمة على عظمتها، يوم سلمت الهند بأسرها له مقاليد حكمها، ودعى له على المنابر فى كل الأرجاء، وتحلى رأسه بتاج ذى لألاء».

وقد وجهت الدعوة من الهند إلى شاعرين فارسيين، أحدهما قديم والآخر من العصر الحديث. ففى القرن الثامن الهجرى، أرسل حاكم من حكام الهند إلى حافظ الشيرازى يطلب قدومه عليه، بعد أن زوده بنفقة السفر فقبل الشاعر الدعوة وتهيأ للرحلة ولما ركب السفينة هاج البحر بها وماج، فوقع الرعب فى قلب حافظ، وعاد إلى الساحل، ثم رغب عن رحلته، وآثر العافية فى شيراز بلدته. ومنذ نحو من عشرين عامًا كان فى إيران شاعر وطنى يقال له عارف القزوينى، وقد أوفد إليه الفرس المقيمون فى الهند مبعوثًا يزين له الرحيل إليهم للإقامة عندهم على الرحب والسعة، غير أن الشاعر كره ذلك وزهد فيه.

وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، حكمت إيران الدولة الصفوية، واتخذت من التشيع مذهبًا رسميًا لها، وعرف ملوكها بصلابتهم فى مذهبهم وشدة التعصب له، فجر ذلك إلى خلاف ظهر جليًا بينهم وبين الصوفية وتنحصر مظاهره فى أن بعض الصوفية كانوا أهل تسنن لا أهل تشيع، فساءهم من ملوك الدولة الصفوية أن يقسروا الناس على مذهبهم، ويرفضوا غيره من المذاهب، كما كان هناك تعارض بين طائفة من عقائد الصوفية وعقائد الشيعة الإمامية، ولما رأى علماء الشيعة قدرهم يرتفع ومنزلتهم تسمو، رغبوا إلى الملوك أن يقضوا على الصوفية لحاجة من دفع شرهم.

وإذا ذكرنا أن الشعر فى هذا العهد كان معظمه صوفيًا، وأن الشعر الصوفى جماع فنون الشعر الفارسى، أدركنا أن فى إسكات المتصوفة عن الترنم بالغناء، إسكاتًا للبلابل فى روض الأدب ليغشاه سكون كسكون المقابر. وهذا ما كان، فعصر الصفويين أحط عصور الأدب الفارسى، ولا تملك فيه إيران من الشعراء إلا نفرًا كادوا يقصرون شعرهم على رثاء آل البيت وبكائهم. فأين يذهب الشعراء المتصوفون وفى أى مضطرب من الأرض يضطربون؟ لم يجدوا أمامهم سوى الهند، وفيها من سلاطين المغول من يقرب الشعراء ويخاللهم ويجود عليهم بالعطاء الغمر، فرحلوا إليهم ولجأوا منهم إلى ظل ظليل وكنف كريم. وقد أحصى أحد مؤرخى الأدب عدد شعراء الفرس الذين استهوتهم الهند فبلغوا مائة وسبعين شاعرًا، وذكر غيره أن خمسين من الشعراء قدموا على السلطان أكبر، فأكرم وفادتهم. وقد تحدث عن الهند الشاعر صائب التبريزى فقال: «يا لك أمنية تختلج القلوب بها، وما من قلب يخلو منها، فما أشبهك بالرحلة إلى الهند، فإنها منى إلى كل قلب».

وهو هنا يشبه الشوق إلى الحبيب بالشوق إلى الهند، وهذا واضح الدلالة على أنها كانت مهوى الأفئدة، فإن الشاعر لم يجد مشبهًا به غير الهند، وكان الظن أن الشوق إلى المحبوب ليس كمثله شوق فى القلوب.

ويقول أبو طالب كليم: «الهند أنا أسيرها، يا أسفى على العودة منها. ليت شعرى أين تبلغ بالطائر الذبيح خفقات جناحه! هو ذا كليم يعود إلى إيران، وما دفعه إلا حنين الركبان، فإن له أنينًا من قلب حزين، إنه ناقوس تمضى به قوائم الإبل وتسير، وهو لا يدرى أين تريد، واتوقاه إلى الهند، إن عينى إليها رامقة لا تملك التحول عنها، فإذا نظرت أمامى، لم أتبين موقعًا لأقدامى».

فكليم يظهر شديد الحرقة على فراق الهند فى صورة شعرية خلابة، فنراه ملتفت العين والقلب إليها، ولا يمضى به عنها إلا رفقة من المسافرين ينتزعونه منها للعودة معهم إلى بلادهم وهو كاره لذلك كل الكراهية، آسف عليه جد الأسف، وما أجمل أن يجعل من نفسه طائرًا جناحه دائم الخفقان ولكنه لا يقوى على الطيران.

ويقول على قلى سليم مدحًا للهند وذمًا لإيران: «ليست إيران بلدًا طيبًا، تنال فيه أربًا، ولن يكون للحناء حمرة لونها. ما لم إلى الهند تبعث بها».

فالشاعر هنا يتحدث عن بلاده وإعراض ملوكها عن الشعراء إلا أولئك الذين يضربون على الوتر الذى يحبونه، ويصور يأسه من العيش فيها. محبذًا أن يزايلها ويطلب الدنيا فى الهند، تلك البلاد التى يزكو فيها كل شيء ويربو حتى الحناء وهى الحمراء أينما كانت، لن تبلغ تمام حمرتها إلا فى الهند. ومما يجرى هذا المجرى قول جامى: «إن شعرك يا جامى نسيج وحده فى رونقه وعذوبته. اللفظ الفاخر لحمته والمعنى العامر سداه، فهلا جعلته فى تلك القافلة التى يمضى به إلى الهند، لينال هناك حسن القبول عند ملك تجارها؟».

وهذا دليل على كساد سوق الأدب فى إيران ورواجها فى الهند، وإن جامى ليعز عليه أن يعرض بضاعته الغالية على من لا يعرف لها قدرها، ويؤثر أن يبعث بها إلى البلد النازح حيث يفهمها العظماء والأماثل الذين يعرفون فى النفيس نفاسته وفى الغث غثاثته.

وفى عام ١٩٤٤م أرسلت إيران بعثة ثقافية إلى الهند، وكان من أعضائها الشاعر الإيرانى المعاصر رشيد ياسمى وله فى هذه المناسبة قصيدة بعنوان «فى طريق الهند» وقد ألم إلمامًا تاريخيًا حسنًا بكل ما بين البلدين من صلات، ومن قوله: «ما أعذبها بشرى تلك التى سمعتها البارحة، وقد زفتها إلى ببغاء قصباء الهند إنها حلوة وحلاوتها من لسان الهند

المعسول. قالت اليوم يوم الرحيل عن روضة الرى إلى بستان الهند، يا لها قولة جعلت للقلب جناحًا يطير به شوقًا إلى عش له فى الهند، وهو ما لا ريش له ولا جناح.

إن للهند قصة رويت لنا، وعن التاريخ وعيناها، نعم، لقد تساهمت الهند وإيران سراء الحياة وضراءها، إنهما موطن لعشيرة واحدة، وشاهدنا على ذلك كتب الهند القديمة. وكانت الهند وإيران على دين واحد ولا اختلاف بينهما فى علم ولا حضارة، لقد فتح دارا إقليم السند، غير أنه لم يفرق بين بلاده وبلاد الهند. وأعجب أنو شيروان بحكمة بيدبا، وخفق قلب بهرام كور لحسان الهند. وزكت لغة الفرس فى كل الأرجاء من بلاد الهند بهمة الأمراء وكرم قريحة الشعراء، وامتزجت حلاوة الفارسية بالألسن الهندية كامتزاج السكر بالدر، والماء بالخمر، فمسعود سعد وأبو الفرج وخسرو وحسن، كانوا للهند تراجمة فأحسنوا. لقد أصبحت دهلى واجره، الرى وأصفهان، فما أكثر من رحل إلى الهند من شعراء إيران».

وفى القرن الثامن عشر من الهجرة، أغزى نادر شاه جيشه العظيم بلاد الهند، فغلب به على كشمير ولاهور حتى دخل دهلى، وغنم من نفائس الهند وجواهرها ما لا يدخل تحت حصر ولا يقاوم بثمن. وللشاعر الإيرانى المعاصر بهار، قصيدة طويلة تسمى فتح دهلى وهى ملحمة يؤرخ بها هذا الفتح، ويذكر نصر إيران المبين مفاخرًا فيقول (إنه نادر شاه، واهب الملوك تيجانها وصاحب اللواء وقاهر الأعداء. طار صيته بجلائل أعماله، وارتفع ذكره بحروب خاض غمارها. لقد أشخص رسولاً إلى دهلى، ثم تحدث عن قوم صعب مراسهم وانخلع عنانهم، فسفكوا الدماء وسلبوا حق الضعفاء فهان أمرهم وضعف شأنهم. وكان من قوله لهم: صالحونى على منحى دهلى، وحذار ثم حذار من غضبى وبطشى أما ملك الهند فلم يرد عليه وأساء الظنون به، وسار نادر إلى دهلى أعنف سير، مستمداً ربه كل عون، وتحركت جحافل الهند كأنها جراد أو نمل، وارتفعت الأصوات كنعيق الغربان، غير أنه أسكت نأمتهم فكأنهم مصباح اشتدت به الريح، وأصبح للأرض من دمائهم حمرة العقيق!).

وقد كان لشعراء الفارسية فى الهند مدرسة أدبية. فطريقتهم فى الشعر تسمى الطريقة الهندية، ولأصحابها عناية بإشراق اللفظ وحسن جرسه، وإفراط فى تزيين الكلام بزخرف الصناعة وقد يشوهون المعنى الجيد بالألوان والأصباغ. كما يخنقون صوت الشاعر بالألفاظ المجلجلة الموسوسة، وليس كذلك طريقة شعراء خراسان الذين يلتفتون إلى الجزالة والأصالة، ويؤثرون جودة المعنى على زينة العبارة، وليس أهل الهند فى يومنا هذا أقل

ولوعًا بالآداب الفارسية من أسلافهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، فكثير منهم يقرض الشعر بالفارسية، وكل إيرانى يقرأ شعر حافظ الشيرازى يقابله خمسة من أهل الهند، وإذا قرأ سعدى أحد الإيرانيين، قرأه ثلاثة من الهنود، أما ديوان قاآنى فقراءته ودراسته حتم على طلبة الجامعات الإسلامية الذين يحفظون جميعًا قصيدة له تسمى قصيدة الألوهية.

* * * *

شاعر السلام

هو شاعر من شعراء إيران فى العهد السابق، ورجل من رجالاتها الذين سمت بهم همتهم إلى رفيع المناصب. لم يقصر شعره وفكره على معان رددها أبناء قومه، ولكنه خاطب الإنسانية جمعاء فاستفاضت له الشهرة فى الغرب كما استفاضت فى الشرق. وإذا ما أحطنا بقصة حياته، فقد عرفنا العصامية ما هى والنجح كيف يكون، وشاهدنا سعى الإنسان إلى الحول والطول لينعم بالسيادة والمجد، كما أتيح لنا بعد هذا كله أن نصادف ظاهرة قد لا نعيرها الكثير من التفاتنا. وهى أن الجاه والسلطان ينسبان إلى صاحبهما من الأفضال أكثر مما له، ويضيفان إلى الصفة الواحدة من صفات الحسن كثيرًا من الصفات.

أما شاعرنا هذا، فهو من يدعى رضا خان أرفع الدولة، مضت طفولته فى تبريز مسقط رأسه، ولما شب عن الطوق حصل من العلوم ما يحصل لداته وأهل زمانه، وكان أبوه تاجرًا يتجر تجارة رابحة، إلا أن السيل اجتاح مدينة تبريز عام ١٢٨٨ هجرية، فعطبت أمواله وخلت وفاضه وأصبح مفلسًا من المفاليس. ولما وجد رضا خان جهد الفاقة وضرورة الكد طلبًا للعيش، اتفق مع أحد التجار على العمل فى متجره لقاء راتب يستعين به على أمره. وارتحل التاجر إلى استانبول فصحبه رضا خان ليكون له كاتبًا وحاسبًا.

وكانت هذه الرحلة تحولاً فى حياته، وانتقالاً به من حال إلى حال، لأنه أحس فى نفسه شيئًا من السكينة، كما وجد الدافع إلى التزود من علم له به شغف وكلف، وأحسن استخدام الفرصة والتوفيق بين حاجته المادية إلى التكسب، وحاجته الروحية إلى التعلم، فتردد هناك على مدرسة يقضى فيها سحابة نهاره، ومتجره الذى كان يمضى فيه زلفًا من ليله، وما انفك يتعلم التركية والفرنسية واليونانية ويقتلها درسًا حتى حذقها الحذق كله.

غير أن صحته ساءت على الأيام، وشعر بالعلة تثقل وطأتها على صدره، أما الطبيب فوقع على معرفة الداء وقال إن المقام فى استانبول لا يوافقه، لأن هواءها الرطيب أذى يرمضه ويضنيه، فكان حتمًا عليه أن يزايلها، ومضى رضا خان إلى تفليس ليعيش فى كنف قاضيها، وكانت هذه السفرة بشير خير وفاتحة عهد جديد سعيد، فقد داوم على التحصيل حتى ظفر بإجازة علمية عالية وتأتى له أن يتقن الروسية والألمانية والإنجليزية، وبسم السعد له، فاتفق أن مر الشاه ناصر الدين بمدينة تفليس فى رحلة له إلى أوربا، وطلب مترجمًا فتقدم إليه رضا خان، وأعجب الشاه به ورضى عنه، وبلغ من إعجابه ورضاه أن يمنحه وسامًا رفيعًا. وبذلك دخل فى خدمة الدولة، وأقبلت عليه الدنيا بعد طول انصرافها عنه.

ولبث ثلاثين عامًا يتقلب فى أعلى المناصب، فسفر لبلاده فى روسيا وتركيا، كما أسندت إليه وزارة العدل فى إيران، وكان لطول إقامته فى أوربا، وثيق الصلات بملوكها وحكامها وأهل الرأى والفضل فيها، كما كان لرفعة منصبه مرموق المكانة جليل المنزلة، ولم تجد إيران من يفضله لينوب عنها فى مؤتمر الصلح بلاهاى، فأوفدته عام ١٨٩٩م، وظل فى منصبه هذا سبع سنين، كما نال لقب «أمير».

وعرف الرجل بميله إلى السلام والمناداة بالأخوة الإنسانية. ومما رفع ذكره وأطار اسمه فى الخافقين، منظومة له بالفارسية سماها «صدى السلام» وقال فيها: إن أرض الله وطن الناس جميعًا فعليهم أن يعيشوا فيها كما يعيش الأخوة المتحابين المتواصلين». وقد ترجمت هذه المنظومة إلى خمس عشرة لغة وقدمت إلى الملوك والحكام ورجال الدين فى أرجاء الدنيا، غير أن تقديمها إلى الأمير ألبير الأول حاكم موناكو، أعقب ما لم يعقبه تقديمها إلى غيره، وما ذلك إلا لأن هذا الأمير لما اطلع على المنظومة، أراد التعبير لصاحبها عن شكره وتقديره، فاختاره عضوًا فى جماعة عالمية للسلام جعل مقرها فى موناكو.

ومنذئذ اتصلت الأسباب بين الأمير والشاعر، وأكن كل منهما لصاحبه ودًا خالصًا يقوم على اتفاق الرأى ووحدة المشرب، كما توالت المكاتبات بين رضا خان وأصفيائه من أعضاء الجماعة، فحببوا إليه أن يزور بلدتهم بعد أن أفاضوا فى وصف جمالها وخلابة جوها. وكان الرجل مريضًا بداء الملوك فقام فى نفسه أن ينتجع العافية ويسكن بلدًا هو أشبه شىء بالروضة الباسمة فى هذه الدنيا العبوس، بيد أنه قلب رأيه وخاطب نفسه، وذكر الغربة الطويلة التى لا تتلوها أوبة، وذلك الحنين الذى يهفو بقلبه إلى إيران، وأحس الشوق وهو يلج به إلى الأهل والخلان، فزهد فى هذه الجنة ورغب عنها، ونازعته نفسه إلى داره الحبيبة.

وكان رضا خان عنيفًا فى وطنيته فخورًا بإيرانيته، فذكر أن موناكو كانت فى سالف الدهر من ممتلكات إيران، واستفسر التاريخ فعرف أن ملك الفرس قورش اقتطع موناكو وأدخلها فى حوزته، فأصبحت جزءًا من ممتلكات الدولة الفارسية، وقد تم له ذلك بعد أن غلب على فينيقيا سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، كما أن الملك دارا حارب اليونان وعبر البوسفور ثم غزا تراقيا وأوغل فيها، وفى عودته من أوربا إلى وطنه إيران شاهد السفن اليونانية والفينيقية التى عبر البحر عليها، وأصدر الأمر إلى بعضها فأقلعت جاعلة وجهتها تلك البلاد التى ضمها قورش من قبل إلى مملكته، وإنما كان أرب دارا من ذلك أن يعلن على الملأ نصره ويباهى بمجده. وما ذكر رضا خان هذه الحقائق حتى شعر بالفرحة تملأ قلبه، وصح منه العزم على الإقامة فى بلد كان ملكًا له فى سوالف الأيام فلن يكون غريبًا ولا دخيلاً.

هكذا تمثلت موناكو فى خيال رضا خان، فكتب إلى من ابتاع له أرضًا فى أجمل موقع، وابتنى قصرًا على طراز داره فى تبريز. وقد جرى بذلك على عادة الفرس الذين كانوا مولعين برفع البنيان فى كل أرض حلوا بها تخليدًا لذكراهم، وإبقاء لاسمهم على وجه الزمان.

ومضى إلى موناكو لسكنى ذلك القصر الذى كأنما انبثق على الشاطئ الأوربى من حلم شاعر فارسى.

وكان القصر آية من آيات الفن الشرقى، جميل الزخارف بديع النقوش، يعرج عليه الجوابون وقد استوقفهم بمنظره الذى لا عهد لهم بمثله إلا فى أساطير الشرق وأخيلة الشعراء. وقد جمع فيه صاحبه من الرياش والتحف كل نادر وجميل، فمن طنافس إيرانية، وأوعية خزفية، إلى دمى من مرمر وثريات لها بهاء نجوم السماء، وفى القصر كان رضا خان يستزير علية القوم وفى طليعتهم أمير موناكو، فيدور الحديث على النفائس والتحف، وإيران ومن أنجبت من أدباء وشعراء. ويسأل رضا خان فيجيب إجابة الحجة الثبت والوطنى الغيور. ولم يفته أن يقيم على سطح القصر تمثالين أحدهما لقورش والآخر لدارا، إحياء لذكرى هذين الملكين اللذين ملكا هذه الناحية فى الماضى السحيق.

تلك هى حياة الرجل العامة والخاصة، أما حياته الأدبية، فإنه عالم وشاعر، والذى نراه منصفين لا مفترين، هو أن شعره ينحط كثيرًا عن رتبة المجيدين، فمنظومته (صدى السلام) طريفة فى موضوعها وهذا سر شهرتها وسيرورتها، غير أنها قليلة القيمة الفنية أو عديمتها، فلا تكاد تقف منها على بيت يعجبك أو معنى يطربك، ومن أحسن ما فيها قوله: «مثل أبناء آدم فى الدنيا كمثل الأزهار فى الروضة والأغصان فى الدوحة. فبالله ما علة هذا القتال والنزال. وما تلك الإغارات وقتل النفس اليوم وبالأمس، إنه لداء عياء حرى بنا أن نعرفه، ونبحث عن طبابة لنبرأ منه. الجهالة والأثرة منذ القديم، هى السبب لسفك الدماء والشر العظيم. وما دام لهذه الصفات وجود، فالسلام بيننا لن يعود. الإفريقى والأوربى والصينى أبناء وطن، وهذه الأرض لهم سكن. لقد خلقنا الرحمن من العدم، فجعل العقل هاديًا للأمم. كلنا لأب واحد ومن أم واحدة، وإن الأخوة لتجمع بين الرومى منا والصينى!».

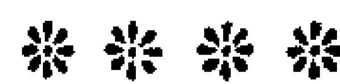
فهذه الدعوة الإنسانية لا يمكن أن تعاب، غير أن ضعف صياغتها قد أفسد كثيرًا من جمالها. وله منظومة أخرى من مائتى بيت بعنوان (عمر الإنسان الطبيعى) وقد نظمها أيام كونه سفيرًا باستانبول، ويقول فيما حمله على نظمها أنه كان يستقبل أعضاء الجالية الإيرانية

فى تركيا فيشاهد أن معظمهم شيوخ رق عظمهم ووهت منتهم، يشكون المشيب ويترحمون على الشباب، والذى يراه هو أن عمر الإنسان لا ينبغى أن يقل عن مائة وخمسة وعشرين عامًا، ولذلك فقد قرض هذه المنظومة لذكر السبب فى طول العمر وقصره.

ومن قوله: «اجعل الاعتدال رائدك وشعارًا لمسلكك، وإن مجانبته فى كل حال، تجر على بدنك الضنى والوبال، اصنع ما بدا لك فى نهارك، أما الليل فليكن لنومك واستجمامك، لا ترهق البدن فى شبابك. فتعدم بذلك عافيتك، واعلم أن عمرك ينقص بشيئين، هما الغم وسوء الطبع وإذا ما كنت حميد الطباع عف اللسان، فحبذا أنت من سعيد وحبذا شبابك من شباب!».

فهذا كلام يخلو من الشاعرية خلوًا تامًا، وهو نظم لا ماء فيه ولا رواء، ومن أعجب العجب أن يقدم رضا خان هذه المنظومة إلى الشاه ناصر الدين فيوقع الشاه بقوله: «إن أشعار الأمير أرفع الدولة غاية فى الجودة، ولقد لقى العناء فى نظمها». وهى على ما أسلفنا من وصفها، مشهورة فى تركيا وإيران وقد ترجمت إلى التركية والفرنسية، كما اتخذت موضوعًا لمسابقة أدبية فى إيران.

والذى نراه تعليلاً لاستحسان هذا الشعر الخالى من الحسن هو شخصية صاحبه وسمو رتبته، فقد كان الرجل سفيرًا ووزيرًا وأميرًا، ويا طالما قال الفرس والترك (كلام الملوك ملوك الكلام).



مَولِد النَّبيّ فى الشّعر التركى

الأدب التركى القديم أدب إسلامى بكل ما يؤديه هذا اللفظ من معنى، فهو فى معظمه شعر روحانى فاضت به قلوب الصوفية فكان مرآة مجلوة للنفس الإنسانية إذا سمت وصفت وامتزجت فيها التقوى بالعاطفة، فتولد من هذا الامتزاج ذلك الحب الإلهى الذى جرت مدامعه بحرًا، وترددت زفراته وخفقاته وزنًا وقافية. وكأن منشد شعره صيدح يئن فى قفصه الأرضى ويحن إلى وكره العلوى. والنبى الكريم عند الصوفية بأعظم منزلة وأرفعها، لأنه فضلاً عن كونه نبى الإسلام، فهو ﷺ أول من تصوف فوصل، وعشق الذات الإلهية العلية فكان أكرم عشاقها. ولا يعزبن عن البال أن الترك أهل تسنن فحب النبى عندهم فوق كل حب ومقامه فوق كل مقام. وإذا ما نظرنا فى دواوين الشعر التركى فقلما نجد أحدها غفلاً من ديباجة شعرية يمدح النبى بها مدحًا عاطفيًا صوفيًا جميلاً تهتز منه القلوب المؤمنة وتطرب له النفوس الشاعرة، غير أن الشعر التركى متميز كذلك بما يعرف بمولد النبى، وهو نوع من المدائح النبوية التى ابتدعها الصوفية. وقد عرفت كلمة (مولد) منذ عهد بعيد وأطلقت بمعنى تاريخ، وللواقدى كتاب بعنوان مولد الحسن والحسين. وقد زعموا أنه ﷺ أوصى فى حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد مماته.

ونحن هنا إنما نريد لنعرض للمولد بالمعنى الذى جرى به على لسان شعراء الترك، وما أكثر من نظم الموالد منهم، غير أن أولهم وأشهرهم هو سليمان شلبى الذى عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى على عهد السلطان أورخان، ثانى سلاطين آل عثمان ولا يعرف من سيرة هذا الشاعر إلا النزر اليسير، فقد سكت المؤرخون عن ذكر عام مولده ووفاته، وكل ما يؤثر عنه أنه من أهل مدينة بروسه تلك المدينة التى جعلها السلطان أورخان عاصمة ملكه، وظلت عاصمة للترك حتى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية. وكان من مشايخ الصوفية وإمامًا فى أحد المساجد وأشهر من سيرته منظومته التى تعرف عند الترك بـ «وسيلة النجاة» أو «مولد سليمان شلبى»، وهى طويلة فى نحو من ستمائة بيت. أما الباعث له على نظمها، فيقال عنه إن الشاعر كان يستمع لأحد الوعاظ ذات يوم فكان من كلام الواعظ أن قال إنه لا يفضل محمدًا على غيره من الرسل، وهو على حجة من قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾، واتفق أن كان بين الحضور عربى من أهل الشام فساءه ذلك كثيرًا وأثار حفيظته، فرده وصاح على الواعظ وهو يقول: «أيها الجاهل، ألا علم لك بالتفسير، وقد ذهلت عن المتشابه والنّاسخ والمنسوخ، فإن المعنى المقصود إنما هو عدم التفرقة بين الرسل فى أمر الرسالة والنبوة لا فى مراتب الفضل. وإذا ما صح هذا

التفسير فكيف تفسر قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾. ورجع العربى إلى بلده مغضبًا، وهناك استفتى فى قتل هذا الواعظ ثم رحل إليه وقتله. فتأثر لذلك سليمان شلبى أبلغ التأثر واهتزت نفسه فى أعماقها فما وسعه إلا الترنم بهذا المولد، لما فى ذلك من شفاء لما أحس به من لوعة الوجد، وتنفيس عن شدة الأسى ويلوح أن قصة الواعظ مع العربى من نسج الخيال. وأيًا ما كان فقد تبوأ سليمان شلبى بهذا المولد منزلة مرموقة فى تاريخ الشعر التركى، فهو يعتبر أول شاعر عثمانى أطلق نفسه على سجيتها وقال شعرًا فيض الخاطر، ولم يردد من المعانى ما أطال ترديده أسلافه الشعراء. ومن قوله فى مولده: «هذا القادم للعلوم اللدنية سلطان، هذا القادم كنز توحيد وعرفان، هذا القادم تدور الأفلاك بمحبته، ويشتاق الملائكة والأنام إلى طلعته، وتقول آمنة لما حان الوقت لمقدم خير البرية إلى هذا الوجود، لقد مسنى حر الظمأ، فاسقونى قدحًا مترعًا ببرود يفوق الثلج فى نصاعة البياض، والسكر فى حلاوة المذاق، فالوداع يا روح الروح الوداع، الوداع يا بلبل روض الجمال، الوداع يا حبيب ذى الجلال، منهما امتد عمر الإنسان فالموت لا شك مدركه، آه من الموت آه من الموت، الأمير والحقير عنده بمنزلة سواء. لقد رحبت بمقدمك ذرات هذا العالم وهى تقول: مرحبًا بك أيتها الشمس المشرقة مرحبًا، مرحبًا بك يا روح الأرواح مرحبًا، مرحبًا بك يا شمس العاشقين مرحبًا، مرحبًا بك يا بدر الصادقين مرحبًا، مرحبًا بك أيها المحب الصافى مرحبًا، مرحبًا بك يا رحمة للعالمين مرحبًا، مرحبًا بك يا شفيع المذنبين مرحبًا، مرحبًا بك يا دليل الأنبياء مرحبًا، مرحبًا بك يا سيد الأصفياء مرحبًا، أنت الدواء لداء القلوب، والآخذ بيد كل عاجز مكروب».

وإذا ما نظرنا فيه نظرة أهل عصره، راعتنا منه جمل مستوية النسق، وكلمات متراصفة، وسهولة مجراه على اللسان، إلى ما فيه من رقة نسج واتقاد عاطفة، أما تكرار المقاطع فإنه لا شك يكسبه الصلاحية للترنم والتغنى، وأن النزعة الصوفية لا تظهر فيه إلا بعض الظهور لتضفى على حب المصطفى روحانية ونورًا فوق نور، وما أبعد البون بين هذا الشعر، والشعر التركى المعاصر له فى ذلك العهد القديم، فقد كان تعليميًا جافًا، وصوفيًا رمزيًا مبهمًا، تضل الأفهام فى وعورة ألفاظه ومتاهات معانيه. فلا جرم كانت لهذا المولد عند الترك سيرورة عظيمة، ولا أدل على ذلك من أن المتقين منهم قد جرت عادتهم بالاجتماع بالمساجد والمنازل فى شهرى ربيع الأول والثانى للاستماع إلى من ينشده بصوت العندليب، فيقع الخشوع فى الأرواح، وتسرى هزة الطرب فى الأبدان، ثم يترحمون على سليمان شلبى قارئين الفاتحة لروحه فى عليين، وهم على عادتهم هذه منذ ستمائة سنة. وقد قلد

هذا المولد كثير من الشعراء، وفى ذلك يقول مؤرخ تركى قديم من مؤرخى الأدب يدعى لطيفى أفندى: «لقد رأيت من هذه الموالد مائة مولد، وأجلت نظرى فى كل منها، فلم أجد ما وجدت فى مولد سليمان شلبى من جمال اللفظ ورقة المعنى واضطرام العاطفة، فمولده أعلى الموالد رتبة وأوسعها شهرة».

وهذا دليل على أن الشعراء جهدوا أن يأتوا بمثله فكلت عن ذلك قرائحهم، وأرادوا ليدركوا شأو الشاعر فلم يشقوا غباره.

غير أنه من خطل الرأى فى نظرنا، أن نعتبر المجيد مجيدًا والمبرز مبرزًا دون ذكر لمن يتلوه فى رتبته، لعقد الموازنة بين الفاضل والمفضول، وإثبات ما يمكن أن يكون من تخالف وتقارب واتفاق، ولن يعرف الحسن من الردىء إلا بالإضافة والمقايسة.

***

فنرى حتمًا من الحتم أن نذكر الشاعر حمدى ومولده، لأن إجماع المؤرخين منعقد على أن مولد حمدى هو المولد الوحيد الذى يتلو فى الجودة مولد سليمان شلبى. وحمدى شاعر صوفى عاش فى عهد السلطان بايزيد الثانى ومات سنة ١٥٠٨ ميلادية. وليس هذا الشاعر مدينًا بشهرته الأدبية لهذا المولد، فقد اشتهر بمنظومة له تسمى يوسف وزليخا ترجمها عن الفارسية إلى التركية، واختارها بالذات لأنه كان مجفوًا من أخوته كما كان يوسف الصديق، فأجاد الترجمة وأضاف إليها من عندياته، وصدق فى شعوره وهو يتجرع من تلك الكأس المريرة التى تجرع منها يوسف فى الزمان الأول، كما أن لحمدى منظومة أخرى هى قصة ليلى والمجنون التى ترجمها كذلك نظمًا عن الفارسية فكان لذلك محسنًا متقنًا. أما مولده فلا يعادل فى شهرته منظومتيه المذكورتين، وإنا لنجد فارقًا واضحًا بين مولد حمدى ومولد سليمان شلبى، فحمدى يضمن منظومته غزليات، وهذا ما لم تجر به عادة الشعراء على عهد سليمان شلبى، ومن قوله: «وانطلق يومًا رحمة العالمين إلى حراء للتعبد والتهجد، وهناك بغته أن يظهر الحق له، لأنه رأى روح القدس عيانًا، فقال للحبيب بعد أن حيا، أنا جبريل يا نبى الدنيا، فقومك يأمرون بالمعروف وعن المنكر ينهون، ويحفظون القرآن عن ظهر قلبهم، وتلك نعمة لا يشركهم فيها غيرهم».

والفرق جلى بين المولدين، فحمدى فاتر العاطفة يسرد الحقائق مجردة من وشى الصناعة وزخرف الفن، والمستمع إليه تدركه سأمة ونعسة بعد إذ عدم ما يشوقه ويروقه، وكلامه مجرد قول مفيد، وقد تتطلع النفوس من الشعراء إلى قول لا يفيد، ولكنه يفعمها بالأنغام والأحلام كما كان من صنيع سليمان شلبى فى مولده، أحسن الله جزاءه عليه.

** ** **

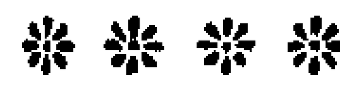
باريس

من قصيدة للشاعر الفارسى فرهنك، قالها وصفًا لباريس عام ١٣٠٤ هجرية، وهى متميزة بالجدة والطرافة إذا اعتبرنا زمانها الذى قيلت فيه. كما أنها تعبير شرقى عن مشاهداته للغرب منذ أكثر من نصف قرن، ورأى إيرانى فى نظم الحكم وتقاليد المجتمع عند الفرنسيين.

«هلم، وشاهد بعين تكشف الأسرار، فباريس أنوار على أنوار، ولتفتح ناظريك لترى من حولك ما قد خفى عليك. لقد أظهر الحق تعالى القوم على سر الحر ومعنى الحرية، فكلهم سادة نجب تعدم فيهم نضو الذل والعبودية، شبابهم وشيبهم، نساؤهم ورجالهم، كأنهم ملوك زمانهم، فكل منهم له سورة وصولة، عريض الثراء رفيع السناء. لا يأخذ البصر فيهم متعطلاً ولا متبطلاً فإنهم جميعًا أهل جد وعمل، ومنهم ذو الرياسة وصاحب السيادة، والمتوفر على أداء مهمته، والمشغول بما يشغله. إنها مدينة لها من جنة الخلد زينتها وبهاؤها، وروضة لها من رياض الربيع بهجتها ورواؤها. ليلها أشبه شىء بنهارها، لكثرة المشاعل وتوهج نورها، انظر إلى الحسان يخطرن سربًا بعد سرب، والوجوه صباح كأنها أقمار، والخدود ملاح كأنها أزهار. يا لطرقاتها، كأنى بها حديقة إرم! فقد تناوح الدوح فى جنباتها، وصفف الكثير من المقاعد فى أرجائها. هذه العربات تحمل الخرد الغيد، وتلك بها أهل الصبابة والهوى، لله ما أجمل مشيتها، وما أشبه من فيها بالحوراء فى حجلتها، يا كثر ما تمضى مركبات الترام بها، وتصل بين البعيد من أطرافها، كأنها مقاصير فى قصور الجنة، ينقلها الناقلون من يسرة إلى يمنة. الورد والنسرين أينما توجهت، والروض والياسمين حيثما نظرت. إنها باريس، نفح فيها طيب الأزهار، فكأنها وعاء عطر العطار. لا تصدق ما أصف لك وأقص عليك، حتى تقدم وتشاهد بعينيك. للقوم شعار هو الصدق، فهم صادقون فى الأقوال، مخلصون فى الأعمال، وهم لذلك ملتزمون فى أسواقهم وبيعهم وشرائهم، لن تسمع هجرًا ولا هراء، اللطف والظرف من شيم النفوس عندهم، وإن أحدهم ليؤثر أخاه ولا يؤثر عليه، الناس هناك طرًا على دين عيسى، وفى أرجاء البلاد آثار على ذلك تدل وتشهد، كلهم روحانيون ومسيحيون ولهم بدينهم دراية وسعة إحاطة. ففى الكنيسة رأيت القس يرتل ويتبتل، وهذا يجعل الطيلسان دثاره، وذاك يجعل فى وسطه زناره.

وفى (نوتردام) شاهدت معتكفًا للتعبد، وقد نقش صورة على لوحة، ورسم لعيسى رسمًا أمامه، فهناك ركعته وسجدته، وهذا الجدار قبلته، إنهم من دينهم فى نعمة

محبورون، وصادقون، مخلصون. فى نفوسهم طهر وفى طباعهم صفاء، ولهم من حميد الخصال ما كان لنبيهم، إنهم لعملهم متقنون، وهم مختارون له لا مجبرون عليه، رأيهم واحد فى المشورة، وبعضهم لبعض يبذل المعونة، لهم عقل وتفكير، وعلم وحكمة وتدبير، ولكنى أريد أن أسر إليك شيئًا فصدقه، على الرغم من سعة علمهم ودقة فهمهم، فالطب عندهم أضاليل وأكاذيب، فلا شفاء عندهم من الأدواء! وهم جميعًا ملوك وسلاطين، فليس لديهم ملك ولا سلطان. بلادهم لا يحكمها حاكم، وجيشهم لا يقوده قائد، غير أن جمعًا من الحكماء والعقلاء يجتمعون فى قصر من القصور، وهناك ينعقد المجلس للناطقين بلسان واحد مبين، فتتفرق بهم شجون الكلام، ويتشاورون فيما حزب من الأمور والمهام. ولهم مجلس من سبعمائة. كلهم عالم كبير الفطنة، وهم متفقون فى الأقوال والأعمال، واسم هذا الجمع وذاك المجلس الجمهورية، فمدار الحكم فى فرنسا على الجمهور، ولم يقر فيها أحد بحكم لسلطان، بعد لويس فيليب ونابليون. فمن كل فرد سلطان على الدولة يسوسها ويدبر شؤونها، ولا خوف عليه ولا بأس، فقد حل العلم له كل مشكلة، وذلل أمامه كل عقبة، وإذا قال أحدهم قولاً فلن يجد مكذبًا ولا مفندًا، ولا مكابرًا ولا معاندًا».



خيال الظلّ عند الترك

إذا قلنا إن ما يعرف بخيال الظل أو خيال الستارة هو فى واقع الأمر مسرح الترك القديم، فقد جلونا الفكرة وقربنا الصورة، وإذا ذكرنا ما كان من شديد ولوعهم به وانصرافهم إليه على تباين طبقاتهم، حق لنا أن نسرد قصته عندهم، ونحن بذلك إنما نؤرخ الفن التمثيلى لديهم ولدى كثير من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية التى أخذته عنهم، كما نصور جانبًا من حياتهم ونتفهم روح المجتمع فى لهوه البرىء وهو يتخذ من الرسوم والتصاوير أداة رمز وتعبير.

ومن الحقائق التاريخية التى انعقد الإجماع على قبولها، أن الترك فى آسيا الشرقية عرفوا خيال الظل عن الصين. والصين كما هو معلوم أهل حذق وصناعة، ومما يعزى إليهم أنهم أول من اتخذ الورق وأبدع فى الرسم والنقش، فكانوا يرسمون على قماش أو ورق أو ما أشبه ذلك، كهيئة الإنسان والحيوان، فإذا أتموا الرسم حصلوا بذلك على ستار يزدان بعجيب الصور، فأثبتوه فيما يشبه مصباحًا كبيرًا، وحرصوا أن يحيط به من كل ناحية فى شكل مستدير، ثم يضعون فى وسط المصباح من الداخل شموعًا كثيرة فإذا أوقدت وسطع نورها فى الظلام بدا أمامها كل ما فى الستار من نقوش وتهاويل، كأنها أشباح واضحة الحدود والشكول. ويدار المصباح حول نفسه فيدور الستار أمام الرائى وتتعاقب صوره. وقد ضرب الترك المثل بدورانه فقالوا: «يدور كما يدور مصباح الخيال».

وكان الفرس أول من أخذ خيال الظل عن الترك وقد جرى ذكره كثيرًا على ألسنة شعرائهم فيقول عمر الخيام فى إحدى رباعياته: «يا لهذا الفلك الدوار الذى يدور بنا! كأنى به فانوس الخيال، فالشمس مبعث الضوء وهذا الكون مصباح، أما نحن فصور وأشباح فى غدو ورواح». كما قال فريد الدين العطار وهو من شعراء الصوفية عند الفرس: «كان رجل تركى صاحب ستارة، وكان عظيمًا فى علمه منقطع القرين فى فنه، يحسن النقش على الستار، ويجد الرزق أينما سار، وهو على الدوام يلعب، ويخلق من الألوان صورًا تعجب، فكان إذا بلى الزمان نقشا له، أسرع فاستبدل به غيره. وصوره يختلف بعضها عن بعضها شكلاًو ولونًا، أما ألعابه فيعرضها فى سبع ستائر، برقشها وزينها».

ويؤخذ من هذا الشعر أن اللعب بخيال الظل كان صناعة لغجر الترك يستدرون بها الرزق ضاربين فى الآفاق، فمضوا بحرفتهم هذه إلى مصر. وفى القرن الثالث عشر الميلادى تغزل شاعر مصرى فى حسناء تلعب بالخيال فقال:

أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلاعب للأشخاص من خلف سترها كما لعبت أفعالها بأنام

ويقول ابن إياس إن السلطان جقمق أمر بإحراق شخوص خيال الظل، وأن السلطان الملك الناصر كان يطيب له استدعاء من يدعى أبا الخير ليشاهد منه ألعاب خيال الظل. وفى عام ١٥١٧م فتح السلطان سليم الأول مصر، غير أن الأمور لم تستقم له إلا بعد قتل طومان باى آخر المماليك الشراكسة، فلما قتله وبات آمن السرب ناعم البال فى قصره بالروضة، شاقه أن يذكر نصره المبين، فوجد مقتل طومان باى أحسن ما يذكر به، وما كان منه إلا أن استحضر أحد اللاعبين المهرة بخيال الظل، وما مثل فى حضرته حتى طلب أن يشاهد على ستارته كيف شنق طومان باى على باب زويلة ثم صلب بعد أن انقطع الحبل به مرتين، قيل ونال السلطان أربه، وشاهد ما أحب أن يشاهد، فسر كثيرًا وأعجب باللاعب إعجابًا لا مزيد عليه، ووصله بمال جزيل وخلعة، ثم شرط أن يكون هذا اللاعب معه فى عودته إلى استانبول، ليطلع منه الأمير سليمان على ما يعجبه ويبهجه. وقفل السلطان إلى وطنه فصحب معه ستمائة من اللاعبين بخيال الظل فيما يقال، وقد خير هؤلاء اللاعبون بين البقاء والعودة فى عهد السلطان سليمان القانونى.

وهذا واضح الدلالة على أن الأتراك العثمانيين عرفوا خيال الظل عن المصريين الذين كانوا قد تلقنوا فنونه من الأتراك الشرقيين غير العثمانيين. وقد أقبل الترك على خيال الظل إقبالاً عظيمًا، وراقهم كثيرًا أن يشاهدوه، فكانت تعرض عليهم ألعابه فى المنتديات والمشارب، كما جرت العادة باستعراضه فى ليالى رمضان خاصة، تلك الليالى التى يتبسط الناس فيها ويطلبون ما يسرهم بعد يوم جوعان عطشان، فكان ذلك دأبهم فى المدن والقرى، ولم تكن مشاهدته مقصورة على الصغار دون الكبار ولا على سواد الناس وحدهم دون أوساطهم وصفوتهم، فقلما كانت تخلو منه قصور العظماء فى حفلات الزواج والختان، وقد قدم على كل الملاهى فى قصور السلاطين، فيروى عن السلطان مراد الثالث أنه أقام حفلة عظيمة يوم ختان ولده، وكان خيال الظل فيها موضع إعجاب الحضور ومجلبة لبهجة النفوس، وقد حظى أصحاب الخيال عند السلاطين وأكرموا أعظم إكرام، فقد ذكر الرحالة التركى أوليا شلبى لاعبًا بالخيال يدعى حسن زاده، فقال أنه كان يلعب بالخيال مرتين فى كل أسبوع ليدخل المسرة على السلطان مراد الرابع الذى كان يصطفيه ويرفع منزلته، لحذقه العربية والفارسية ولطف نظره فى فن الموسيقى.

ومما يروى عن السلطان إبراهيم أنه كان متهالكًا على اللذات وصاحب لهو وطرب، يقرب الندماء ويتسخى على كل من هز نفسه إعجابًا وإطرابًا. وقد أراد مرة أن يكافئ أحد اللاعبين بالخيال، فأسند إليه منصبًا رفيعًا يغبطه عليه عظماء الدولة. وفى عام ١٦٥٢م زار تركيا سائح فرنسى، وكان العهد عهد السلطان محمد الرابع، فقال إن معظم من يلعبون بالخيال من اليهود. ووصف سائح آخر ألعاب الخيال عند الترك وهو يتحدث عن الاحتفال بختان ولى العهد الأمير مصطفى، فكان من حديثه أن قال: «ولما أقبل الليل، عرض خيال الظل، فشاهده السلطان ومعه وزراؤه من سرادقهم».

وكان لهؤلاء اللاعبين عند الناس قدر ومنزلة، وقد كتب على قبر أحدهم هذا البيت الذى يتضمن معنى صوفيًا جميلاً وهو: «إن الستار هبة وهبها الله للفنان، ليظهر عليه مخلوقات الرحمن. ويجعل المظهر وسيلة إلى معرفة المخبر».

أما المعانى التى طرقها اللاعبون بخيال الظل. ورمزوا إليها بأخيلتهم وصورهم، فإنها تشبه كثيرًا ما طرقه شعراء الترك على توالى عصور الأدب التركى، فقد كان الشعر صوفيًا وقصصيًا فى بداية تأسيس الدولة العثمانية، ثم ظهرت فيه الذاتية بعد فتح القسطنطينية وثبات دعائم الدولة واتساع رقعتها، وكذلك كانت ألاعيب الخيال تدور على المعانى الصوفية، وتمثل قصص العشاق كقصة خسرو وشيرين وطاهر وزهرة، ثم تقدم الزمن فكان خيال الظل نقداً للمجتمع وتبصيراً بالمحاسن والمساوئ.

وفى القرن السابع عشر تطور عن خيال الظل ما يعرف بقره كوز، وهو يفترق عن الخيال بأن الشخوص فيه دمى تحرك من خلف ستار، ويقال إن أول من ابتدعه درويش قدم من إيران فى عهد السلطان أورخان المتوفى سنة ١٣٥٩ ميلادية، واسمه الشيخ كشترى المدفون فى مدينة بروسه. ومعنى قره كوز فى التركية (أسود العين) وتلك صفة الغجر، وإليه تنسب اللعبة لأنه الشخصية الرئيسية فيها التى تتلوها شخصية حاجى واد. ومن مألوف العادة أن تبدأ التمثيلية على النحو الآتى:

يلتقى القره كوز وحاجى واد، ويأخذان بأطراف الحديث بينهما ويتم اتفاقهما على القيام بعمل رابح، فيبدو القره كوز شديد الجهل بعيد الفهم ولا غرو فهو غجرى أسود العينين لا حظ له من معرفة ولا عهد له بحياة العمل فى المدينة، ويظهر معهما أشخاص من جميع الأجناس كاليهود والأرمن واليونان، وهم يتكلمون التركية بلهجة تثير ضحك المشاهدين والمستمعين. وقد يدور التمثيل على قصة من قصص القره كوز كقصة البيمارستان والزورق والكاتب.

أما لغة القره كوز فقد تسمو وتبلغ فى سموها لغة الحريرى والبديع ورموز الصوفية، وقد تسف فتنحط إلى عبارة السوقة وهراء العجائز. ومن المستطرف أن يغنى حاجى واد قبل بدء التمثيل، وغناؤه بالعربية والفارسية، أى بلغتين إسلاميتين كانتا عند الترك قديمًا مصدر العلم ورفيع الثقافة. فيتغنى بقول القائل:

أحِـنُّ شوقًا إلى ديـار لقيت فيها جمال سلمى
يالا يالا آه، يلللى واى لقيت فيها جمال سلمى

ثم يقول بالفارسية: «مَنْ ذا فى هذه الأرض البعيدة، يزف إلى البشرى بوصل حبيبى يالا يالا آه، يلللى واى، يزف إلى البشرى بوصل حبيبى».

وكان تمثـيل القـره كوز عـنـد الـترك أداة طيبـة للتعبير يتخذونها فى بعض الأحايين، فإذا أرادوا أن يوقفوا السلطان على أمر من الأمور ولم يجدوا فى أنفسهم جسارة للتصريح به، أو كان لهم حاجة عند عظيم من العظماء، وشاءوا أن يلطفوا فى المسألة، وكلوا إلى القره كوز أن يتحدث بلسانهم ويعرض مطلبهم بدقيق التلميح، ومليح الكناية والإشارة. ومنذ مائة عام أو أقل، استزارت كريمة محمد على باشا الكبير عقيلة الصدر الأعظم فى تركيا، وشاهدت الزائرة التركية تمثيليات القره كوز فى قصر الأميرة المصرية، فعرفت كثيرًا من عاداتها، لأن التمثيل كان مصورًا لبيئتها، وكان القره كوز متحدثًا عنها وعن حاشيتها.

وقد عرف اليونان وأهل رومانيا خيال الظل والقره كوز عن الترك، فراجت هذه الألاعيب عندهم فى طبقات الشعب على الخصوص، وإنها لمصدر من مصادر الأدب الشعبى، فى دراسته المستفيضة خير كثير.

* * * *

طيور فى شعر الفرس

إذا تصورنا الطير مذكورة فى الشعر، فالسابق إلى الفهم أنها لسان الطبيعة ينطق عنها، وصوتها المترنم، تموج نبراته فى نفوس الشعراء نجوى لها يهتزون ومنها يطربون، وما دام هذا شأنها معهم ساغ لنا أن نقول إن ذكرها يجرى على لسان الشاعر كلما تملى حسن الطبيعة فانتشى وغنى. غير أن شعراء من الفرس يخرجون عن هذا المألوف، لأن ذكرهم لها ليس قاصراً على شعر الطبيعة، وإنما يتعداه إلى فنون أخرى وأغراض على حدة، كان تناولهم إياها غير ما نعهد عند العرب مثلاً.

وإذا ما تتبعنا صنيعهم هذا منذ أقدم العصور، وجدنا فى تاريخ الفرس الخرافى بطلاً يقال له «سام بن نريمان» كان يتهل إلى ربه سائلاً أن يرزقه ولداً يشد أزره وتقر به عينه، واشتملت منه جاريته على حمل، ففرح واستبشر، بيد أن الهموم عصفت بقلبه يوم ولد له، لأن الوليد كان أبيض الشعر، كأنه شيخ علته الكبرة، فلما رآه على هذه الهيئة استقبحه واقتحمته عينه، وأمر به فأخرج إلى الجبل، وأصعد به حيث ترك وحيداً.

وقد ذكر الفردوسى هذه القصة فى شاهنامه، ومن قوله: «وكان على رأس الجبل معشش العنقاء، وكانت تطير فى طلب الرزق لأفراخها، ورأت الصبى فى مثل ذلك الموضع، فألقى الله محبة منه فى قلبها، ورفرفت عليه بجناحيها ثم حملته وحلقت به ووضعته بين أفراخها، فكانت تربيه مع أولادها حتى طالت عليه المدة، وترعرع بين أولاد العنقاء. وكانت القوافل تعبر تحت ذلك الجبل فوقعت أبصارهم على مولود إنسى بين أفراخ العنقاء، فقصوا العجب من ذلك وتحدثوا به».

وفى أساطير الفرس كذلك طائر يقال له «هما» إذا وقع ظله على رأس إنسان صار ملكًا، فاشتقت من اسمه كلمة «همايون» وهى فى الفارسية بمعنى ملكى أو مسعود، وقد جرى لهذا الطائر ذكر فى الشعر، ونسب إليه السعد واليمن كما فى قول هذا الشاعر المداح: «هو ذا الملك المظفر المنصور، والسيد الأريب ذو الرأى المصيب، لقد أولم الوليمة العظيمة فى قصره الجديد العتيد، وكان اليوم يوم السعد الأكبر والطالع الميمون، الحظ موات والنجوم فى أسعد بروجها، أما الفأل فمنسوب إلى هما».

ولئن أكثر شعراء العرب من مناجاة الحمام ومناغاته، بعد أن هاج هديله أحزانهم وأشواقهم، فشعراء الفرس لا يذكرونه إلا فى الندرة، ولا يعلق بحفظنا من شعر تضمن ذكره إلا هذه الرباعية من رباعيات عمر الخيام وهى: «ذلك القصر المنيف الذى يسمو إلى

الجوزاء ارتفاعًا ويسجد الملوك على أعتابه تذللاً وانكسارًا، لقد أبصرنا على طنفه فاختة، وحكاية صوتها، أين أهل الديار. . . أين أهل الديار!».

وقول من قال: «الحمائم مع الحمائم والصقور مع الصقور، وعلى أشكالها تقع الطيور».

أما البلابل فقد طرب شعراء الفرس لها ورددوا ذكرها وسموها أحسن أسمائها، فالبلبل صاحب ألف قصة وألف صوت، وطائر السحر ومرتل كتابهم المقدس القديم، وهو العاشق الولهان ذو القلب العميد، الذى يعشق الوردة فيحوم حولها ليبثها شكوى الهوى، وينفس عن فؤاده تباريح الجوى، والبلبل هو ذلك المحب الوامق الذى لا يتحول عن عهد، لأنه لا يشاهد إلا على غصنه المياد إلى جانب وردته الساهمة الحالمة، التى قد تتوجع لنواحه ونحيبه، فتشق قميصًا أخضر من أكمامها الرقاق. وقد صور الشاعر ذلك بقوله: «إنه بلبل الروض، يطيل من وقفته عند وردته للشدو والتطريب، فيا له عاشقًا غناؤه النجوى، بينه وبين من يهوى».

وإذا تلازمت الورود والبلابل فى البستان فإنها متجاورة فى الشعر الفارسى، وقد جرت عادة للشعراء بمراعاة ذلك، فقلما ذكرت وردة من غير بلبلها، ولا بلبل من غير وردته، ونسوق مثالاً على ذلك تلك الغزلية الجميلة لحافظ الشيرازى وهى: «وانطلقت إلى الروض سحرًا، ورغبتى أن أقطف منه زهرًا، وهناك سمعت ترنمًا للعندليب، وارحمتا له! إنه عاشق مثلى، ولقد منى بعشق وردة فارتجت المروج من نواحه بالحنين والرنين، ونقلت فى الروض خطاى، وأطلت التأمل فى ذلك البلبل وتلك الوردة، إنها ذات الجمال، وهو المشتاق إلى الوصال، فلا تفضل منها لتسكين بلباله، ولا تبدل فى الهوى لحاله. . شد ما أحزننى أنين البلبل فعزنى تجلدى وصبرى. ما أكثر الورود المتفتحة فى هذا الروض البهيج، غير أن أحدًا لا يقطف واحدة، إلا أصيب من شوكها بوخزة. لا تأمل الخير يا حافظ من هذا الزمان، فليس فيه إلا الضر والشر والحرمان».

والحجل من الطيور التى أورد الشعراء أسماءها فى أشعارهم، وما ذاك إلا لفرط إعجابهم بمشيته، فضربوا المثل بها، وشبهوا تبختر الحسناء بتأطر الحجلة فى سيرها. يقول حافظ: «أرأيت هذه الحجلان مقهقهة متبخترة يا حافظ؟ لقد ذهلت عن شاهين القضاء، ولسوف ينقض عليها ويفتك بها!».

ولفريد الدين العطار المتوفى فى سنة ٦٢٧ هجرية منظومة بعنوان «منطق الطير»، وهى طويلة تتألف من أربعة آلاف وستمائة بيت، والمنظومة برمتها فى التصوف، وقوامها قصة

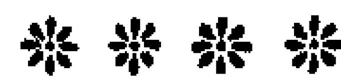
فحواها أن الطيور اجتمعت ذات يوم، فقال قائلها ما من مدينة إلا ولها حاكمها، فلا بد لنا من حاكم ندين بطاعته وننضوى تحت لوائه، وقام الهدهد فقال إن العنقاء حاكمنا، وعرض على الطير أن يهديها إلى مقرها ثم اشترط الصبر على وعثاء السفر، غير أن كثيرًا من هذه الأطيار تريثت عن هذه السفرة، وأدركتها المخاوف من المشاق والأهوال، وبسط كل طائر عذره الذى يبرر به عدم رغبته فى أن يسافر مع السفر. فكان من البلبل أن قال إنه لا يطيق فراق الوردة، وقالت الببغاء إنها لا تستطيع خروجًا من قفصها الذى حبست فيه لحسنها، وأظهر الطاوس استحياء من هوان شأنه على الطيور، لأنه كان سببًا فى خروج آدم من الجنة، ثم قال البط إنه لا يصبر عن المياه كما لا يصبر الحجل عن الجبال، أما البومة فذكرت أنها لا تعيش إلا بين الخرائب والأطلال. ثم قال طائرُ الهُمَا أنه يؤثر الحضر على السفر ليهب الملك للسعداء، كما قال الصقر إنه لا يجسر على أن يبرح أكف الملوك فى صيدهم، ثم اشتكت الصعوة ضعفها وضآلة حجمها. وبذلك كان من يرغب فى الرحيل إلى العنقاء ثلاثين طائرًا وحسب.

ورحلت الطير وأمامها الهدهد دليلها الهادى، فلقيت من سفرها هذا نصبًا، وعبرت سبعة أودية هى وادى الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة والفناء، حتى انتهى بها المطاف إلى العنقاء، وهناك نظرت إليها فكأنها نظرت إلى مرآة ترى فيها صورتها. فكلمة (سيمرغ) فى الفارسية يمكن أن تكون بمعنى عنقاء أو ثلاثين طائرًا، فكأن الطيور رأت فى نفسها ما طلبته خارجًا عنها، وهذا معنى صوفى واضح، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه، وبذلك تظهر المعانى الصوفية العامرة التى ضمنها الشاعر منظومته. ومن قول العطار تصويرًا لما يعرف عند الصوفية بالفناء فى الذات الإلهية: «وأشكل الأمر على الطيور، فما عرفت أهى العنقاء أم ثلاثون طائرٌ؛ وأخذ العجب منها كل مأخذ، ففكرت ولكن من غير عقل، ولما حارت فى أمرها ولم تهتد إلى حقيقة حالها سألت الحضرة أمامها من غير أن تفتح بالكلام فمها وأرادت كشف السر المكتمن، والتمييز بين نحن وأنت. فألقى فى نفوسها أن هذه الحضرة كالمرآة، من نظر إليها رأى نفسه فيها روحًا وجسدًا. فلما جئتم وأنتم ثلاثون طائرًا رأيتم أنفسكم ثلاثين. ولو كنتم أربعين لوجدتم أنكم أربعون».

ومن شعراء الصوفية فى إيران من يدعى جلال الدين الرومى، وهو شيخهم وسيدهم غير مدافع: وقد توفى عام ٦٧٢ هجرية بعد أن نظم كتابه المثنوى الذى يعتبر عمدة لكل صوفى ودارس للمذهب الصوفى، وفى الكتاب قصص منظومة يعنينا منها فى هذا المقام قصة البقال والببغاء التى دفقت الزيت فى الدكان ومنها: «كان لبقال ببغاء فتيقة اللسان عذبة

الألحان. وكانت تحرس الدكان وتبادل المتجرين غرر الكلام. واتفق يومًا أن وثبت هرة تبغى اللحاق بفأر فرعب ذلك الببغاء رعبًا، وطلبت فى أحد الأركان مهربًا، فاندفقت زجاجات الزيت. وجاء صاحبها من داره، وجلس جلسة السادة على دكانه، ثم رأى الزيت المدفوق فضرب رأسها حتى تساقطت ريشاته، وانقطعت الببغاء عن كلامها أيامًا، فعض الرجل بنانه ندمًا، وجعل ينتف عثنونه حزنًا وهو يقول: لقد غابت شمس نعمتى، فيا ليتنى قبل ضربها كنت قد كسرت يدى، وبعد ثلاثة أيام بلياليها، جلس الرجل على دكانه مكروبًا كاسف البال. ومر به درويش حاسر، وقد بدا رأسه الأقرع كأنه ظهر الإناء، فانطلق منظره الببغاء فورًا، ونادت الدرويش باسمه وهى تقول له: ما الذى أذهب شعرك؟ لعلك دفقت الزيت! وضحك الناس كثيرًا من قياسها. فقد حسبت الدرويش نظيرًا له، فلا تتصدوا للقياس على صنيع أهل الفضل، فإن لفظين قد يتفقان فى رسمهما ويختلفان فى معناهما. لقد أضل ذلك خلق الله أجمعين، فما أقل هؤلاء الذين يعرفون لأهل الحق حقهم».

فهذه القصة على بساطتها وسذاجتها واضحة المعنى عميقة المغزى تتجلى فيها براعة شعراء الفرس فى سرد القصص، وإنطاق الأطيار بالحكم الغوالى.



مذهبان هدامان فى تركيا وإيران

المذهب الهدام قلب للأوضاع وعكس للآيات وفساد فى الأرض وضلالة لا ضلالة بعدها، فلا يأخذ به إلا ثائر طياش ذهب عقله وعزب صوابه، وخبط خبط العشواء فى الليلة الظلماء، أو صاحب هوى ضل وغوى وافترى الأكاذيب والأضاليل، متخذًا من الباطل وسيلة إلى غاية ينشدها. ولن يكون أمره إلا وبيل العاقبة مخوف العقبى، لأن الشجرة المرة لا تثمر إلا مرًا ولو سقيتها شهدًا، كما قال شاعر فارسى، وإنك لا تجنى من الشوك العنب كما يقول المثل العربى. وفى تاريخ الفرس والترك لذلك مثالان نسوقهما تبصرة وعبرة وتذكرة.

ففى القرن الخامس للميلاد ظهر مزدك الفارسى، وكان يطلب النجوم ويستدل بها على ما قدر للناس من سعد ونحس، ولما عرف منها أن نبيًا سوف يظهر أمره، أحب لنفسه أن يكون هذا النبى، فابتغى الوسيلة إلى النبوة، وهدته الحيلة إلى أن يهيىء خطة له مرسومة يسير على هديها، فأعلن فى الناس أنه قد جاءهم يبين لهم على فترة من الرسل، بعد أن رق إيمانهم وفسدت عقائدهم، وطرحوا تعاليم المجوسية التى تعلموها من نبيهم زردشت، ثم قال لهم إنه إنما جاء هاديًا لهم مصلحًا لدينهم ودنياهم، وتشبه بنبى من أنبياء بنى إسرائيل بعثه الله إلى قومه بعد أن نسوا تعاليم موسى وما ورد فى التوراة. فدعا مزدك إلى مذهب ثنوى وقال بالنور والظلمة وإله الخير وإله الشر. وقد جاء عنه فى تاريخ الطبرى: «قال مزدك وأصحابه إن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى، ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره. فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئًا مما يتسع به».

ودعا إلى مذهبه الملك قباذ والد أنو شروان فأجابه، وسأله عن معجزته، فقال مزدك إنه قدير على إنطاق النار بإذن ربه، لتشهد بصدق دعوته وصحة نبوته، ولما طلب الملك إليه أن يجىء بالبينة فاستمهله يومًا. ثم توجه إلى بيت نار المجوس وأمر عبيده بحفر سرب ينتهى إلى موقدها، على أن يكون فى سقف السرب، ثقب صغير لا تراه العيون، فإذا كمن فيه إنسان وتكلم ظهر صوته ولم يبد شخصه، ولما كان من الغد دعا الملك ليطلعه على

معجزته، فأقبل الملك فى بطانته وأهل مشورته، وأوقدت نار عظيمة، وهمهم مزدك وزمزم، فرد عليه رجل من أتباعه كان فى السرب، وانبعث صوته من الثقب بجانب النار وهو يقول إن صلاح الدنيا والآخرة فى اعتناق المزدكية. وتمت الحيلة على قباذ وأتباعه وترجح عندهم أن النار تنطق ومزدك نبى يصدق، فآمن به إيمانًا لا يتزعزع، وأكرمه كأعظم ما يكون الإكرام، وأجلسه على عرش من ذهب وجوهر ودخل الناس فى دينه أفواجًا من غير تفكر ولا تدبر، إلا رجال الدين فقد تحرزوا منه ورووا عليه الكذب، وهدتهم حكمتهم إلى ما فى مذهبه الهدام من شر وفساد.

وكان أنو شروان كاشحًا له بالعداوة بعد أن اطلع على خزيه وافترائه، فأشخص الرسل خفية إلى رجال الدين، وناط بهم أن يقولوا لهم: «ما الذى ألزمكم الصمت، وما هذا الفشل الذى تبدونه إزاء مزدك؟ أليس فيكم ناصح لأبى، يسأله ماذا دهاه حتى انطلى الزور عليه، واختدعه كلام هذا الماكر، لقد بدد الكلب الأموال، وهتك أعراض المحصنات، وجعل أمر البلاد إلى الغوغاء والدهماء؟ سلوه على أى أساس أرسى مذهبه، وإلى أى نظام نسب مسلكه واعلموا أنكم إذا أطلتم صمتكم، فستذهب أموالكم وستختطف منكم نساؤكم. ولن يدوم الملك فى أسرتنا. فمن الحتم أن تنطلقوا إلى أبى، وتبذلوا النصح له ليرشد أمره، ولزام عليكم أن تقارعوا مزدك حجة بحجة وتأتوه بسلطان مبين».

وأنهى أنو شروان مثل هذا الكلام إلى رجال الدولة، حتى أتاهم بالمقنع وألبهم جميعًا عليه. وعلم مزدك برأى أنو شروان فيه. وأسر ذلك إلى أبيه قباذ، فاستدعى الملك ولده وقال له فى ذلك، فصارحه أنو شروان بقوله: «إن دين المجوس لا يأمر بالمساواة فى المال والنساء وإلا انعدم الفرق بين الناس وبين تلك السوائم التى تشترك فى إناثها ومراعيها». وكبر على الملك أن يسمع ذلك من ولده، وتعجب أن يخالفه فى الرأى، فرد عليه أنو شروان ردًا منيفًا بقوله: «لقد علمتنى ذلك، لأنك خالفت أباك وتحولت عن مذهبه، فغير من مسلكك أغير من مسلكى!».

ثم ارتضى قباذ من أنو شروان أن يهىء من البراهين والحجج ما يسفه به رأى مزدك، ويظهر فساد مذهبه، وأمهله أربعين يومًا يقتله بعدها إن أخفق فى مسعاه. وقبل أنو شروان ذلك. وأرسل إلى موبذ فى الجنوب يستقدمه على جناح السرعة، ولما قدم عليه قبل انقضاء مهلته بيوم أو بعض يوم، أوقفه على جلية الأمر، وذكّره بأنه هالك إن أفحمه مزدك، فطلب إليه أن ينافح عنه ويتحدث بلسانه وأوصاه خيرًا.

وانعقد مجلس حضره الملك وولده والموبذ ومزدك. فقال الموبذ إن مزدك هذا على علم بالنجوم، وقد تردى فى الخطأ أبين الخطأ، واستدل بالنجوم على ظهور نبى فى هذا الزمان له كتاب عظيم ومعجزات وأعاجيب، يشطر القمر شطرين، ثم يقضى على دين المجوس قضاءً مبرمًا، ويوعد بالجحيم كما يعد بجنات النعيم، ووقع فى وهم مزدك أنه هذا النبى، مع أن مزدك فارسى ولن يكون هذا النبى من الفرس، ومزدك يدعو إلى المجوسية وعبادة النار، على حين ينهى هذا النبى عن ذلك وينفر الناس منه، ولا يستبيح نساء الغير وأموالهم، فلا جزاء عنده إلا قطع اليد لكل من سلب ما ليس له.

ثم واجه مزدك فقال إنه يرى أن تكون الأموال ملكًا للخلق مشاعًا، وهذا يتعارض مع الإحسان ووقف الأموال على وجوه البر والصدقة، لأن الحاجة لا تمس بعد ذلك إلى عمل الخير ومواساة الفقير والرأفة بالضعيف. ثم تابع الموبذ كلامه فقال: إذا أصبحت المرأة لأكثر من رجل فإلى من ينسب ولدها؟ وإذا وضعت زوجة الملك حملها فهل يكون الجالس على عرش البلاد من نسل الملوك أم نسل السوقة؟ فأسقط فى يد مزدك ولم تنفرج شفتاه عن كلمة. وأمره الملك بالكلام فقال: اضربوا عنق هذا الموبذ، وكره الملك أن يقتل الموبذ فى غير ذنب كان منه، فأسرها مزدك واضطغنها على الملك فنوى الفتك به، وعمد إلى الدهاء والحيلة جريًا على عادته، وقرر أن يكون الاحتكام إلى النار، وأوعز إلى من تنطق النار بلسانه أن يطلب قتل قباذ، كما طلب إلى رجلين من شيعته أن يغمدا السيف فى قلبه حالما يسمعان الأمر بقتله. وجاء اليوم الموعود، والتقى المحتكمون فى بيت النار وأمرت النار بقتل قباذ لتأكل فلذة من قلبه، وهم الرجلان بالقتل إلا أن حراس الملك حجزوا بينهم وبينه.

ولما تولى أنو شروان الملك بعد أبيه، عول على أن ينكل بمزدك وقومه، فدعا المزدكية إلى حفل دينى، وهناك أمر جنده فحملوا عليهم وذبحوهم عن آخرهم ودفنوهم فى بستان منكسين بحيث تظهر من الأرض أرجلهم. ولما قضى الأمر استزار مزدك وطلب إليه أن يسايره قليلاً فى البستان فأشار إلى الأرجل الظاهرة من الأرض وقال له: «هذه ثمرات مذهبك يا مزدك!» ثم حانت منه التفاتة إلى جنده فدفنوا مزدك حيًا، ويقال إن التخلص من هذه الفئة المفسدة كان سنة ٥٢٣ ميلادية.

غير أن المزدكية لم تندثر اندثارًا تامًا بعد مزدك، فقد كان أهل كرمان على هذا المذهب فى العصر الأموى، كما تطورت المزدكية إلى مذاهب فارسية أخرى فى العصر الإسلامى، فقد ظهر من يدعى حاجى بدر الدين سنة ١٤١٦م، وهو رجل تركى يصل نسبه بملوك السلاجقة، ومجمل القول فى سيرته أنه حصل العلوم وقضى شطرًا من عمره فى رحلة

وتطواف، ولما وافى مصر اشتغل بتأديب السلطان فرح بن برقوق، ثم رحل إلى تبريز، وازدلف إلى تيمور لنك وشهد مجالسه فناظر العلماء وأوتى الحكمة وفصل الخطاب؛ غير أن الله أضله على علم فمال إلى الإلحاد والإفساد، وخرج على الناس بمذهب يروق جهالهم، لينضموا إليه وينضووا تحت لوائه، ولا غاية له من ذلك إلا التوصل إلى الملك والسيادة، فقرر أن يسوى بين الخلق فى كل ما يملكون إلا النساء. وظاهره ملحدان من مريديه وهما بورو كلوجه مصطفى، ويهودى يدعى طورلق، فخلعوا طاعة السلطان محمد الأول ولعنوه، وألقوا فى روع السذج البسطاء من أتباعهم أنهم مصلحون وهم المفسدون، وما كان أيسر أن يخدعوا قومًا لا يعلمون. وتهافت خلق كثير من أهل الأناضول على مذهبهم تهافت الفراش على النار، فساقوهم لمحاربة السلطان كأنهم حمر مستنفرة لا تدرى أين يساق بها من فجاج الأرض، وأرسل السلطان جيشًا عليهم يقوده صاروخان بك، وتصافت الفئتان وانتشب القتال فدارت الدائرة على جيش السلطان، فأنفذ إليهم على بك حاكم مدينة آيدين على رأس جيش عظيم، غير أن النصر خذلهم كذلك فى هذه الكرة. وترامى إلى محمد الأول نبأ الهزيمة فامتلأ غضبًا. وأقسم بلحيته ليذهبن ريحهم، يفرقنهم أيدى سبأ، فجمع الجند من أطراف مملكته وحشدهم تحت لواء ولده الأمير مراد وبا يزيد باشا الوزير، ودلف جيش السلطان إلى من فسقوا عن الدين، فنكبتهم نكبة وقصمتهم قاصمة. وشنق بدر الدين واليهودى، أما مصطفى فذاق عذابًا غليظًا، ونصر الله الإسلام والمسلمين على هؤلاء الضالين الذين جاءوا بما لا يقره عقل ولا دين.



مصير كسرى

فى العام السادس للهجرة، أوفد النبى ﷺ رسولاً على كسرى برويز يحمل كتابًا فيه الدعوة إلى الإسلام. وكبر ذلك على ملك الفرس وثارت له حفيظته، فخرج عن طوره ومزق الكتاب تمزيقًا، غير أن الله مزق ملكه، وسلط عليه ولده شيرويه الذى قتله.

وهذه تمثيلية شعرية نظمها الشاعر الإيرانى المعاصر أويسى سنة ١٣٢٤ هجرية ليصور فيها منقلب الطاغية بعد أن آثر الكفر على الإيمان، وباء بغضب الله وسخط من رسول الله. ونحن هنا نجتزئ من هذه التمثيلية بفصلها الأول.

الفصل الأول

(حجرة تزدان بزينات الملوك، فيها من المناضد أعظمها، ومن المقاعد ما يتحلى بالذهب الإبريز. وقد جلس كسرى على مقعد كبير يشبه أن يكون عرشًا تحمله السباع، وفى وجهه غبرة من هم وغم. شيرين بالقرب من باب الحجرة التى دخلتها منذ قليل، وهى بادية اللوعة والحيرة تديم نظرها إلى الملك المحزون، ثم يجرى الشعر على لسانها، تعبيرًا عن ذات نفسها).

المشهد الأول

(كسرى، شيرين، فيروز)

شيرين (لنفسها) - كسرى، يا ملك الملوك، يا صاحب الحول والسلطان، ويلاه ما بالك وما هذه الأحزان! (تدنو منه) ما الذى أكسف بالك وغير حالك، لقد أنسيت فى الغم ملكك ودنياك، فلو عرفتنى خطبك وأوقفتنى على جلية أمرك.

كسرى - ماذا عسيت أن أقول، الصمت أفضل لى وأجمل بى، فإن الحديث عن قلب جريح يزيده جراحًا على ما فيه، كأنى أصبت اليوم بخبول، لست أدرى ماذا دهانى وصنع بى ما يعجز عنه بيانى. فقلبى تغشاه من الأسى ظلمات بعضها فوق بعض، وإن كان لكل شىء حد، فما لهذا الأسى من حد. تعالى يا شيرين، جالسينى، إسعدينى وعن السر استكشفينى.

رأيت البارحة فيما يرى النائم فتى وسيمًا يشرق بهاء ولألاء، على فرس عربى حسن السير والرقصان، وقد تهدلت ذؤابته العقصاء كأنها الوهق، فهيبه إلى أن قال لى: يا هذا الفتى عد عن الكفر واسلم تسلم. قلت: ما إلى هذا سبيل، دينى لن أرتد عنه وقومى لن أكون بدعًا فيهم. وما سمع الفارس ذلك منى حتى مضى عنى بعد أن خفقنى بسوطه خفقة أوجعتنى وأرمضتنى، فساءت حالى من رعب ومن وصب، وما هنأنى عيش بعدها،

وطويت بساط بهجتى وغاضت بشاشتى، غير أن أملاً بقى لى بعد كل ما حاق بى، فانطلقت إلى خزائنى وكنوزى، لأشهد ما قد يشرح الصدر من ضيق ويسر القلب من شجن، أليس فيها الدرر والعطور والجوهر والحرير؟ ولأتبصرها وأفتش عن حالها، وإذا تعرفت ما تحوى الخزانة، جدت منها على أهل الحاجة والفاقة فتسعد بذلك روحى وتقر عينى.

ودخلت بيت الزخرف، فما رأيت من ذهب ولا من جوهر وكأنى لم أضع نفائسى حيث وضعتها، لقد كان لى أربعون بيتًا بالنفائس مفعمة، فلم يتبق لى منها جميعًا غير أربعة! ودخلتها الواحد بعد الآخر فشاهدت ما وجد وسألت عما فقد، وطلبت إلى الخَزَنة أن يدفعوا إلى مفتاح تلك الكنوز التى كانت الأرض تميد وترزح تحت أثقالها، ثم تسلمت مفتاحًا من ذهب له بهاء القمراء ورونق شمع أضاء، وأمسكت بالمفتاح، لأستفتح الباب من كنز غاب تحت التراب، ونبشت الأرض وكشفتها فبدا صندوق من المرمر تحتها، وعليه قفله الذى ضل عن مفتاحه، وأمرت بالفتح، ونفض التراب عن الصم الصلاب، فإذا طاق، وإذا طلسم من لجين ولوح من نضار، وحروف نقشت، ومن ذهب وفضة سبكت، فقلت لأستودع هذا اللوح بهبود.

(ينادى فيروز الخادم) ـ تعال يا فيروز، عجل بتقديم اللوح الذى أودعته وديعة عند بهبود.

فيروز ـ سمعًا وطاعة أنا آتيك به.

كسرى ـ (يخاطب شيرين) إنه لطلسم عجيب يحوى من الأسرار كل دقيق غريب، ولا يخدعنك مظهره عن مخبره، وإن فيه لأمرًا ينبغى استطلاعه.

(يقول لفيروز): ناد بزرك اميد، ليحضر إلينا، وليكشف هذا السر لنا (يقول لشيرين) ما لها إلا بزرك اميد النحرير، ولا ينبئك مثل خبير.

المشهد الثانى

(كسرى، شيرين، فيروز، بزرك اميد)

فيروز ـ بزرك اميد بالباب.

كسرى ـ ليدخل علينا.

(يقول لبزرك اميد). تقدم يا بزرك اميد، أمعن نظرك فى هذا اللوح العجب، أى شىء فى هذا الذهب!

(يمسك بزرك اميد باللوح ويقرأ).

بزرك اميد ـ هذا اللوح قديم قديم، وكتابته تتضمن رمزًا يؤخذ منه أن الملك أردشير وهو من هو سعة علم بالأفلاك ووقوفًا على أحكام النجوم، رأى فى علمه أنه إذا اقترن نجم بنجم، ظهر عظيم فى بلاد العرب، له الفضائل كلها، وتجرى عليه صفات الحسن جميعها، فهو الأمين الوفى، وهو مشرق الجبين وصاحب اللسان العذب المبين، وله من المعجزات وعجائبها ما سوف يهز الكواكب فى مسالكها. إنه خاتم الأنبياء والمرسلين، يسود الأمم كافة بدين الحق الحنيف، من اتبعه فاز بما هو خير من الملك وأبقى، والعاقل العاقل من دخل فى دينه فإن الغنم لمن صافاه، والغُرْمَ على من عاداه.

(ويسمع كسرى هذا من كلام بزرك اميد فيربد وجهه وتثور نفسه)

كسرى ـ هذه أوصاف رأيتها فى منامى، فهات يا بزرك اميد ما عندك فى هذا الباب وألقه على مسامعنا.

بزرك اميد ـ إذا سألتنى أيها الملك المنصور، عما فى هذا اللوح المسطور، فمحمد هو النبى العظيم الكريم، الذى يؤيده الرحمن بروح من عنده، وقد اصطفاه من دون الخلق أجمعين، وإن لسانه المبين لمفتاح هذا العالم المغلق المبهم. لا ذكر فى هذا اللوح إلا لهذا الرسول الطاهر المرتضى، إنه جبوة الله وصفوته، وقد طاب به ما فى مكة من تراب فكانت له ريح المسك الفتيق!

(ويزداد كسرى غمًا على غم، فيجف قلبه وتختلج جوارحه).

كسرى ـ كفى ما قلت يا بزرك اميد كفى، لا تزدنى شرحًا ولا تفصيلاً. (يقول فى نفسه) أرى الدنيا أظلمت فى عينى، ورأسى ينتابه من الكمد دوار وخمار. إلهى، ما بالى! لقد دب السقم فى روحى والخور فى نفسى.

(وتريد شيرين لتسعده وتنفس عنه ما يكربه).

شيرين ـ يا ملك الملوك، يا كبير الفطنة وصاحب العز والجبروت، يا من لك من تاجك وعرشك مثلما كان لكيقباد العظيم سلفك، إن نبيًا قصوا عنه أحسن القصص، منذ الزمان العريق فى القدم، واستخبر النجوم عنه أناس قبلنا فأخبرتهم، لن يكون ضالاً ولا غويًا وحقيق أن يكون له شرعة ورفيع منزلة، إنه يقارع بالحجة الإلهية، ويدعم مذهبه بالدلائل العقلية، فليبق اسمه مقترنًا بالخير والحسنى، ولتسد ذريته فى قومه من بعده. فلو رق قلبك لدينه يا ملك الزمان، لنلت الخير والأمان، ورفعت من طريقك كل شوكة وكل عقبة كأداء.

كسرى ـ الحق ما تقولين، والصدق به تنطقين، ولكن إلهى هو من أوجد قومى وخلق أجدادى، فأنى يكون لى تحول عن مذهبهم وتبديل لشرعتهم، إنى لأحتشم الملوك الأولين،

وقلبى ينازعنى إلى هذا الدين القويم ويدعونى، غير أن أمرى ليس فى يدى، والجد لا يواتينى، فالسعد حليف لصاحب هذا الدين الحنيف.

شيرين ـ دع عنك دينك هذا القديم، واعتنق الدين الجديد، كن حازمًا، اطلب الخير العميم، وسر فى الطريق النهج القويم. يأمن قومك الذل والصغار، اجعل بالك إلى الواقع فلكل زمان لبسة، ذد عنك الشيطان ونزغاته، أيها الملك لكل يوم ما يقتضيه، ولا بد لك من رعاية مقتضى الحال، لا يكونن عقلك قاصرًا عن الإدراك، وانظر إلى الساعة التى أنت فيها، انظر إلى الأفلاك، إنها تتغير أبدًا، فالتغير سنة من سنن هذا الكون، من لا يستشرف الرقى والسمو، تسوء حاله ولا تسعد أيامه.

كسرى ـ اعلمى يقينًا يا شيرين بأنى ما دمت ملكًا، فأنا صاحب عرش وجيش، وإنى لأربأ بأرض بلادى الطاهرة أن تكون موطنًا لسنابك خيل المغيرين، فيمنى قومى بذلة ليس بعدها ذلة، لا، لن يدخل على إيران مذهب جديد وتشريع لا عهد لها به، فإن ما قد يصلح بلدًا قد يفسد بلدًا آخر، إنى لمقتنع بما قلت، عليم بكل ما قررت، ولكن يا أسفى، إن اللسان لا يفشى السر فى كل مكان.

المشهد الثالث

(كسرى، بزرك اميد، شيرين، فيروز، عربى)

فيروز (يدخل الحجرة على كسرى محييًا) بالباب رسول يطلب شرف المثول.

كسرى ـ ماذا يريد منا؟ ألم تسأله من أوفده علينا!

فيروز ـ يا ملك الزمان، لقد قال إنه لا يصرح بمقصده إلا للملك السعيد، وظاهره يدل على أنه رسول ندب، يتجافى عن أن يبوح بالسر.

كسرى ـ ليدخل ليظهرنا على ما أقدمه.

(تخرج شيرين ويدخل العربى)

العربى ـ إذا اتبعت الهدى، فسلام عليك أيها الملك.

كسرى ـ ما أخبث لسانك يا عربى وما أسوأ أدبك، ما حاجتك! أفصح، ليس المقام مقام سلاطة وقحة، أمن مكة قدمت أم من المدينة، قل من أين جئت؟

العربى ـ لقد أشخصنى رسول الحق فخر الكائنات، إليك يا وارث ملك جمشيد. وحملنى كتابًا أريد أن أعرضه عليك، إنه در يتيم أهديه إليك، فخذه أيها الملك، وانفض الكفر والضلال عن قلبك.

كسرى ـ بزرك امبد أيها الوزير الخبير، تسلم هذا الكتاب واقرأه علينا.

بزرك اميد ـ يا له كتابًا مطيبًا، فإنه معجون بالعنبر الأذفر، وقد كتب ما فيه بالخط الكوفى: «من محمد بمكة إلى برويز ملك الفرس، باسم ذلك الذى لا يتحيز فى مكان ولا يقفر منه مكان، خالق هذا الوجود، ومن يفيض وجوده بالجود إنه الإله كيفما دعى، والملك القدوس بكل معنى، وليس لسائل أن يسأل عن كيفيته ولا كميته فما العبد إلا فى أسر سيده. أنت إنسان ضعيف يا من تدعى كسرى، ولو انضوى العالم بأسره تحت لوائك، وكان لك من العظمة ما كان لأسلافك، فأنت حى وكل حى إلى ممات، وليس الإنسان بدفع الموت يدان. لا تغرنك نفسك، فمن اغتر بها ولم ينظر إلا إليها عميت بصيرته، اجعل الفضيلة نصب عينيك، واعلم أن الرذيلة صرف النظر عنها إلى نفس تكثر من إعجابك بها، لقد جعل الله الأرض بساطًا. والربع المسكون بعضًا منها، فكان العراق جزءًا من هذا الكل وفيه مدينة المدائن، وفى المدائن الجم الغفير من الأنام، وأنت بينهم طيف فى المنام، فعليك بالقياس والنظر، لتعلم قدرك بين خلق الله. هى الدنيا مستقر للبرية، فمحال أن تطلب لنفسك الألوهية، اشهد بأن لهذا الكون ربًا، لا مكان له، ولا حاجة للمكان به، وأن ربًا يعز من يشاء قد جعلنى للعالمين نبيًا، النار لا تعبد، فليس فيها إلا المحترق بها، واسلم وآمن».

(وما وصل بزرك اميد من قراءة الكتاب إلى هذا الحد حتى تململ كسرى تململاً شديدًا، وخرج عن صبره فجلب الكتاب من يده ومزقه).

كسرى ـ تأمل جرأة العرب إلى أى حد بلغت، هل خوطب ملك قبلى بمثل ما خوطبت به؟ من ذا الذى يجسر على أن يجعل اسمه فوق اسمى، سأخسف الأرض بهم وأهدم الدنيا على رءوسهم فالويل لهم.

(غير أن الغضب يسكت عن كسرى شيئًا فشيئًا، ويعقبه خوف وضعف، فيرفع كف الضراعة).

كسرى ـ يا إلهى العظيم، ربى، يا بارىء النسيم.

(ويقف بزرك اميد، ويخرج العربى، وبزرك اميد فى أثره)

المشهد الرابع

كسرى (وهو خائف وجل) أرى وجه الزمان يتجهمنى، والدنيا تتغيم فى عينى، رحماك يا إلهى، رفقًا بإيران، وآل ساسان، يا من رعيت أسلافى من قبل وأعنتهم على كل عظيم وجليل من الأعمال، أولنى اليوم شيئًا من عنايتك وافتح علىّ بابًا من رحمتك (ثم تثوب إليه نفسه فيقول) كلا كلا، لا أرى بعد اليوم لإيران صولة ولا دولة، لقد تقوض الملك

فيها، وعم الخراب كل أرجائها ونواحيها، ولا أثر لتلك الأمجاد التى عرفها أبناء ساسان فى سالف الزمان. لقد قال نبى الفرس بأن لا دوام فى إيران لعز ولا لرخاء، وستمضى العظمة وتخضد الشوكة، وسيمر علينا ألف من الأعوام ونحن نعدم كل حق وصدق. إن هذا الملك لا يؤمن عليه من هذه الشرور، فلن أضع نفسى على رأس المنحوسين المتعوسين، وإذا ما كانت العاقبة عارًا وشنارًا فكيف أتيح لمن جاء بعدى أن يلومنى ويثلبنى؟! لأقطع القلب عن هذه الدنيا، فأقبع فى ركن العزلة، وأتزود من دنياى لآخرتى آه، ما أطيب أن أستنقذ روحى من هذا المعترك الصاخب وأنزوى فى معبد بعيد؟ بزرك اميد، بزرك اميد...

(ينادى بزرك اميد فيدخل عليه)

المشهد الخامس

(كسرى وبزرك اميد)

كسرى - أقدم وشاورنى فى أمرى، وانثر على من كلامك الدرر الغوالى، فى نيتى الاعتزال، فقد رق عظمى وعلت سنى، فليخلفنى شيرويه ولدى، ولك أن تنظر فى خبر الوطن وما يصلح به، أنت عليم بأنى مقطوع الأمل من ولدى هذا لشكاسته وشراسته، يا له من عاق جرعنى من جفوته غصص الأسى، فعن أى شىء تريدنى أن أحدثك، أعن ولائه أم عن جفائه، وعن علمه أم دينه، آه شد ما أنا متخوف على منكود الطالع هذا، فلسوف تسوء عاقبته كما ساءت أعماله، إنما مثلى ومثله كالذئب الذى لا يأمن على نفسه الشر حتى من أمه! إن الخير لا يكون من يديه، فأنا لا أرجو الرشد فيه، وهل تترك النار بعدها إلا الرماد! إنه لا يأبه لغيره، ولا يعنى إلا بنفسه، أنا من زينت رأسى بتيجان نزعتها من رءوس الملوك الصيد، ولكن ما جدوى ذلك إن كان لى خلف سوء. ما كل زوجة بعروب، وما كل مولود بولد رشيد، لا ثمرة من كل زهرة، وحلاوة السكر لا تسرى فى كل عود. كأى من غريب عنك أشد وفاء من قرابتك، وكم من ولد قتل الوالد. وما دام ابن الملك لا كفاية له ولا خير فيه، فما كان أحرى بالعدم أن يطويه.

بزرك اميد - أيها الملك المستنير وصاحب الرأى والحزم والتدبير، يا من يميز الخير من الشر، والهدى من الغى، إن ابنك يرنق صفوك وينغص عيشك، ولكن لا يجمل بوالد أن يعادى ولده ويقطع ما حقه أن يتصل من سببه، إن شجرة التوت لا تلعن ولا يستخف الناس بشأنها إلا لأنها تلقى بثمرها، وليس كذلك شجرة الرمان التى لها من ثمارها تيجان. ما دمت فاضلاً عاقلاً، فإن ولدك مثلك لأن العصا من العصية، ولئن كان لشيرويه

جموح الجواد، فلسوف يجعله الزمان سلس القياد، إنها أيها الملك سكرة الشباب، تعقبها الشيخوخة بحكمتها ورويتها.

(يهم كسرى بالقيام ويظهر شديد الأسف)

كسرى - صدقت يا بزرك اميد لا فض فوك! إذا أشفى على الخراب ملكى فما العيب عيبى، وما دام عزمى قد صح على أن أعتزل، فلا منتدح عن أن يقوم شيرويه ولدى، بالأمر من بعدى.

* * * *

وزيـــران يهـوديـــان

وزيران نستمد قصتهما من واقع التاريخ، ونرويها غير متزيدين فيها، ولا هم لنا من ذلك إلا أن نكشف عن نفسيتهما، ونتفهم ما يجول فى طويتهما ونرى كيف اتسعت لهما الحيلة وواتتهما الفرصة، فتوصلا إلى منصب الوزارة وهو ما هو رفعة وسموًا، فى الزمن القديم على الخصوص.

ففى مصر، وعلى عهد الدولة الإخشيدية، ظهر من يدعى يعقوب بن كلس، وهو يهودى من أهل بغداد، رحل فى صحبة أبيه إلى مدينة الرملة بفلسطين، وكان شابًا فتيًا له من حداثة سنه ما يفعم نفسه بالآمال والأحلام، فباشر من الأعمال ما يدر عليه رزقًا حسنًا، وتوسط بين من يبيع ومن يشترى، وعلا شأنه فى مهنته بعض العلو، فأصبح وكيل التجار، غير أنه لم يكن ليقنع بما لديه أو ما سوف يصل إليه، لأن مطامعه كانت تلح عليه قائلة هل من مزيد، فيرى الشىء صغيرًا، وإن كان كبيرًا. وما وسعه إلا العزم على الرحيل إلى مصر بلد الخصب والخير العميم، رجاء أن يصيب ما يصبو إليه من بسطة فى الرزق وسمو فى المنزلة.

وألقى الفتى عصاه واستقر به المقام فى مصر، ووجد السبيل إلى أن يتصل بكافور. فعرض عليه درايته بشؤون المال. وأخبره بأهبته لأداء كل ما يطلب إليه أداؤه لإكثاره واستثماره وآنس كافور منه مخايل الألمعية وآيات الحزم والفطنة، فألحقه بخدمته ليفيد من خبرته بفنون الزراعة وما يتبعها من أصول التجارة، وأرسله إلى أرجاء البلاد، فعرف الأحوال ووقف على الأخبار ورسم الخطة لإصلاح ما تمس الحاجة إلى إصلاحه، وكان من فضله أن نجح الزرع وكثر المحصول، فتحصلت الثروة وامتلأت خزانة الدولة، وارتفعت بذلك مرتبته عند كافور. وقد اتفق أن مات رجل من أهل الرملة يقال له ابن بلدى، ولم يكن لهذا الميت من يرثه من بعده، فكان للدولة حق وراثته، وانتهى هذا الخبر إلى يعقوب من أحد اليهود، فما كان بأسرع من أن ذهب إلى كافور وقال له إن ابن بلدى مات وخلف كنزًا دفينًا يحوى عشرين ألف دينار. فأمره كافور بالسفر توًا إلى الرملة ومعه من البغال ما يكفى لحمل المال والعودة به إلى مصر. ومضى يعقوب لطيته، وهناك عثر على الكنز. ولما أحصى ما فيه وجد ثلاثين ألفًا لا عشرين ألفًا، فكتب بذلك إلى كافور الذى أعجب الإعجاب كله بأمانته، وزادت فيه ثقته إلى أبعد الآماد. ثم كافأه على ذلك بمال جزيل، إلا أن يعقوب رد منه قدرًا كبيرًا وتظاهر بالقناعة باليسير. وكان لزامًا على كافور بعد الذى رأى من كفايته وأمانته

وقناعتـه، أن يرفـع من رتبتـه، فعمل بمشورته ولم يقطع برأى دونه، كما أجله شرفاء الدولة وعظماؤها.

ورغب كافور فى أن يتخذه وزيراً، ولا غرو فالمال عماد الدولة، وشؤونه متصلة الأسباب بشؤون السياسة. ورُوى عنه أنه قال يوماً أى وزير يضاهى يعقوب بن كلس! غير أن يهوديته كانت الحائل المنيع بينه وبين الوزارة. وعرف يعقوب أنه لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً فاعتنق الإسلام وجعل لنفسه شيخاً يعلمه القرآن والفقه والعلوم الإسلامية، ثم دخل المسجد فى يوم جمعة وأعلن على الملأ أنه من المسلمين. وانطلق إلى كافور فى حشد من المهللين والمكبرين. فاستقبله بالتكرمة وخلع عليه وألطفه. فثار لذلك حقد ابن الفرات الوزير وساءه إسلام يعقوب بن كلس ووصوله إلى ذروة العلياء. كما حز فى نفسه أن يكون وزيراً من بعده فى يوم من الأيام. فكاد له وتربص به الدوائر، وقد مكنه الله منه لما مات كافور، لأنه بقى وحيداً من غير نصير يحميه. فأوقع ابن الفرات القبض عليه مع جماعة من رجال الدولة وكاد يبطش به، غير أنه افتدى نفسه وولى هارباً إلى بلاد المغرب.

واتصل هناك بيهود مع المعز لدين الله الفاطمى، ودخل خدمته سنة ٣٥٧ هجرية، وهو أحد أسباب حركة المعز، وإرسال جوهر القائد إلى الديار المصرية، وقد عرف منه أحوال مصر وضعف أداة الحكم فيها. وأحاط علماً بكل شىء من أمور زراعتها وإدارتها وماليتها. فافترص ذلك ورآه مغرياً بالإقدام.

ولما دخل المعز مصر سنة ٣٦٢ هجرية كان يعقوب بن كلس معه لا يفارقه، وجعل إليه الإشراف على الخراج خصوصاً ومالية الدولة عموماً، ووجد ابن كلس مس الحاجة إلى إصلاح مالى على أعظم جانب من الأهمية، فلما تم لجوهر فتح مصر، أعاد فتح دار الضرب وسك الدينار المعزى فاستلزم ذلك أن تهبط قيمة الدينار الراضى الذى كان متداولاً من قبل، فسخط الناس وطالت شكواهم، غير أن ابن كلس وجد فى تثبيت قيمة الدينار المعزى كسباً كبيراً للدولة وإن كان فيه غبن عظيم للرعية، وأراد من المعز إعجاباً به ورضى عنه، فلم يكترث للناس ومضرتهم وزخرت خزانة الدولة بمال كثير كان المعز فى مسيس الحاجة إليه بعد أن تكبد النفقات فى فتح مصر. وحظى ابن كلس عند مولاه فأطلق يده فى شؤون الدولة، وهيمن على مرافقها، وأرسى أسس الإدارة المالية وسن قوانينها.

ومات المعز وخلفه العزيز، فاتخذ يعقوب ابن كلس مستشاراً سياسياً وحربياً، وحدث فى عهده أن ثار عليه افتكين فى دمشق، فأنفذ إليه جيشاً تحت إمرة جوهر، غير أن جيش مصر لم يثبت أمام جيش الثائر، فتقهقرت فلوله، وأبرم الصلح بين القائدين. وأسخط

ذلك العزيز. وشاور يعقوب ابن كلس فى الأمر، فأشار عليه بإعادة الكرة وتجريد حملة على افتكين. وتولى العزيز قيادة جيشه بنفسه. ونصره الله على عدوه فعاد به أسيرًا. وكان أول ما عمله يوم عودته هو إسناد الوزارة إلى يعقوب بن كلس. ثم منحه لقب الوزير الأجل. فكان أول من وزر للدولة الفاطمية فى الديار المصرية.

غير أن هذا الصفاء لم يدم طويلاً بين العزيز ووزيره الأجل فقد غضب عليه وأمر باعتقاله وصادر ممتلكاته ونال منه عشرين ألف دينار أضافها إلى خزينة الدولة ثم زجه فى غيابة السجن. وكان كل هذا الشر والإذلال لسبب لم يكن فى الحسبان. فإن العزيز رضى عن عدوه وأسيره افتكين، فعفا عنه وبالغ فى إكرامه حتى جعله من أصحاب المنزلة فى حاشيته، ولم يرض ابن كلس عن هذا الصنيع من العزيز، فدس لافتكين من سمه، وعرف العزيز جلية الأمر فكان منه ما كان، ثم وقفت أمور دولة العزيز باعتزال الوزير. فخلع عليه وأعاده إلى وزارته ورد إليه ما اغتصبه منه، وأغدق عليه نعمه كالمعتذر. ومات يعقوب بن كلس بعد أن أقام فى خدمة العزيز اثنتى عشرة سنة وكان موته سنة ٣٨٠ هجرية.

قيل ومات على اليهودية، فإنه لم يعتنق الإسلام إلا نفاقًا للتوصل به إلى غاية ينشدها، والأدلة على ذلك غير قليلة، فكان متعصبًا لأبناء جنسه، واستخدم كثيرًا منهم فى الشام ليأتوه بأخبار البلد. ولما احتدم النقاش مرة بين أسقف ويهودى يقال له موسى، وانتهى الأمر بإهانة نالت اليهودى من صاحبه النصرانى خرج ابن كلس عن صبره ولم يستطع البقاء على تحفظه فنصر أخاه فى الدين والجنس وعزر النصرانى على ما فرط منه. وجهد يعقوب بن كلس كثيرًا لستر نفاقه فكان يتحاشى التحدث عن اليهود واليهودية إلا فيما ندر. كما ألف كتابًا فى الفقه الإسلامى أهداه إلى العزيز وهو المعروف بالرسالة الوزيرية.

وإذا عدنا إلى بغداد بلد يعقوب بن كلس الوزير، وجدنا يهوديًا آخر من أهلها يدعى سعد الدولة، وكان أول أمره يحترف الدلالة فى الأسواق إلا أنه اشتغل بالطب فتميز وبرز. ولم يخرج على مألوف اليهود فى كل زمان ومكان، وهو الإغرام بالمال والتفنن فى وسائل جمعه. وقد حسده أقرانه وأهل بلدته على نعمته ومهارته فى مهنته. وطلبوا التخلص منه بكل حيلة، فرغبوه فى أن يزايل بغداد إلى تبريز ليكون طبيبًا للسلطان أرغون المغولى. وقد أراد الله له خيرًا عظيمًا بهذه الرحلة لم يخطر له ولا لحساده على بال. فإن السلطان قربه وأنس به، فكان إذا مرض لم يطبه إلا سعد الدولة، وارتاحت نفسه إلى حديث منه طلى يديره بلباقة وحسن أداء. وكثيرًا ما كان الحديث يسوق المحدث إلى ذكر بغداد والعراق ووصف أعمال هذين الأخوين من الأمراء اللذين كانا يحكمان العراق من قبل السلطان،

فحكما حكم ظلم وجمعا الخراج قسرًا وقهرًا، فساءت الحال وخاب الزرع وتفشت الأدواء واضطرب حبل الأمن، والحاكمان عن كل ذلك فى شغل بمال يكنزانه، وفرس يقتنيانه، وجارية يبذلان النفيس فى شرائها. وشرط سعد الدولة على السطان أن يأتيه من الخراج بضعف ما كان يأتيه فى حكم الأميرين إن جعل إليه ولاية العراق.

وسرعان ما آمن السلطان بكلام الطبيب، فعزل الأخوين وجعل إليه أمر العراق، فأظهر كفاية وكياسة فى تمهيد الأمور وإصلاح ما أفسد سلفه. فحسنت الحال ورضى الناس، أما السلطان فاتخذ سعد الدولة وزيرًا سنة ١٢٨٩ ميلادية.

وتسلم سعد الدولة أزمة الحكم فأسند مناصب الدولة إلى إخوته وذوى قرباه من اليهود، وما رأى ذلك يهود العراق وإيران حتى ابتهجوا، واستشعروا العزة بعد الذلة، فما كان منهم بالأمس القريب إلا دباغ وحائك وكاتب، وأصبح اليوم منهم من لهم منزلة الأمراء والعظماء، واعتبروا سعد الدولة محررهم من ضيمهم وذلهم ورافعهم من وهدتهم، وجاءوا إليه من الآفاق. ووقفت جموعهم ببابه وقد انطلقت ألسنتهم جميعًا بقولهم إنه الرجل الذى بعثه الله ليخلصهم، ومناط الأمل فى المجد والسؤدد لبنى إسرائيل فى آخر الزمان، وكان سعد الدولة على هذه العقيدة، فتزعُمه حركة اليهود لاستعادة أمجادهم الغابرة جعله رئيسًا سياسيًا وروحيًا لهم. ويروى أنه كان يومًا بجوار ضريح الإمام موسى بن جعفر، وأراد أن يتفأل بالقرآن على عادة المسلمين فى إيران، وفتح المصحف فوقعت عينه على قوله تعالى فى سورة طه: ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ ففرح واستبشر، وتصدق بمائة دينار.

وقد قال أحد شعراء بغداد متهكمًا فيما آل إليه أمر اليهود على عهد سعد الدولة:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... مرتبة لا ينالها فلك
الملك فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يا معشر الناس إنى قد نصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلك
فانتظروا صيحة العذاب لهم ... فعن قليل تراهم هلكوا

وكان سعد الدولة شديد العداوة للإسلام والمسلمين، فأغرى السلطان أرغون بإبعاد المسلمين عن المناصب. والسلطان أرغون وهو المغولى الوثنى معروف فى التاريخ بكراهته للمسلمين فقد سبق له أن فاوض البابا وملوك أوربا فى تجهيز حملة صليبية من الأوربيين والمغول لطرد المسلمين من بيت المقدس وعاهدهم على اعتناق النصرانية إن وفقوا فى ذلك.

كما اقترح سعد الدولة على السلطان أن يهيىء أسطولاً فى بغداد ليهاجم به الكعبة ويجعلها هيكلاً وثنيًا. ونوى قتل عدد جم من علماء المسلمين بعد أن عرف سخطهم عليه.

ولما مرض أرغون مرضه الذى مات فيه جزع سعد الدولة جزعًا شديدًا لأنه كان موقنًا بأن نهايته مرتبطة بنهاية مولاه، لم يكن ذا أمل فى الحياة بعده أمام بطش أعدائه وهم كثر. وقد نسبوا مرض السلطان إلى سم دس له بإيعاز من سعد الدولة. فقتلوه سنة ١٢٩١ ميلادية، ولم يعلم السلطان بخبر مقتله، ومات بعده بأيام.

وأظهر المسلمون الشماتة بموت الوزير. وأرادوا شفاء غيظهم من اليهود فأعملوا السيف فيهم، وفى ذلك يقول الشاعر:

نحمد من دار باسمه الفلك ... هذى اليهود القرود قد هلكوا
وقارن النحس سعد دولتهم ... وافتضحوا فى البلاد وانهتكوا
وشتت الله شمل ملكهم ... وبالحسام الصقيل قد سبكوا
كم حكموا فى البلاد لا حكموا ... وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
أبكاهم الله عاجلاً أسفا ... من بعد ما فى زمانهم ضحكوا
سقاهم الحتف سادة خشن ... فامتلأت بالجماجم السكك
يا أخبث الطير يا بغاث لقد ... صادكم فى الخميلة الشبك
هجوتهم أبتغى بهجوهم ... جنان خلد يزينها البرك
رغمًا لمن قال فى قصيدته ... تهودوا قد تهود الفلك

* * * *

جعفر خان يعود من الغرب

تمثيلية هزلية للكاتب الإيرانى على نوروز المتوفى سنة ١٩٢٦م، كان عرضها للمرة الأولى بطهران سنة ١٩٢٢م فى حفلة أقامتها جماعة إيران الفتية، تلك الجماعة التى عقد أعضاؤها نفوسهم على أن يرتقوا ببلادهم إلى ما هو أرفع. ويقبسوها من حضارة الغرب علمًا وفنًا، والتمثيلية تصور الحياة الإيرانية أوضح تصوير غير أن المؤلف ينزع إلى المبالغة فى وصف تأخر الشرق وتقدم الغرب وإن حمل ذلك منه على توضيح الحقائق وشرح المبادئ، وأيًا ما كان. فالمبالغة لا تفهم إلا على أنها مبالغة، وهذا ما قد يستملح فى فن الأدب.

المشهد الأول

(المكان دار جعفر خان بطهران، والزمان عام ١٩٢٢م)

(نحن فى حجرة بدار قوم مستورى الحال، جدرانها العارية مطلية بالجص، والبسط الإيرانية مبسوطة على أرضها. على يمنة الداخل باب يفضى إلى حجرة لحفظ المتاع، وعلى اليسرة باب ينفتح على دهليز. وفى أحد الأركان منضدة صغيرة وكرسى، ويظهر على تلك المنضدة وعاء للحلوى وآخر مفعم بالحمص والزبيب إلى جانب سكين وشوكة، وفى ناحية أخرى منضدة صغيرة تحمل إناء للشاى وقميصًا وجريدة وتقويمًا. أما وسط الحجرة ففيه وسادة كبيرة. وتشاهد سيدة ذات سن حافية القدم فى ثياب إيرانية كان النساء يلبسنها قديمًا وهى سترة وسراويل وخمار للصلاة، وقد جلست إلى جانبها فتاة تدعى زينت بادية فى ثياب العصر الحديث المتميزة بالبساطة والقصر، والفتاة تتزين وتتطرى ناظرة فى مرآة بيدها، فتخط حاجبها وترسم لها شاربًا دقيقًا جريًا على عادة الإيرانيات المتجملات).

الأم (وهى تدخن نارجيلتها) ـ صلى أحد حاجبيك بالآخر لتكونى مقرونة الحاجبين، اليوم يوم عودة جعفر الأعز الأكرم، فلزام عليك أن تظهرى بطلعتك البهية حتى يقتنع بأن بناتنا لا يعوزهن شىء لبنات الغرب.

زينت (وهى تخط حاجبها) ـ خبرينى يا خاله. منذ كم رحل جعفر خان إلى بلاد الغرب.

الأم ـ منذ سبع أو ثمانى سنوات. لقد كان صغيرًا يوم ارتحل عنا. أما الآن فلا بد أن يكون قد بلغ مبلغ الرجال حفظه الله (متأوهة) ولكن أى جدوى فى ذلك، لا شك أنه

أصبح رقيق الدين فاسد العقيدة. ألا قاتل الله أباه الذى انتزعه من بين يدينا ليكون فى صحبته عند الغربيين.

زينت ـ اصدقينى بالله يا خاله: أصحيح ما يقال من أن أهل هذه البلاد يقتاتون بلحم القرد والدب وما أشبه؟!

الأم ـ هـذا حق لا ريب فيه، هؤلاء الملاعين يأكلون من كل شىء، ويحتسون من الخمـور صنوفًا جعلهـا الله فى حلوقهـم لعاب الأفاعى! قد قالت لى زوجة افتخار دفتر التى قدمت من الغرب مع زوجها بأن لأهل هذه البلاد شرابًا يتخذونه من جلود الرهبان بعد موتهم.

زينت ـ نسأل الله السلامة ونضرع إليه أن يحفظنا. لقد مر بسمعى أنهم يعصرون الكونياك من النعال البالية والجوارب المنتنة. أهلكهم الله وأذهب ريحهم.

الأم ـ نعم أليس كذلك؟ ليس هؤلاء القوم على ملتنا ليتخذوا لهم من الزبيب والعنب شرابًا كالناس جميعًا.

زينت (مظهرة وجهها) ـ أيروقك وجهى الآن يا خاله؟

الأم ـ جميل جميل كبدر التم، وإن كان يحسن أن تكتحلى أما إذا لم يتيم حسنك هذا ولدى فيا له من حمار! (ثم تنادى قائلة يا مشهدى أكبر).

المشهد الثانى

(الأم ـ زينت ـ مشهدى أكبر)

(يدخل مشهدى أكبر، على رأسه قلنسوة من لبد وفى وسطه منطق، أما جوربه فمن صوف مختلف الألوان)

مشهدى أكبر ـ لبيك يا سيدتى.

الأم ـ دونك هذه النارجيلة، قف بباب الدار، ولتخبرنا بمقدم جعفر خان حالما تشعر به.

مشهدى أكبر ـ الحمد لله حق حمده يا سيدتى، لقد تراخت بنا الأيام لترى عيننا جعفر خان. والله لهو عندى آثر من ولدى كما قد تعلمين يا سيدتى، منذا يظن أنى لم أكن له إلا مؤدبًا! لقد عدوت اليوم سبع مرات نحو باب الدار ظنًا منى بأن الطارق جعفر خان ثم عرفت بعد ذلك أنى كنت من الواهمين. فإن الطارق الأول لم يكن سوى القصاب، وتلته امرأة هى زوج على الغاسل، وثالثة الأثافى بائع من يهود.

وهممت بتقبيل اليهودى على أنه سيدى! ولا غرو فإن لنا عينًا غاض بصرها، فلم تعد تبصر كما كانت من قبل تبصر (يمسح عينيه).

زينت ـ ما يبكيك يا مشهدى أكبر؟ وهبك قبلت اليهودى هل فى ذلك من بأس؟ (تتقطع ضحكًا وتسعل).

الأم ـ دقى ظهرك بقبضة يدك ينقطع هذا السعال (تدق ظهر زينت).

مشهدى أكبر ـ خيرًا يا سيدتى، السعال بشير الهدية، مد الله فى عمر سيدنا، لا أحسبه إلا حاملاً إلى منظارًا أو عينين صناعيتين فى جملة ما يحمل من هدايا.

زينت ـ ويحك يا مشهدى أكبر ماذا تقول؟ أى عيون هذه العيون الصناعية! أيمكن أن تكون العين صناعية (تضحك).

مشهدى أكبر ـ والله يا سيدتى إنها شىء عظيم، لقد قرأت فى جريدة من الجرائد، أن الألمان توصلوا أخيرًا إلى اختراع عيون أحد بصرًا من عيوننا. لأحمل الآن نارجيلة سيدتى. . (يحمل النارجيلة).

الأم ـ هل هيأت الكبش يا مشهدى أكبر؟

مشهدى أكبر ـ نعم يا سيدتى، لقد دفعت الشفرة إلى القصاب لسنها، وسيحضر بها فى التو والساعة (يخرج).

الأم ـ وعمك يا زينت، ألا يزورنا فى يومنا هذا؟

زينت ـ بلى، سيحضر غير أنه توجه إلى المسجد لشراء شىء لمشهدى أكبر. أين وضعت مسحوق الوجه الأبيض؟

الأم ـ هناك فى حجرة الأمتعة.

زينت ـ إذن أذهب لإصلاح هيئتى ثم أعود (تخرج).

المشهد الثالث

(الأم بمفردها ثم مشهدى أكبر)

الأم (تنهض) ـ لا بد من تنظيم هذه الحجرة وتنسيقها حتى تقع من ولدى موقع القبول. لقد هيأت له مقعده، وخطت له قميصًا يلبسه فى نومه (تطوى القميص وتضعه على المنضدة) ونضدت له فراشًا فى الغرفة المجاورة. هو اليوم على عادات الغربيين فحاجته تمس إلى هذا. (يدق الباب).

(تنادى) مشهدى أكبر يا مشهدى أكبر، يالله قد أتانا جعفر!

مشهدى أكبر ـ ناديتنى يا سيدتى؟

الأم ـ الباب يطرق، اذهب وعجل بفتحه، إنه جعفر العزيز.

مشهدى أكبر ـ تقولين إن الباب يطرق يا سيدتى؟!! ما سمعت، ولم يتبق للعين بصر، ولكنى ذاهب فوراً (يخرج).

الأم ـ اللهم قدر لى أن أزوج ولدى، وأرى حوله من الأطفال سبعة أو ثمانية يهللون ويعدون ويبكون ويفسدون أثاث هذه الدار، ولتلحقنى بعد ذلك يا ربى برحمتك. ليس لى فى الدنيا أمنية غيرها، وزينت ستعيننى وتشد أزرى فى القيام على خدمة الدار وستكون إلى جانبى فى الحياكة وترقيع الثياب وكيها وطهو الطعام وقراءة القرآن، وهى تمت إليه بالقرابة أليست ابنة خاله، فزواج مثله من مثلها قضاء مقدر وأمر مقضى. لقد عرضت الأمر على أخى فارتضاه. سنزفها إلى جعفر وسيقيمان معنا فى دارنا، فنراهما من حولنا.

المشهد الرابع

(الأم ـ مشهدى أكبر)

الأم ـ أين هو، ما باله لا يدخل!

مشهدى أكبر ـ (فى يده رقعة للزيارة) سيدتى بشراك يا سيدتى، إن لى عندك حسن الجزاء! إنه هو، هو جعفر نفسه أمام الباب، أحمدك اللهم الحمد الذى أنت أهله.

الأم ـ أين هو؟ ما باله لا يدخل!

مشهدى أكبر ـ يا سبحان الله لست أدرى، لقد فتحت الباب فرأيت أمامى شابًا وسيمًا سمهرى القوام، عرفت فيه جعفر خان، وقلت ها أنت ذا يا سيدى الأعز، وقام فى نفسى أن أعانقه وأغمره لثمًا غير أنه دفعنى عنه قائلاً، دعنى لا يصبنى رشاش من بصاقك، أنت تحمل الجراثيم.

الأم ـ حسنًا، ولكن هلا أخبرتنى عما حال بينه وبين الدخول؟

مشهدى أكبر ـ لقد دعوته فما اكترث لدعوتى، وقال لى، دونك رقعتى فاحملها إلى سيدتك ريثما أنقل من العربة حقائبى، ثم سأل إن كنتِ فى الدار أم خارجها.

الأم (تأخذ الرقعة) ـ ما هذا، ما أنا بقارئة (وتدفع الرقعة إلى مشهدى أكبر).

مشهدى أكبر ـ هذه كتابة أهل الغرب ولا علم لى بها، غير أنى أذكر أنه قال عنها أنها رقعة الزيارة.

الأم ـ مهما يكن من أمر، عليك أن تدعوه إلى الدخول.

مشهدى أكبر ـ سمعًا وطاعة يا سيدتى، أنا ذاهب إليه (يخرج).

الأم (بمفردها) ـ ولدى الحبيب .. لا بد أن يكون قد لقى من سفره هذا نَصَبا. لقد هيأت له النقل والحلوى السكين والشوكة فليشبع جوعته. والظمأ لا أخاله إلا قد أجهده، فلأذهب وأحضر له خسًا يبل به حلقه (تخرج).

المشهد الخامس

(مشهدى أكبر ـ جعفر خان ـ كاروت)

(يبدو جعفر خان فى حلته الأوربية الرمادية اللون وعليها معطف، وفى يده قفاز، يمناه تحمل حقيبة، ويسراه تقبض على سلسلة يقود بها كلبه، ومن ورائه مشهدى أكبر وهو يحمل حقيبة ومظلة وعصيًا يضعها على الأرض. يتكلم جعفر خان الفارسية وفى لسانه لكنة ظاهرة)

جعفر خان (يضع الحقيبة على المنضدة) ـ أف أف! لقد وصلت أخيرًا. كانت طريقًا طويلة وسفرة مرمضة فغصصنا بغبار حشوه الجراثيم (ينفض الغبار عن حذائه وقلنسوته، ثم يخلع القلنسوة ليضعها على المنضدة، ويلتفت إلى كلبه ناظرًا إلى الساعة فى رسغه) ـ يا كاروت، لقد غادرنا مدينة (ينجه امام) فى السابعة والربع صباحًا، فكأننا قطعنا الطريق فى ثمانى ساعات وثلاث وعشرين دقيقة على التحديد.

مشهدى أكبر ـ والآن يا سيدى الأعز، آمل أن يكون العيش قد هنأك فى تلك الديار، لقد غبت بضعة أعوام.

جعفر خان ـ نعم، وفى ذلك الكفاية، وأنت يا مشهدى أكبر، كيف حالك، ما زلت حيًا، لم تمت!

مشهدى أكبر ـ ذلك من سماحتكم وحسن رعايتكم يا سيدى، لقد حفظ الله علينا نعمة العافية فبقيت فينا بقية. حمدًا لله لقد قدم سيدنا من بلاد الغرب، وهو الآن بسبيل أن يحيا حياة جديدة ويتخذ له زوجة يسكن إليها.

جعفر خان ـ أنا؟ ما أصبت شاكلة الصواب يا مشهدى أكبر، الرجل لا يتخذ الزوجة لنفسه (يلتفت إلى الكلب) أليس كذلك يا كاروت؟ (يقول لمشهدى أكبر) أعطنى هذه الحقيبة.

مشهدى أكبر ـ كيف ذلك يا سيدى!

جعفر خان ـ هذه الحقيبة.

مشهدى أكبر ـ حسنًا يا سيدى.

جعفر خان (يتناول الحقيبة من يد مشهدى أكبر، ثم يفتحها مخرجًا منها فرجون الملابس وكتابًا فرنسيًا ونضاحة عطر ومشطًا، ويضع هذه الأشياء المختلفة على المنضدة) ـ والسيدة أين هى؟

مشهدى أكبر ـ ستحضر فورًا يا سيدى.

جعفر خان (يسلم مشهدى أكبر سلسلة الكلب) ـ أمسك بهذا لحظة يا مشهدى أكبر.

مشهدى أكبر ـ ولكنه نجس يا سيدى.

جعفر خان ـ كاروت نجس؟! إنه أنظف منك ألف مرة.. إنى أنظفه بالصابون فى كل صباح، اذهب يا كاروت. (يقبض مشهدى أكبر على طرف السلسلة غير أنه يباعد بينه وبين الكلب).

مشهدى أكبر (متمتمًا متغيظًا) ـ إنه عمل لنا جديد! لقد أصبحنا حراسًا للكلاب بعد أن سلخنا من العمر ثمانين عامًا وكنا المسلمين المؤمنين.

جعفر خان ـ الجو هنا خانق يزهق الأرواح (يضغط على نضاحة العطر) الهواء محمل بالجراثيم. ولا شك.

مشهدى أكبر ـ ولكن اصدقنى يا سيدى، ألم تجد هدية تحملها إلينا من بلاد الغرب أفضل من هذا الكلب. إنه كلب أوربى قذر، وكان أولى بك ثم أولى بك أن تتحفنا بمنظار.

جعفر خان ـ بمنظار، ولماذا؟

مشهدى أكبر ـ لقد علت سننا، فكَلَّ بصرنا وقَل سمعنا.

جعفر خان ـ كم لك من العمر؟

مشهدى أكبر ـ لما عاد والدك ـ يرحمه الله ـ من أوربا مع الشاه ناصر الدين، لم تكن ولدت بعد، وأذكر أن السيدة الوالدة قد سقطت ثنيتاها (يعد) عشرون عامًا هنا وخمسة وعشرون عامًا هناك.. ستة وخمسون عامًا.. وسبعة عشر عامًا. وبذلك يكون لى من العمر ثمانون أو خمس وثمانون سنة يا سيدى على التقريب.

جعفر خان ـ خمسة وثمانون عامًا ـ إنها لعادات قبيحة تتأذى بها الصحة، فالإقلاع عنها من الضرورة.

مشهدى أكبر ـ عادات قبيحة؟

جعفر خان ـ وهل فى ذلك من شك، من يحيا حياة عادية، يمت بعد ستين عامًا، هذا إضرار بالصحة (يتقدم فى المسرح ويقول لنفسه) لندخل الحمام ونغتسل ففى الساعة السابعة

وعشر دقائق لا بد من الخروج لمقابلة مدام هلفا بازوف. لقد عرفت هذه السيدة القوقازية فى الطريق وكنت رفيقها فى السفر، منذ زايلنا مدينة باكو، لقد وعدتها بالزيارة لتقدمنى إلى زوجها الذى قد ينفعنى فى قابل الأيام، إنه يتجر فى السيارات.

المشهد السادس

(الأم ـ مشهدى أكبر ـ جعفر خان ـ كاروت)

الأم (فى يدها حزمة من خس) ـ ياالله ياالله! (تقبله) جعلنى الله فداء وجه لك كالقمر (تبكى فرحًا).

جعفر خان ـ ولكن ما يبكيك؟!

الأم ـ آه لو تعلم ما صنع فراقك بى، ولقد رقبت عودتك فطالت رقبتى، دعنى أقبلك، ها أنت ذا بعد ثمانى سنوات بتمامها، حمدًا لربى (تبكى).

مشهدى أكبر ـ لِمَ البكاء يا سيدتى، لقد عاد سيدنا، وهو فى عافية لا بأس عليه.

الأم ـ نعم، كلا، تقول حقًا وصدقًا، لقد انتهى الأمر (تكفكف دمعها) كم شمعة أوقدت من أجلك وكم فاضت يدى بالعطاء على أولياء الله، لتعود إلىَّ سالمًا غانمًا.

جعفر خان ـ أوقدت الشموع؟ ولماذا!

الأم ـ لتعجل فى إيابك أيها العزيز.

جعفر خان ـ آه. . .

الأم ـ خبرنى ألم تنل منك وعثاء السفر؟ ألم تصب بوعكة؟

جعفر خان ـ لم يكن السفر مضنيًا، وإن كان كاروت قد سبب لنا ما كرهناه وضقنا به.

الأم ـ كاروت، وما كاروت؟

جعفر خان ـ أجادة أنت فيما تقولين؟ ألم أقدمه إليك بعد (يشير إلى الكلب) هو السيد كاروت. ابسط ذراعك إلى السيدة يا كاروت ابسط ذراعك. إنه لا يحذق الفارسية!

الأم (تبتعد عن الكلب) ـ ولكنه نجس، بالله ما هذا الذى جئتنا به!

مشهدى أكبر ـ يا سبحان الله.

الأم ـ مهما يكن من أمر، حدثنا قليلاً عن تلك البلاد وأهلها عليهم لعنة الله. لقد حرمونى من ولدى هذه الحقبة الطويلة من الزمان (تتأوه) حمدًا لربى الذى أحيانى حتى أرانى ولدى، ما كان أطول تلك الصلوات التى أقمناها من أجلك أنت وزينت، وكم مرة طفنا حول أضرحة الأولياء.

جعفر خان ـ زينت، ومن زينت؟

الأم ـ ويحك أما تعرفها! ابنة رقية هانم التى كانت تغذوك إذا ما تغيبت للذهاب إلى الحمام، أو زيارة قبر الإمام، لعلك نسيت.

جعفر خان ـ زينت، الآن ذكرت ما قد كنت له ناسيًا.

الأم ـ فى عهد الطفولة كنت تلاعبها وكانت تلاعبك.

مشهدى أكبر ـ كان جعفر خان يعابثها ويسميها (زين) أى البرذعة، فكانت تمتطى ظهره قائلة: إن كنت أنا زين، فمن تكون يا جعفر؟ . . .

جعفر خان ـ كانت صغيرة يوم رحلت إلى أوربا.

مشهدى أكبر ـ والآن، لقد ربا عودها، واكتمل حسنها حفظها الله، فأصبحت آنسة عاقلة مهذبة أحسن التهذيب، وستشاهدها هنا بعد هنيهة.

الأم ـ نعم يا بنى، إذا دخلت عليك فلتكن لها ملاطفًا مجاملاً، لقد طلبت لك يدها.

جعفر خان ـ شكرًا لك، أمهلينى برهة حتى ألقى عصاى وتستقر بى النوى. ولى بعد ذلك أن أفكر فى أسرة لى أكونها. بالله أى معنى هذا؟

الأم ـ ما معنى أننا جميعًا نتزوج، أليس ذلك كى تنجب الزوجة ذرية صالحة، وترعى شئون الدار، وتتزين لبعلها؟

مشهدى أكبر (لنفسه) ـ لنسأل السيد عن تلك العين ونصيب خبرها من الصحة (بصوت مرتفع) يقولون إن أهل أوربا يصنعون العيون، أصحيح ما يقولون؟

جعفر خان ـ وأى عجب فى هذا، إذا ما ذكرنا أنهم يصنعون أنوفًا وآذانًا و. . . وكل ما لك رغبة فى صنعه.

مشهدى أكبر ـ قاتلهم الله، لقد أعيوا الشيطان خبثًا وفاقوه حذقًا، لم يبق إلا أن يخلقوا إنسانًا آليًا.

جعفر خان ـ أكبر الظن أنهم موفقون إلى خلق هذا الإنسان الآلى بعد خمسة أعوام أو ستة.

الأم ـ ماذا تقول ! أستغفر الله، يخلقون إنسانًا آليًا!

جعفر خان ـ هذا ما لا ريب فيه، إن عالمًا أمريكيًا يتوفر على هذا العمل، وقد تناقلت الصحف أخباره فى أوربا وأمريكا، كما رآه الناس على الستار الفضي. وقد أعانته الحكومة الأمريكية بأربعة ملايين من الدولارات، للإنفاق على تجاربه العلمية.

مشهدى أكبر ـ ويحهم! قاتل الله أباهم! أنا ذاهب لترتيب حقائب السيد وتنضيدها.

جعفر خان ـ جئنى كذلك بأدوات الزينة، فسأدخل الحمام.

مشهدى أكبر ـ أى أدوات يا سيدى؟

جعفر خان ـ أدوات الحمام.

مشهدى أكبر ـ حسنًا، وهل لديك أمر آخر!

جعفر خان ـ وهيء حجرة لكاروت، وفراشه عندك فى الحقيبة الكبرى، ومن حقه عليك أن تعامله بالحسنى، وترعاه أكرم الرعاية، فكاروت كلب مؤدب مدرب شديد الوفاء ينحدر من أصل إنجليزى.

مشهدى أكبر (لنفسه) ـ أن أكرم كلبًا وأرعاه، هذا ما لا عهد لنا به. (بصوت مرتفع) ولكنه يا سيدى لا يعرف لغتنا، ولا علم لى بالفرنسية فكيف أخاطبه!

جعفر خان ـ خاطبه بالفارسية، فإن ذكاءه لشديد وفهمه لقريب وإذا ما شئت أن تترجم اسمه، فاعلم أن كاروت فى الفرنسية بمعنى جزر.

مشهدى أكبر ـ جزر، (يلتفت إلى الكلب) يا جزر، هيا بنا يا سيد جزر (يخرج مع الكلب).

المشهد السابع

(الأم ـ زينت ـ جعفر خان)

زينت (تدخل وهى سافرة) ـ انظرى يا خالة إلى هذا المسحوق (تفاجئها رؤية جعفر خان فتصرخ وتخرج هاربة.

جعفر خان (لنفسه) ـ لا بأس بها لولا شاربها!

زينت (تدخل وعلى وجهها نقاب رقيق يستر أسفله) ـ أسعد الله صباحك.

جعفر خان ـ أسعد الله صباحك يا آنسه، كيف حالك.

زينت ـ حالى كما تشاء مرحمتكم أن تكون.

جعفر خان ـ وكيف حال مرتضى خان، ألم يحضر معك!

الأم ـ لقد تخلف فى ضاحية (تاجريش).

زينت ـ كان بوده أن يحضر ليحييك، غير أن وعكة احتجزته.

جعفر خان ـ إذن أسعى إليه لأعوده فى يوم الجمعة.

الأم ـ اذهب يا بنى الحبيب.

جعفر خان ـ كنا نتحدث عنك فيطول حديثنا.

زينت ـ إن مثلك لا يتحدث عن مثلنا، لقد شاهدت فى أوربا من الملاح ما جعلك تسلونا وتنسانا، فأين حسننا من حسنهن؟ ولن نكون فى رأيك من بنات حواء بالإضافة إليهن.

جعفر خان ـ هذا ما لا دوام له، ستصبحن كذلك شيئًا مذكورًا، والعجب لك يا آنسة إنك لم تتزوجى بعد.

زينت ـ لم يجر بذلك قضاء الله.

الأم ـ إن قلوب العشاق لتهفو إلى محاسن لها وفضائل تتحلى بها، وقد طلب يدها مائة منهم وعمها هو الذى امتنع من تزويجها فهى عارفة بكل ما يروق الزوج ويسعده، وحاجبها تخطه، والحلوى تصنعها، كما ترجم بالغيب، ولها بالسحر دراية.

جعفر خان (فى نفسه) ـ تلك هى الصفات التى تنفعنى! (بصوت مسموع) ـ حسنًا وماذا تحسنين غير ذلك؟ أتعزفين على البيانو أتجيدين الرسم والتلوين، أتلعبين التنس؟

زينت ـ حاشا لى أن أصنع ذلك، أراقصة أنا أم ممثلة تطوف بالشوارع.

جعفر خان ـ نحن الباريسيين نظن ذلك..

الأم ـ وا مصيبتاه! فتى من طهران يقول نحن الباريسيين!

المشهد الثامن

(الأم ـ زينت ـ جعفر خان ـ مشهدى أكبر)

مشهدى أكبر ـ لقد أحضرت الكبش يا سيدتى امتثالاً لأمرك وهو فى المطبخ، وانتظرتك لرغبتك فى أن تقصبيه بنفسك، وها هو ذا جارنا على الغاسل، قد أشخص زوجته لتنال نصيبها من اللحم.

الأم ـ حسنًا حسنًا، ستنال نصيبها. تعالى يا زينت وأعينينا.

مشهدى أكبر ـ لقد وعدتنى يا سيدتى بالرأس والأكارع والكرش فلا تنسى البر بالوعد.

الأم ـ حسنًا حسنًا يا مشهدى أكبر ستنال ما وعدت به.

زينت (توجه القول بدلال إلى جعفر خان) ـ لتكن قراءة هذه الجريدة مسلاتك حتى نعود إليك. (تقدم إليه جريدة كانت على المنضدة).

جعفر خان ـ شكرًا يا آنسه (الجميع يخرجون ما عدا جعفر خان).

المشهد التاسع

(جعفر خان بمفرده)

جعفر خان ـ لا بأس بزينت لولا هذا الشارب (يقعد على الكرسى ويقرأ الجريدة) فيجد ما يأتى:

حفلة تمثيلية تقام لإعانة الجريدة الوحيدة فى بابها (جهنم) هلموا لا تندموا، فى ليلة الجمعة ٢٩ ربيع الثانى، المسيو شاكال الفنان الطائر الصيت بالمسرح الامبراطورى فى

فلاديفستوك مع صاحبته فى بهو الجراند أوتيل سيعرضان رقصات أدبية واجتماعية على الطريقة الأوربية الحديثة. هلموا لا تندموا).

لا بأس، ها هى ذى الحياة تدب فى طهران، ثم يقرأ (أنباء داخلية على جانب من الأهمية. لقد شرف أمس دولة رئيس الوزراء المحكمة وشرب كوبًا من الماء القراح، وكان الوزراء جميعًا فى حضرته وقد استمرت الجلسة إلى ما قبل الغروب) ويقلب الصحيفة (وصل إلى العاصمة السيد مفتخر الذى يعتبر من شباب البلاد الخيرين العاملين بعد أن قضى ثلاثين عامًا بالجامعات الأوربية فى دراسة الفلسفة والعلوم والرياضة البدنية وفن النحت ونظرًا لكل ما بذل من جهد فى تحصيل هذه العلوم، رأت الحكومة تعيينه فى إدارة الرى وسيتولى قريبًا مهام منصبه) من هذا الذى يقول إن المثقفين لا تقدر ثقافتهم حق قدرها فى إيران، يا لها جريدة قيمة تأتى بأحسن الأخبار وتعرض أحكم الأفكار، لنقرأ هذا العنوان (يقرأ فى الصحيفة الأولى) (العاصفة جريدة سياسية أدبية علمية أسبوعية أخلاقية اجتماعية مصورة، فلسفية عملية وطنية اقتصادية ـ مقر الجريدة ـ شروط الاشتراك وما يجرى هذا المجرى) (يقوم) لا بأس والله، الأحوال تنتظم والأمور تتسق فى إيران شيئًا فشيئًا (يقترب من صحن النقل) ماذا أعدوا لنا يا ترى. حمص وزبيب! لم أنعم بأكلهما منذ زمن بعيد (يقعد) ولكن كيف يؤكل هذا؟ لا وجود للمنشفة. (يأكل بالشوكة).

المشهد العاشر

(جعفر خان ـ الخال)

الخال (لنفسه) ـ كيف هذا! يأكل الحمص والزبيب بالشوكة (ينادى) جعفر خان يا جعفر خان.

جعفر خان ـ خالى. (يقف ويمد إليه يده مصافحًا).

الخال (يدفع يد جعفر خان) ـ ما هذا! لست ممن يصافحون باليد (يقبل وجنتى ابن اخته) مرحبًا بك مرحبًا حدثنا ماذا صنعت فى بلاد الغرب.

جعفر خان ـ كنت فيها هانئ العيش ناعم البال مرضى الحال، مع شدة الأسف على بعدكم عنى.

الخال ـ لا، لا تأسف على بعدى عن تلك البلاد، ورجائى ألا تتمنى لى أن أكون فيها. كيف رأيت طهران؟

جعفر خان ـ وجدت فيها بعض التَّغَيُّر.

الخال ـ كيف؟ ماذا وجدت.

جعفر خان ـ فيها أحوال تبدلت، وأمور تحسنت، فالقوم يستصبحون بالكهرباء ويرشون شوارعهم.

الخال ـ ثم ماذا؟

جعفر خان ـ يلوح لى أن جبال البرز قد عظم ارتفاعها.

الخال ـ كلا يا سيدى كلا. الاستصباح بالكهرباء ورش الشوارع لتجميل المدينة! إنهم بذلك يفسدون طهران إفساداً لا صلاح بعده أبداً. بالله أى حاجة بنا إلى نور الكهرباء ورصف الشوارع؟ تأمل لقد قبضوا على المتسولين المساكين وأخرجوهم من المدينة، وصنعوا بالمجانين ما صنعوا بالمتسولين ليقال عنهم إنهم شيدوا ملجأ للمعوزين والزمنى. وينسب إليهم فضل إنشاء بيمارستان لمن ذهبت عقولهم.

جعفر خان ـ تلك مؤسسات ما أعظم نفعها، وبمثلها تمضى البلاد قدماً نحو الحضارة والتقدم. إن بلاد أوربا لا تخلو من البيمارستانات، والملاجئ للأيتام والعجزة.

الخال ـ على رسلك يا بنى ما دمت تخاطبنى على قدر عقلى وباللغة التى أفهمها.

جعفر خان ـ أريد لأقول إنه لزام علينا أن نحذو حذو الأوربيين ما دمنا ننشد التقدم.

الخال ـ كلا يا سيدى كلا، هل كان لهؤلاء الغربيين وجود على عهد سليمان ابن داود؟

هل ظهرت الجامعات وملاجئ العجزة ومعاهد باستور فى ذلك الزمان؟ ومع ذلك كان الناس بخير. إن ملاجئ العجزة هى علة عجزنا اليوم. اسمع أيها العزيز، إن تقليد الغربيين تقليد القرد لن يجدينا نفعاً.

جعفر خان (لنفسه) ـ إن مائى وماء خالى لا يجريان فى نهر واحد كما قال الحوذى يوماً فى طريقه، فلا طائل من ذلك النقاش.

الخال ـ لقد دخلت الحجرة بنعليك! اخلعهما.

جعفر خان ـ أخلع نعلى؟!

الخال ـ نعم لا بد من ذلك.

جعفر خان ـ ولكن للصحة . . .

الخال ـ ليس للصحة فى ذلك من دخل وإلا فما هو؟! أنت تنجس الحجرة كلها، والبساط الذى عليه تصلى.

جعفر خان ـ إذا خلعت نعلى اتسخت قدماى.

الخال ـ كلا، اخلعهما اخلعهما.

جعفر خان (لنفسه) ـ إن كانوا سيبدأون فى مضايقتى من الآن،فلن يكون دوام لهذه الحال (بعد تردد) لنصبر قليلاً ولنظهر بعض الطاعة فى البداية، وبعدها يمكننا أن نملى إرادتنا فى يسر وسهولة (يخلع نعليه).

الخال ـ اسمع الآن، بعد أن عدت إلى وطنك سالمًا غانمًا فقد حققت أن تجارى قومك فى كل ما لهم من عادات، لا بد لك من أن تأكل بأصابعك وتطهر فاك بعد الشرب وتنام على الأرض و . . . قلنسوتك.

جعفر خان ـ لقد خلعتها لتهوية رأسى، إنها مسألة صحية.

الخال ـ ما هذه الصحة التى تترنم بذكرها، يا هذا ضع قلنسوتك على رأسك. أنت إيرانى فلا تتكلم بهذا الكلام (يهم بوضع القلنسوة على رأس جعفر خان).

جعفر خان ـ قال الطبيب إن لبسها على الدوام يورث الصلع.

الخال ـ ماذا؟!

جعفر خان ـ سيتساقط شعر رأسى.

الخال ـ إن طبيبك هذا أوقح من ذئب. وما يدريه هو؟! عليك أن تنتصح بنصيحتى أنا. إذا لم تلبس قلنسوتك فى إيران فستجد من يضعها لك على رأسك (يضع القلنسوة على رأس جعفر خان) نحن الإيرانيين علينا أن نتعلق بقلنسوتنا أشد التعلق، فإنها آخر ما تبقى لنا.

جعفر خان ـ ·يخلع معطفه ويقول فى نفسه لقد بدأ يثير أعصابى).

الخال ـ القلنسوة رايتنا، هى العلم، هى التاريخ، هى الوطن (يلحظ رباط عنقه ومنديله المطل من جيبه) وما هذا أيضًا وذاك. أنت فاسد الهندام (يقول له ناصحًا) اخلع كل هذا واطرحه.

جعفر خان (وهو مستاء) ـ ولكن يا سيدى هذا رباط للعنق وهذا منديل، تلك أمارات المدنية فكيف أطرحها!

المشهد الحادى عشر

(الخال ـ مشهدى أكبر ـ جعفر خان ـ كاروت)

مشهدى أكبر (فى يده سلسلة الكلب) ـ سيدى إن هذا الكلب آخذ فى مضايقتنا، لقد دخل المطبخ ووجد كرش الذبيحة فأعمل فيه أسنانه ولسانه.

جعفر خان ـ هذا لا يقبله العقل يا مشهدى أكبر، كاروت كلب مدرب لا يأكل الكرش.

الخال ـ بسم الله الرحمن الرحيم، ما هذا؟ وأين وجدت هذا الكلب.

مشهدى أكبر ـ بالله ماذا عسيت أن أقول، جزر ملك سيدى وقد جاء به من بلاد الغرب.

الخال (لجعفر خان) ـ أهو تحفة نادرة؟! (لمشهدى أكبر) أطلقه فى الطريق، سينجس كل شيء هنا.

جعفر خان ـ كيف يطلق كاروت فى الطريق إنه تذكار من مدام هلفا بازوف. لقد أنفقت عليه كثيراً منذ صحبته من باكو إلى هنا، فدفعت له رسم الجمرك وثمن تذكرة الباخرة وأجر العربة والآن تقولون عنه إنه نجس!

الخال ـ لا إله إلا الله، لقد أصبت بالجنون حقًا من أوربا (لمشهدى أكبر) احمل الكلب احمل الكلب (مشهدى أكبر يتهيأ للخروج).

جعفر خان ـ أنا أعترض (يعدو خلف مشهدى أكبر ويلحق به) لا تطعه يا مشهدى أكبر ولا تذهب لإطلاقه.

(مشهدى أكبر يخرج بالكلب) (يقول جعفر خان فى باله) ـ متى يتحضر هؤلاء القوم.

الخال ـ اسمع يا بنى. لسنا فى أوربا، نحن فى إيران وديننا الإسلام. لا حاجة بنا إلى تلك المدنية التى تذكرها ولا يمكن أن نؤاكل الكلاب، وإذا ما شئت أن تعيش بين ظهرانينا فاجعل نصب عينك اطراح هذه البدع. ولزام عليك أن تطرد كلبك وتتزيا بالزى الإيرانى. لا تكو سراويلك، ولا تكن صاحب رأى. والآن عجل بالذهاب لتغيير ما بك ثم عد لأحدثك.

جعفر خان ـ ولكن..

الخال ـ كلا كلا، افعل ما أوصيتك به، البس ثوبًا إيرانيًا وستفهمنى أحسن مما كنت تفهمنى (يخرجه ثم يقول بصوت خفيض) لا إله إلا الله.

المشهد الثانى عشر
(الخال ـ الأم)

الأم (تحمل صينية عليها فنجان) ـ أين ولدى لقد أحضرت له شوكولاته.

الخال ـ شوكولاته! دعى هذا أيتها الأم، لقد أفسدوه ما وسعهم أن يفسدوه فى أوربا، أتطلبين بذلك مزيداً من إفساده؟!

الأم ـ لقد تحضر ولدى وأصبح من عاداته أن..

الخال ـ كلا لا تطيعيه (تضع الصينية على المنضدة) ارفعى هذا عن المنضدة، أى حاجة به إلى كرسى وشوكة، لا بد من تعليم هذا الفتى، إنه مخبول، لقد أدخل الكلب النجس

حجرتنا، أقول هذا لصالحه، ثم ألسنا راغبين فى أن نزوجه زينت؟ إذا لم يخرج من عاداته فكيف تكون العشرة بينهما! سيسيء عشرتها ويكدر عيشها، سيطلب إليها أن تنام على سرير وتجلو أسنانها بالفرجون وتأكل على المنضدة وسيحذرها الجشاء، أنا لا أحب لزينت أن تشقى فى حياتها. فأنا أكفلها بعد موت أبيها، وكنت أوثرها على أولادى حتى بلغت مبلغ النساء، ولا بد من مداومتى على تلك الرعاية الأبوية.

المشهد الثالث عشر

(الأم ـ الخال ـ مشهدى أكبر)

مشهدى أكبر ـ سيدتى سيدتى، لقد تجرد جعفر خان من ملابسه فى فناء الدار وجعل يملأ الإبريق ماء ثم يشنه على أم رأسه، ولما سألته عما يصنع، قال إنه يبترد، وقد دخل الآن غرفة الأمتعة وأخذ يتفقد ملابس سيدنا المرحوم. ولما قلت له فى ذلك أجابنى بقوله، صه يا هذا فأنت تؤذى أعصابى، وأخشى ما أخشاه عليه هو ذهاب عقله لا قدر الله.

الخال (للأم) ـ انظرى، ألم أكن على حق فى قولى بوجوب تربيته وتعليمه.

الأم ـ لن يدوم على هذه الحال، فهذا أبوه قد عاد من الغرب بعادات قبيحة كما عاد.

مشهدى أكبر (لنفسه) ـ العصا من العصية ومن شابه أباه فما ظلم.

الأم ـ سيتمدن شيئًا بعد شيء ولن يوافى الشتاء حتى يكون قد نام بجانب المدفأة وأقلع عن عادة صب الماء على رأسه، وأطلق شاربه.

الخال ـ كلا يجب العمل من الآن قبل أن يتسع الخرق على الراقع.

مشهدى أكبر ـ السيد على حق ولا ريب، ما أنس لا أنس قوله لى إن الإنسان يجب أن يموت بعد بلوغ السبعين.

المشهد الرابع عشر

(الأم ـ الخال ـ مشهدى أكبر ـ جعفر خان)

جعفر خان (خلع ياقته ورباط عنقه ولبس قميصًا إيرانيًا فضفاضًا) ـ لم أجد سوى هذا القميص، إنه واسع بعض السعة.

الأم ـ لا بأس أيها العزيز، ليس عيبه بظاهر.

جعفر خان ـ فى هذه الأيام القلائل، سأكون كما يريدون لى أن أكون، ثم سأعلمهم المدنيـة ما هى فذلك مبدأ أدار عليه السياسى الفرنسى تاليران سياسته (بصوت عال) اسقنى يا مشهدى أكبر، وليكن الماء مغلىً حتى تموت جراثيمه.

مشهدى أكبر ـ سمعًا وطاعة سيدى (يخرج).

الأم (لجعفر خان) ـ تعال لقد هيأت لك ياقة إيرانية بدلاً من الإفرنجية (تعلق فى عنقه تميمة).

جعفر خان ـ ما هذا! ماذا تصنعين؟

الأم ـ حذار من لمسها يا ولدى، إنها وقاء من العين الشريرة.

جعفر خان ـ العين الشريرة؟

الخال ـ تعال يا ولدى علق هذه التميمة فى ذراعك، لقد ابتعتها لك اليوم (يعلق التميمة فى ذراعه).

جعفر خان ـ ماذا أصنع بتمائمكم؟

الخال ـ من حملها أمن المرض.

جعفر خان ـ (هازاً رأسه) حسنًا حسنًا حسنًا.

مشهدى أكبر ـ (يدخل وهو يحمل كوبًا من الماء كبيرًا) تفضل يا سيدى.

جعفر خان ـ هل تأكدت من غليان هذا الماء قبل إحضاره وخلوه من جراثيم الأمراض؟

مشهدى أكبر ـ لقد نضجت الجراثيم، خذ وانظر بنفسك.

جعفر خان (ينظر فى الماء) ـ حسنًا (فى اللحظة التى يهم فيها بوضع الكوب على فمه يعطس مشهدى أكبر).

الأم ـ صبرًا يا جعفر صبرًا.

جعفر خان ـ وكيف؟

الأم ـ لا تشرب فهذا (صبر).

جعفر خان ـ لقد طلبت هذا الماء لأشربه.

الجميع ـ لا لا. لا يحسن بك أن تشرب فهذا (صبر).

جعفر خان ـ ماذا تعنون بهذا الصبر، أنا ظمآن (يهم بالشرب).

الخال (ينزع الكوب من يده) ـ لقد جاءنا (صبر) فلا تشرب.

جعفر خان (يذعن) ـ ماذا أقول!

مشهدى أكبر ـ اسمع يا سيدى العزيز إذا جاءنا (صبر) فلا بد أن تصبر وإلا نالك مكروه ـ أخرس الله لسانى ـ كأن تشرق بالماء (يعطس).

الجميع ـ هذه (عجلة).

الخال ـ لقد جاءتنا العجلة (يقدم الكوب إلى جعفر خان) اشرب الآن.

جعفر خان ـ كيف؟ إن كان شرب الماء لا يستحب بعد العطس فهو لا يجوز الآن.

الخال ـ كلا، كانت العطسة الأولى صبراً أما العطسة الثانية فعجلة.

جعفر خان ـ ماذا تريدون بصبركم وعجلتكم، دعونى وشأنى، لا أريد الشرب.

الجميع ـ إنها عجلة.

الخال ـ هذا لا يجوز، متى وجدت العجلة فالشرب واجب (يرغمه على الشرب).

جعفر خان ـ ما هذه المشاكل التى أرتبك فيها.

الخال (للأم ومشهدى أكبر) ـ أريد أن أفاتح جعفر خان فى أمر زواجه فيحسن بكما أن تتركانا وحدنا.

الأم ـ حسنًا إذن نخرج (تخرج الأم ومشهدى أكبر).

المشهد الخامس عشر

(الخال ـ جعفر خان)

الخال ـ تعال يا جعفر خان، اقعد هنا لأفضى إليك بشىء.

جعفر خان ـ حسنًا (يهم بالقعود على الكرسى).

الخال ـ لا لا. (يشير إلى البساط الذى قعد عليه كدأب الإيرانيين. يقعد جعفر خان إلى جانبه وإن كان لا يحسن القعود)، نحمد الله على عودتك من أوربا وبقائك فى إيران.

جعفر خان ـ لست على ثقة من ذلك وأكبر الظن أنى . .

الخال ـ لا، لا تقل هذا ولا تخطره على بالك، لقد استقر بك المقام فى إيران، ففكر فى عش لك تبنيه، ودار لك تؤويك، وحياة جديدة تنشؤها، ومعنى هذا أن يصح منك العزم على الزواج، وقد شاورت أمك فى الأمر واخترنا لك زينت.

جعفر خان ـ لقد قررتما ذلك؟ شكراً لكما.

الخال ـ نحن فى ربيع الأول، والزواج لا يستحب فى هذا الشهر، فلنرجئ ذلك إلى الشهر المقبل إن شاء الله.

جعفر خان ـ الشهر المقبل أوفق، ولكن قد يكون لى رأى خاص أبديه.

الخال ـ لقد فكرت أنا وأمك فى كل ما يمكن أن يجول بفكرك، سنحدد من الأيام المقبلة ما نقيم فيه حفلات العرس التقليدية، ثم ندعو الشيخ ظريف الشريعة لعقد القران وفى نهاية شهر رجب سنحدد ليلة الزفاف.

جعفر خان ـ عفواً، نحن نسير سيراً عنيفًا فعلى رسلنا، ولا يسعنى إلا أن أطلعكم على عدم رغبتى فى الزواج، وإذا تزوجت فلن أتزوج إيرانية.

الخال ـ لن تتزوج إيرانية! إن كان الأمر كذلك فالزم الصمت، لأن الأوربيين لن يقدموا إلينا بناتهم للزواج. وإذا لم يكن من الأمر بد فستكون الزوجة من اللائى تعرفهن. فمدام جعفر خان إما طاهية أو غاسلة أو راقصة.

جعفر خان ـ و فرضنا جدلاً أنى سأتزوج إيرانية فذلك معلق بشروط لا يمكن قطع النظر عنها، فلا بد بادئ ذى بدء من معاشرة الخطبة مدة من الزمن ودراسة طباعها للتأكد من إمكانية التفاهم معها، وهذا ما يتطلب من الأعوام خمسة أو ستة.

الخال ـ بعد الزفاف ينفسح الوقت لمعرفة الزوجة حق المعرفة، فلا ضرورة لكل ما ذكرت.

جعفر خان ـ نعم ولكن بعد أن يسبق السيف العذل، ولا بد للإنسان أن يكون قد رأى ذلك الوجه الذى سوف يراه آناء الليل وأطراف النهار.

الخال ـ بعد الزفاف سيرى كل صاحبه رؤية تفى بحاجته وتسد نهمته.

جعفر خان ـ وما جدوى ذلك بعد الزفاف؟

الخال ـ الرؤية محرمة قبل الزفاف، إنك أيها العزيز لا تميز خيرًا من شر!

جعفر خان ـ وهل من الشر أن أعلم إن كان لزوجتى أنف طويل أو مستدير؟

الخال ـ إن كان الأمر كذلك فلتكن هادئ البال من هذه الناحية، فلا عيب فى أنف زينت. ولكن لا يعزبن عن فكرك أن هذه الأمور لا تحتمل المزاح ولا التندر، حذار من أن تتحدث عنها فى مجالسك وإلا عرضت نفسك للرجم.. وهناك موضوع آخر أحب أن أحدثك عنه، لقد سلخت تسعة أعوام فى الدراسة بأوربا ثم عدت إلى طهران، فماذا تنوى أن تصنع؟

جعفر خان ـ أريد أن ألتحق بعمل إدارى وأتبوأ منصبًا من المناصب.

الخال ـ وما وسيلتك إلى هذا المنصب؟

جعفر خان ـ أتقدم إلى مصلحة من المصالح أو وزارة من الوزارات، وأذكر مؤهلاتى الدراسية..

الخال ـ مهلاً يا صديقى، هذا لا يجديك فتيلاً، لست ذا تجربة فى ذلك، دعنى أوقفك على حقيقة الأمر. لا بد قبل المضى فى ذلك من أن تكون على وفاق مع نفس من الناس تستعين بهم على إنجاح مسعاك. وبعد أيام تلبس من صالح ثيابك وتحرص على أن تبدو فى هيئة أهل الفضل والوقار، وتذهب إلى الوزير فى الصباح الباكر. وهناك تحييه وتجله إجلال من يتملق له طمعًا فى قضاء حاجة عنده، فتخلع عليه أفخم الألقاب وتسميه أكرم

الأسماء، ثم تذكر الغرض من زيارتك، ولا بأس من أن تورد فى كلامك بضعة ألفاظ كالوطن والدستور. وحذاريك يا بنى ذكر دراساتك، أما إذا سألك عن نوع اختصاصك العلمى فلا تنس أن تقول إنه من القحة ذكر العلم فى حضرتكم وادعاء التبريز فيه أمامكم، وخادمكم أجهل من راعى ضأن فهو لا يميز الألف من العصا!

جعفر خان ـ وهل يسنى لى هذا أن أنال المنصب الذى أصبو إليه!

الخال ـ وهل فى ذلك من شك؟ وإذا لم توفق بذلك فى المسعى فعليك بوسيلة أخرى. تصير إلى الوزير، فتثلبه وتتوعده، وفى الغد تدفع الأجر لجريدة تنشر مقالاً ضده، وبذلك تنال ما تتمنى وإذا لم تفلح هذه الحيلة (يتظاهر بعد النقود) فضع خطابًا فى ظرف يحمل إلى مكتب معاليه، وهذه الوسيلة لا تخيب أبدًا.

جعفر خان ـ هذه مسألة من مسائل الاقتصاد السياسى وإن كنت لا أفهم السبب فى إرسال الخطاب إلى مكتب معاليه.

الخال ـ يمكن أن يتسلمه بيده، غير أن هذه الحيطة كانت تتخذ مع أصحاب المعالى الأقدمين الذين كانوا يتظاهرون بالتقى والورع، كمن يغسل سجادته فى كل يوم ليدرك الناس من ذلك أنه قوّام يطيل الصلاة والتعبد، والواقع من الأمر أن سجادته إذا اتسخت فإنها لا تتسخ من صلاته عليها!

المشهد السادس عشر

(الخال ـ جعفر خان ـ الأم ـ مشهدى أكبر)

مشهدى أكبر ـ لقد هيأت لك الحمام يا سيدى بكامل أدواته، غير أنى لم أعثر على الإسفنجة فوضعت لك حجرًا بديلاً منها.

الخال ـ تريد الذهاب اليوم إلى الحمام؟

جعفر خان ـ نعم، أنا اليوم قادم من سفرى وقد تراكم على الغبار والجراثيم.

الخال ـ فى أى يوم نحن؟

الأم ـ الثلاثاء.

الخال (لمشهدى أكبر) ـ ناولنى هذا التقويم لنعلم إن كان يوم الثلاثاء يومًا موافقًا للذهاب إلى الحمام.

جعفر خان ـ نعم؟

الخال (يأخذ التقويم من مشهدى أكبر ويفتحه) ـ تريث قليلاً (يقرأ فى التقويم): ربيع الأول، ربيع الثانى، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء الساعة الرابعة والدقيقة الثانية والثلاثون

والثانية السابعة عشرة بعد طلوع الشمس، ويدخل القمر فى برج العقرب، هذا الوقت وقت سعد لوضع الأطفال فى المهد، وخياطة الملابس الجديدة، وخلع الأسنان، والفصاد. وهو وقت نحس لبناء المساجد، ومقابلة العظماء، وعقد القران، ونثر الحب. وسعد للختان، والفطام، وتسويق البضائع، وصيد السمك. ونحس لإرسال الهدايا، والضرب، وركوب البحر، وتناول المسهلات ودخول الحمام. فدخول الحمام محظور ولا يستحب أن تذهب اليوم إلى الحمام.

جعفر خان ـ كيف؟! كيف يكون الاغتسال شرًا؟

الخال ـ اذهب فى يوم الجمعة فهو أوفق لذلك.

جعفر خان ـ أوفق، ولكنى متسخ الجسم ولم أغير قميصى منذ أمس.

الأم ـ ليس هذا شيئًا يذكر يا بنى. انتظر إلى يوم الجمعة فإنه أفضل.

جعفر خان ـ دعونى من هذا، ودعونى أذهب وامح عنى أوساخى ففى ذلك الخير كل الخير.

الجميع ـ لا يستحب ذلك اليوم فإنه يوم شؤم.

جعفر خان ـ آه، وعليه فلن أذهب أبدًا حتى ولا فى يوم الجمعة، لا بد من زيارة مرتضى خان.

مشهدى أكبر ـ أتريد زيارة مرتضى خان؟ السفر إليه غير مرغوب فيه يوم الجمعة.

الخال ـ سنستطلع الرأى فى التقويم (يفتح التقويم).

جعفر خان ـ لا جدوى من ذلك يا عم لا جدوى. . أنا مقتنع!

الخال ـ انتظر برهة حتى أرى (يقرأ) ربيع الثانى، الجمعة يحسن فيه غرس الأشجار، تقليم الأظفار، تغيير المسكن، الاقتراض.

جعفر خان ـ هذا صحيح لا ريب فيه.

الخال ـ لا يجوز فيه التأجير ولبس الجوارب والمرض وتحرير عقود سرية.

جعفر خان ـ كفى بالله كفى، أنا موافق على ذلك.

الخال ـ لا مانع فيه من قشر الخيار والضحك والارتشاء.

جعفر خان ـ أنا مستسلم مطيع.

الخال ـ والنحس لا شك يدرك من يؤدى الدين ويتصل بأهل الحل والعقد ويسافر برًا.

جعفر خان ـ حسنًا لن أسافر برًا (لنفسه) يا إلهى ماذا عسيت أن أصنع مع هؤلاء القوم (يتغيظ ويتناول كتابًا على المنضدة ويتصفحه).

الأم ـ ما هذا فى يدك أيها العزيز، إن كان كتاب صلوات أو عظات فضعه جانبًا لتقرأ لنا منه بين الحين والحين.

جعفر خان ـ إنه تمثيليات موليير.

الخال ـ أتقرأ التمثيليات.

الأم ـ ويلاه هل أصبحت ممثلاً؟؟!

الخال ـ لا ينقصك إلا أن تكون موسيقيًا أو راقصًا.

جعفر خان ـ للتمثيل نفاسته وعظيم أهميته فى أوربا، وقد يكون للممثل أو الممثلة من التأثير على الجماهير ما لا يكون لرجل الدين بمواعظه.

الخال ـ التمثيل عندنا هو القره كوز والحاوى ودع الباقى جانبًا، إن السفر إلى أوربا ليس سببًا يدعوك إلى نبذ فضائلنا وتقليد الغربيين تقليد القردة.

جعفر خان (لنفسه) ـ سيحطمون أعصابى تحطيمًا (ينظر فى الساعة) الخامسة وست عشرة دقيقة، لقد تأخرت ست دقائق عن موعد مدام هلفا بزوف التى تنتظرنى، هذا سيء غاية السوء. (بصوت مرتفع) أنا مشغول بعمل فى الخارج فليس من الخروج بد (يلبس حذاءه).

الخال ـ ما الذى يشغلك وأنت لم تكد تصل..

الأم ـ ستحضر للعشاء لقد طهيت لك لحمًا شهيًا.

جعفر خان ـ فى أى ساعة تتناولون العشاء؟

الأم ـ بعد غروب الشمس بساعتين أو ثلاث ساعات.

جعفر خان ـ ساعتان أو ثلاث ساعات، هذا ما لا أفهم، إن كنتم تأكلون فى منتصف الثامنة حضرت فى منتصف الثامنة وإن كان العشاء فى الثامنة إلا الربع حضرت فى الثامنة إلا الربع. وإن كان العشاء فى الثامنة والثلث جئتكم فى هذا الميعاد.

الأم ـ احضر حالما تشعر بالجوع. جعفر خان ـ (بصوت خفيض) آه لو تمكنا من إدخال دقة المواعيد فى هذه الرءوس (بصوت مسموع) السلام عليكم.

مشهدى أكبر ـ (يعطس).

الجميع ـ صبر صبر.

جعفر خان ـ هذه المرة ليست لى (يهم بالخروج).

الخال ـ كيف ذلك، انتظر.

جعفر خان ـ قد يلازم الزكام هذا الشيخ إلى يوم مماته، فما لى وله؟!

الجميع ـ لا تخرج هذا محال.

جعفر خان ـ يا عجبًا لهؤلاء الناس، إنهم لا يدركون حتى سياسة تاليران. (يفكر برهة) وإذا جاءت العجلة سأتمكن من الخروج. (ويعطس).

الأم ـ لا يا ولدى لقد تظاهرت بالعطس.

مشهدى أكبر ـ ولا بد أن تكون العجلة منى يا سيدى.

الخال ـ لسنا مازحين.

جعفر خان (لنفسه) ـ سأعود إلى التغيظ والتبرم (يرتفع صوته) أريد أن أفهم العلاقة بين أنف هذا الرجل وبين رغبتى فى الخروج.

الخال ـ أستغفر الله، أنت تركب الشيطان فترجل عنه.. أنت لا تفهم يا سيدى إن هذه أشياء لم نختلقها، لقد وجدت على الدوام وستبقى على الدوام.

جعفر خان ـ إن تفكيرى العاجز يقصر عن هذا المستوى أنا ذاهب.

الجميع (يمنعونه) ـ أنت تطلب المستحيل.

جعفر خان ـ أنا أعترض (بصوت خفيض) يا لهم من سوائم! (ويقطع الحجرة جيئة وذهابًا) إن بقيت لحظة معهم فأنا ميت كمدًا ومنشق غيظًا (يرفع صوته) أيها السادة، لقد رأيت من صبركم، ما عيل له صبرى. لقد كان من خطل الرأى أن عدت إلى تلك البلاد، والآن أسألكم إجازة وأذهب (يجمع أمتعته ويضعها فى حقيبته).

الأم ـ كيف!

الخال ـ ماذا؟

المشهد السابع عشر

(جعفر خان ـ الخال ـ الأم ـ مشهدى أكبر ـ زينت ـ كاروت)

زينت (فى يدها رباط الكلب) ـ لست أدرى ماذا أصنع بهذا الكلب القذر لقد دخل النملية وأكل كل ما كان فيها من قشدة وشمع وحلوى.

الأم ـ ليأكل الحلوى.. إن زوجك ذاهب يا زينت فامنعيه من الذهاب.

جعفر خان (يمشى فى الحجرة غاضبًا) ـ لا رغبة لى فى أن أكون وزيرًا ولا نائبًا، ولا فى امتلاك العربات والسيارات. فلأرجع إلى البلاد التي قدمت منها على ما فيها من شرور وآثام. هيا بنا يا كاروت، إن أرض هؤلاء القوم لا تطيب لنا.

الخال ـ ألم أقل إن بلاد الغرب تصيب الناس بالجنون؟

جعفر خان (يخلع التعويذة من صدره ويلقيها على المنضدة) ـ دونكم تعويذتكم والقميص وزينت.

الأم ـ وا مصيبتاه! ماذا تصنع يا جعفر!

جعفر خان ـ أما أنت يا أماه فلى عندك رجاء واحد. وهو ألا توقدوا الشموع من أجلى

ينزع الحقيبة ورباط الكلب من يد زينت ويهم بالخروج) هيا بنا يا كاروت هيا بنا.

الخال (يمسك بعضده) ـ ماذا بك هل جننت؟!

مشهدى أكبر ـ سيدى إن السفر براً غير مسموح به (ينزع الحقيبة من يده).

زينت ـ ألا تبقى لأجلى؟

جعفر خان ـ لا، هذا مستحيل، هيا بنا يا كاروت.

الجميع (يمنعونه ومشهدى أكبر ينزع منه الحقيبة) ـ لن تسافر لن تسافر.

الخال ـ السفر غير مباح.

الأم ـ ليتنى مت قبل هذا.

زينت ـ وا شقوتى.

مشهدى أكبر ـ لقد طهينا طعامًا شهيًا هذا المساء..

(يسدل الستار)

* * * *

غـربـة المـسـاء

قصيدة مشهورة فى الأدب التركى الحديث لرضا توفيق بك والرجل من أعلام السياسة وأساطين الأدب، غير أن الفلسفة كانت أخص ما يشغله حتى عرف بالفيلسوف، وإذا ما دل هذا المثال من شعره على شيء، فإنما يدل على أن القلوب الشاعرة قد تجاور العقول المفكرة فى الأحايين. فالإنسان عقل وروح، يتردد ذهنه بالنظر والتدبر بطلب المعانى، كما يطرب ويحلم وتستبيه الأغانى.

كنت فى أمسية بين الحقول أجول.. فكأنى ببنات الحور قد حللن فى كل الأرجاء وسكن. وكلما أدرت طرفى حائراً مستوحشاً، حسبت هذا الخلاء مليئًا بأسرار الحسن. ونقلت الخطى، فخلت الجبال والجلاميد تمضى معى، وشاهدت تمرغ الأفياء أمام الدوح، فوقع فى نفسى أن كل شيء هناك يرانى، كما شعرت أن الكون مسرور محبور لوجودى. ومنذ الأزل البعيد كان هذا الغدير البرود يغنى لتلك الناحية غناء الأم لابنها فى المهد. وقد تكشفت لى الخميلة عن بائح سرها، فكأن شبابى كان هناك دفينًا. وانبسطت شجرات الصنوبر كهيئة الأجنحة، وبدت المروج كما تبدو السماء ذات النجوم الطوالع. أما الأزاهير فيا لها عجائب على الأفهام منبهمة! وما وقعت على شيء عينى، إلا خلته سحراً فثار عجبى. كانت ساعة للهوى والنجوى، والبلبل الصدوح يغنى ويغنى. والصوت الضاحك منطلق من بين الأفنان، وتشهى الزهر قبلة على الطير، فدار بخلدى أن الكائنات قد جنت بالعشق جنونًا.

وكأن الفصل أصبح الخريف من ذاك العام، فبدت الأرض والأوراق والسحائب وهى تكتسى الصدأ. أما شجرات السرو فتجللت بالسواد كأنها تلبس الحداد. ورأيت للكآبة غبرة على الصخور الحالمة الواهمة، وأضرمت فى المغرب نار للفراق، وعاد إلى الوكر أليف كل طير. واتكأت الشمس على الجبل شأن الجريح المتهالك. لقد ترشفت روحى على لذة لونها المستعر المذاب، وما أبصرت حمرتها الدامية فى الأفق حتى حسبت الأفلاك مثلى جريحة الفؤاد. كانت المياه أرجوانية والجبال بنفسجية، وإحدى بنات الحور على الغدير واقفة منتظرة، ولثم نجم المساء منها الجبين، فما ظننته إلا محبًا لها وامقا، وبدت حمر الأزاهر على حافة الماء،

وفى الورود هالات نارية، وانعكست من بعيد أصداء مترددة للشكوى، فشبه لى غزال أصاب قلبه الصياد.

لقد سرى من الشمس ماء حسنها فى الروض والثريا والبدر، وذاك لأنها ارتضعت شفتها الذابلة وهى تجود بنفسها. ورأيت حمرة الأرجوان فى كل شىء، حتى خيل إلى أن قمر هذه الأمسية وردى الضياء .

❊ ❊ ❊ ❊

فهرس

الموضــــــوع	صفحة

الموضـــــــوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

تعد مؤلفات رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى، الدكتور حسين مجيب المصرى من المصادر والمراجع الأهم فى بابها. وتقديرا من **الدار الثقافية للنشر** بالقاهرة لحجم الإنجاز العلمى الذى قدمه هذا الرائد الكبير فإنها تعيد إصدار مؤلفاته التى أستغرق إعدادها ما يزيد على ستين عاما من العمل الدءوب والجهد المخلص. وقد اعتمد فى تأليفها على مراجع لا تحصى فى تسع لغات، أربع منها شرقية، وخمس أوربية، وعقد المقارنات والموازنات بين آداب الشعوب الإسلامية: العربية والتركية والفارسية والأوردية، مما اقتضى منه الخوض فى مختلف التيارات الروحية والأدبية والاجتماعية فى إطار تاريخى يجمع شتاتها ويشكل منها نسقا معرفيا جديدا وفريدا، لا نبالغ إذا اعتبرناه واحدا من أسس الوحدة الثقافية المنشودة بين الشعوب الإسلامية.

وعن هذا الكتاب

من أدب الفرس والترك

يقول المؤلف: هذا كتاب ينطوى على فصول قصَار تنتظم صدراً صالحًا من أدب الفرس والترك، وتجلو صوراً من تاريخهم علَى نحو آمل أن يشوق ويروق، ويجعل المطالعة فى مرغوب كل مطالع يود أن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم. وقد حرصت الحرص الشديد على أن يكون خطابى فى هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء، فأرضيت الأول ما وسعنى أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها، كما تَحببتُ إلى الثانى بعرضها عليه فى صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد. والملحوظ أنى كنت أكثر تودداً إلى ذلك القارئ الذى يؤثر يعجب ويطرب على ما عداه، ورغبته فى يسير ممتع يترشفه القلب على رغبته عن عسير جاف ليس له من مساغ.